مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية

دورية علمية محكمة تعنى بالقضايا التاريخية والاجتماعية

تصدرها وحدة "المعارف" للدراسات التاريخية والاجتماعية ونشر التراث

كلية الآداب والعلوم الإنسانية بجامعة نواكشوط – موريتانيا

الرئيس الشرفي: حمودي ولد حمادي عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية

مدير المجلة: محمد الراضي ولد صدفن

رئيس التحرير: د. محمد الأمين ولد أن

أعضاء هيئة التحرير:

أ. أمهادي ولد جقدان

د. أحمد مولود ولد أيده

د. اباه ولد الزين

أ. عبد الوهاب ولد محفوظ

أ. عبد الرحمن بعثمان

أ. أحمد ولد حبيب الله

الهيئة الاستشارية:

أ.د عبد القادر بوباية

د. محمد المختار ولد سيد محمد

د. واغي عثمان

د. الناني ولد الحسين

أ. محمد الأمين ولد محمد موسى

د. الشيخ سعد بوه كمرا

شروط النشر

– يجب أن يكون المقال المقترح للنشر أصيلا لم يسبق تقديمه لمجلة أو أي جهة ناشرة أو أكاديمية، وأن لا يكون جزءا من رسالة عليمة.

2– لا يتجاوز المقال الواحد **15** صفحة حتى تتاح فرصة النشر لأكبر عدد من الباحثين.

3– ترسل المقالات إلى المجلة مطبوعة على الحاسوب باستعمال **Word** باللغة العربية:

- الخط المستخدم في المتن **Traditional Arabic** الحجم **14** أما الحواشي فتكون بنفس الخط بحجم **10**

4– بالنسبة للمقالات المحررة باللغة الفرنسية:

- الخط المستخدم في المتن **Timed New Roman** الحجم **14**، أما الحواشي فتكون بنفس الخط بحجم **10**

5– أن يكون توثيق الكتب بذكر شهرة المؤلف متبوعا باسمه الأول والثاني واسم الكتاب، واسم المحقق أو المترجم، والطبعة والناشر ومكان النشر وسنته، ورقم المجلد.

6– أن يكون توثيق الدورية بذكر اسم كاتب المقال، عنوان المقال موضوعا بين علامتي تنصيص " " ، واسم الدورية، ورقم المجلد والعدد والسنة، ورقم الصفحة.

7– يلتزم الباحث القيام بالتصويبات والتعديلات التي اقترحها المحكمون خلال شهر من تاريخ تسلمها.

8– الأبحاث المنشورة لا تعبر إلا عن رأي أصحابها

9– يخضع ترتيب الأبحاث في المجلة لمعايير فنية

10– يكتب الباحث في الصفحة الأولى من البحث إسمه وعنوانه الكامل بالهاتف والإيميل والمؤسسة التي ينتمي إليها، وكذلك الدولة.

11– يكتب ملخصا باللغة العربية وآخر باللغة الفرنسية بما لا يزيد عن **50** كلمة لكل منهما، على أن يكونا في ورقتين منفصلتين.

12– مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية محكمة، وهي ترحب بجميع المقالات المستوفية للشروط السالفة الذكر، ولا ترد المقالات لأصحابها في حال عدم نشرها.

فهرس الموضوعات

كلمة العميد 4

كلمة مدير المجلة 5

البنية التقليدية للمجتمع البيظاني ودورها في التكافل الاجتماعي أ. محمد الأمين ولد سيداحمد 7

حـــرب الصحراء الغربية د. محمد المختار ولد سيد محمد الهادي 24

رحلات الحج وآثارها الثقافية في بلاد الشناقطة خلال القرنين 12 و 13 هـــ أ. محمد الراضي ولد صدفن 51

بعض الخصائص الحضارية لمدينة صحراوية في وسط بدوي: ولاتة نموذجا أ. أمهادي ولد جقدان 61

الأعياد الدينية عند نصارى الأندلس د. محمد الأمين ولد أن 66

الخلافات والمنازعات في المجتمع الجزائري د. بوشنافي محمد 71

ليفي بروفنسال ومِنْهَجُه في تحقيق كتاب أعمال الأعلام د. بوشريط أمحمد 79

حلقة من تاريخ الشعوب المتوسطية قبيل الميلاد أة. خادمة الله بنت أبيش 89

من أعلام المدرسة المالكية بتوات أ. عبد الرحمن بعثمان 95

واقع القطاع الصحي في موريتانيا (من خلال مدينة نواكشوط) أة. لاله بنت سيد المين 103

كلمة العميد

في إطار تنفيذ الإستراتيجية الوطنية لتنمية التعليم العالي، تمت هيكلة البحث العلمي على مستوى الكليات وذلك بهدف إرساء طرق للتدبير الفعال للبحث ووضع نظام منتظم لتقييمه، وتحسين التجانس بينه وبين التكوين من جهة وبين الابتكار والإبداع العلمي من جهة أخرى.

في هذا السياق تم تشكيل عدد من وحدات البحث على مستوى كلية الآداب والعلوم الإنسانية خلال سنة **2012**، وتم استكمال الوحدات البحثية الأخرى خلال السنة الجارية.

ولا شك أن صدور العدد الأول من مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية من طرف وحدة المعارف للدراسات التاريخية والاجتماعية ونشر التراث التابعة لقسم التاريخ والحضارة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، يعتبر لبنة أولى على طريق تنمية البحث العلمي بالكلية والذي نرجو أن تحذو حذوه باقي الوحدات البحثية الأخرى.

ونحن من موقع مسؤوليتنا لا يمكن إلا أن نهيب بهذا الجهد العلمي المتميز ونرجو له المزيد من النجاح والتوفيق.

حمودي ولد حمادي
عميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية
الرئيس الشرفي للمجلة

كلمة مدير المجلة

من البدهي أن عظمة الدول وتطور المجتمعات لا تقاس من خلال ما تملك من موارد اقتصادية وبشرية، بل بنهضتها العلمية والفكرية. ومن هذا المنطلق فإن هذين الشرطين لا يمكن تحقيقهما دون إرساء قواعد مكينة للبحث العلمي وتحسين أدائه وتعبئة الوسائل الضرورية لذلك.

في هذا السياق تم تأسيس وحدة المعارف للدراسات التاريخية والاجتماعية ونشر التراث بقسم التاريخ والحضارة بكلية الآداب والعلوم الإنسانية، التي أخذت على عاتقها مسؤولية إنشاء مجلة الدراسات التاريخية والاجتماعية. وتسعى هذه المجلة العلمية المحكمة، علاوة على الإسهام في حركية البحث العلمي الجامعي إلى القيام بالدراسات الضرورية في المجالات التاريخية والاجتماعية والثقافية التي تهم موريتانيا ومحيطها العربي والإسلامي، وذلك في إطار السعي إلى تقديم رؤية علمية شاملة ومتكاملة يمكن أن تبنى عليها مشاريع الإصلاح الاقتصادي والاجتماعي والثقافي التي لا يمكن الاستغناء عنها في أية تنمية شاملة ودائمة.

وأغتنم هذه الفرصة باسمي وباسم زملائي أعضاء الوحدة، لأعبر عن تشكراتي الخالصة لمعالي رئيس الجامعة د. سيدي ولد محمد عبد الله ولعميد كلية الآداب والعلوم الإنسانية السيد حمودي ولد حمادي على مساعدتهما ورعايتهما لهذا المجهود العلمي المتواضع.

محمد الراضي ولد صدفن

المقالات بالعربية

البنية التقليدية للمجتمع البيظاني ودورها في التكافل الاجتماعي

أ. محمد الأمين ولد سيد احمد، قسم التاريخ– جامعة نواكشوط

تمثل البنى الاجتماعية الشكل التنظيمي الضامن لاستمرارية الحياة وانسيابيتها من خلال الضبط والتنظيم للعلاقات داخل الاجتماع البشري، وهي مزيج من الترتيبات الإلهية والترتيبات الوضعية، التي أفرزتها سنة الخالق في خلقه، وإكراهات المعتقد والزمان والجغرافيا والمساكنة...، مما جعلها تختلف بتنوع المجتمعات واختلاف طبائعها.

ولعل هذا ما جعلها ركيزة أساسية في الدراسات والمخططات التنموية في الكيانات السياسية الحديثة – على افتراض أن الإنسان هو هدف التنمية و وسيلتها– خاصة في المجتمعات التي تشهد تعثرا في مسيرتها التنموية، ولا تزال رواسب بناها التقليدية تتحكم في توجيه منظومتها الأخلاقية وضوابط سلوكها الاجتماعي والسياسي، كما هو حال المجتمعات العشائرية التى ينتمى إليها المجتمع البيظاني.

ونعنى بالمجتمع البيظاني الناطقين بالحسانية، وهي إحدى اللهجات العربية منسوبة إلى حسان بن المختار بن عاقل بن معقل جد القبائل العربية التى وصلت طلائعها الأولى البلاد الموريتانية في منتصف القرن الثالث عشر ميلادي. وقد انتشرت هذه اللهجة في مجال جغرافي واسع شمل بالإضافة إلى موريتانيا الحالية أجزاء من النيجر ومالي والسنغال والجزائر والمغرب.

وقد أطلق اسم البيظان على سكان هذا الإقليم تمييزا لهم عن المجتمعات المحيطة بهم، وهو من ناحية مقابل للفظة سودان التي تطلق على المجتمعات الزنجية، ومن ناحية أخرى إحالة الى دلالات ثقافية واجتماعية وسياسية، تفسر خصوصية هذا المجتمع داخل المنطقة.

وسنحاول أن نعالج هذا الموضوع من خلال ثلاثة محاور أساسية، نتناول في أولها أصول المجتمع البيظاني، وفي الثاني نعالج ما أفرزه الاحتكاك بين مكونات المجتمع المختلفة الأصول من بناء اجتماعي، على ان يخصص المحور الثالث بدور البنية الاجتماعية البيظانية في التكافل الاجتماعي.

I– أصول المجتمع البيظان

تعيد بعض المراجع استيطان الإنسان لأرض البيظان إلى العصر الحجري القديم، مفترضة أن أول من استوطنها مجموعات ذات خصائص زنجية تعتمد في عيشها على الصيد وجني الثمار، وان فلول البربر بدأت تلج المنطقة هربا من مطاردة الرومان في القرن الأول الميلادى، مستخدمة الأسلحة الحديدية والعربات التي تجرها الخيول أولا ثم الجمال ثانيا في القرنين الثالث والرابع للميلاد للتغلغل في المنطقة والسيطرة عليها[1].

وعلى هذا الأساس يكون البربر قد استطاعوا إزاحة المجموعات الزنجية جنوبا بشكل مطرد حتى استخلصوا غالبية المجال لأنفسهم، واشتركوا الجيوب المتبقية مع السكان الأصليين، وفرضوا لغتهم ونهجهم التنظيمي محدثين تغييرات بالغة الأهمية على مختلف الأصعدة وخاصة الاجتماعي والاقتصادي منها.

ويبدو أن تقهقر الزنوج أمام البربر جاء نتيجة لقدرة الأخيرين على التكيف مع البيئة الصحراوية الجافة، وانسجام طباعهم مع نظام الحياة المعتمدة على انتجاع المراعي والتنظيمات القبلية التي أصبحت الضمانة الوحيدة التي توفر للفرد الأمان والبقاء بحكم وشائج حمية العصبية[2].

ينتسب البربر الذين دخلوا المنطقة التي تهمنا إلى مجموعة صنهاجية البرنسية[3]، المكونة من أكثر من سبعين قبيلة أشهرها لمتونة، وجدالة، ومسوفة، وقد اقتسمت هذه القبائل الثلاث المجال بينها، فسيطرت جدالة على الجهة الغربية، ولمتونة على المنطقة الوسطى، في حين أحكمت مسوفة سيطرتها على الجهة الشرقية.

أما القبائل الصغيرة فلم تسعفنا المصادر بمصيرها، لكننا نظن أنها انقسمت إلى مجموعات تظاهر كل واحدة منها إحدى القبائل القوية مع أننا لا نعرف الأسباب الكامنة وراء انقسامها، ولا ما انجر عنه من روابط غير أننا نتصور – بحكم طبيعة المجتمع القبلية أنه داخل في انساق المحددات الأساسية لمفهوم القرابة التي تحيل إما إلى رابطة عضوية (قرابة دموية)، أو رابطة قانونية (التبني) أو رابطة اجتماعية (التحالف)، كما هي محددة عند جاك صابرن[4]. ونرجح أن يكون التحالف من أهم الأسباب نتيجة إلى أن تمايز القبائل داخل المجال لم يحدث بطريقة ميكانيكية، وإنما جاء بعد جولان طويل تتطلبه معرفة خصائص المنطقة، مما يعطى وقتا لفتور علائق القرابة الدموية ويسمح بنسج تحالفات تراعي مصالح المجموعات المكونة لها، خاصة أن المجتمع البيظاني يحمل بعض خصائص المجتمعات الانقسامية[5]، القائمة على عمليتي الانصهار والانشطار اللتين تتطلبان في بعض الأحيان طرد بعض العناصر من وسطها إثر فشلها في صراع أو تنافر في الآراء يستحيل معه تقديس القرابة الدموية فتضطر إلى عقد تحالفات مع كيانات أخرى.

ومع طول الزمن وتحكم الصنهاجيين في الصحراء بدأت تتكون عندهم فكرة تكوين نظام سياسي، فتكونت تنظيمات يغلب عليها الطابع القبلي حالت الوضعية المورفولوجية للمنطقة، وبدائية وسائل المجتمع دون تطويرها.

وفي مستهل القرن الثامن الميلادي بدأت الفتوحات الإسلامية تأخذ طريقها إلى المنطقة مع حبيب بن عقبة بن نافع الفهرى. ومن هنا بدأ العرب يدخلون تشكلة المجتمع على استحياء، وتدعم وجودهم اثر الحملة التي قادها عبد الرحمن ابن حبيب عام**744**م، بما أدخلته من مجموعات وعناصر عربية، وبما حفرته من آبار على طول الطريق الرابط بين واحات الباني والصحراء[6]، مهيئة المجال للاستيطان وسهلت الطريق للراغبين في الهجرة إليه.

هكذا إذن دخل العرب الحضريون تشكلة المجتمع في الصحراء، وإن كانوا لم يضطلعوا فيه بأدوار سياسية لكنهم أثروا فيه ثقافيا بنشر الإسلام، وتحويل صنهاجية إلى دعاة وفاتحين، كما أزالوا عزلة المنطقة وهيؤوها لاستقبال الجماعات العربية التي وصلتها لاحقا.

وباعتناق صنهاجة للإسلام تطورت لديهم فكرة تكوين نظام سياسي، واستطاعوا بالفعل أن يقيموا سلطة لهم في جزء من الصحراء والتحكم في الطرق التجارية، ثم احتلال أوداغست واتخاذها عاصمة[7] في محاولة لنشر الإسلام بالمنطقة.

لكن ما إن حلت سنة **919**م حتى انفصمت وحدة تلك القبائل لأكثر من قرن حيث قام تنظيم قوي آخر بزعامة ترسين اللمتوني سنة **1040**م ثم خلفه يحي بن إبراهيم فيما بعد، ووجهت هذه القوة الجديدة –

التي قامت علي ما يبدو للدفاع عن استقلالها وكيانها المهددين من قبل ملوك السودان الصاعدين آنذاك، وجهت جهودها نحو الجنوب، ومن أحضان هؤلاء الصنهاجيين ولدت في أوائل القرن **11**م حركة المرابطين[8].

انطلقت حركة المرابطين في منتصف القرن الحادي عشر الميلادي في الجنوب الغربي لبلاد البيظان، ويبدو أن مراس الصنهاجيين الطويل مع الصحراء أوحي لهم باستحالة جمعها تحت سلطة مركزية موحدة، فاتجهوا فور استكمال قوتهم إلى الشمال، واستولوا على درعة وسجلماسة سنة **1055**م ثم تناثرت قرى ومدن المغرب في أيديهم تباعا، واستطاعوا في فترة قياسية تكوين إمبراطورية عظيمة بسطت نفوذها على المغرب الأقصى والأندلس.

تسرب حب السلطة والاستئثار بها إلى صفوف المرابطين مبكرا، فبعد موت عبد الله بن ياسين سنة **1059**م بايع المرابطون أبا بكر بن عامر الذي اعتمد في غزواته على ابن عمه يوسف بن تاشفين، فأوكل إليه قيادة الجيوش لتطويع بقية المدن. واصل يوسف معاركه في اتجاه الشمال بانتصارات مذهلة حتى بعد به المقام عن أبي بكر وارتبط به الجنود وأعجبوا بشجاعته فرأى الفرصة سانحة للتخلص من أبي بكر، فعبر عن رغبته هذه في اللقاء الذي دار بينهما بين أغمات ومراكش على بعد **9** أميال منها، فسلم عليه راكبا على دابته ولم تكن تلك عادته قبل[9]، كتعبير عن الندية ورفض التبعية.

أدرك أبو بكر الرسالة الموجهة إليه بسرعة، فبدأ التفطن إلى قوة خصمه وتنظيمها، فهاله ما "رأى من ضخامة ملكه وقوة عساكره وترتيب جنوده"[10]، فأدرك أن لا قبل له به، فأراد مهادنته وتنازل له عن الملك في خطاب مليء بالدلالات بادئا بالتركيز على القرابة بينهما " يا يوسف أنت أخي وابن عمي، ولم أر من يقوم بأمر المعروف غيرك ولا أحق به منك، وأنا لا غنى لي عن الصحراء وجئت لأسلم الأمر إليك وأهنئك في بلادك وأعود إلى الصحراء مقر إخواننا ومحل استيطاننا... يا يوسف إني وليتك هذا الأمر وإني مسؤول عنه، فاتق الله في المسلمين واعتقني وأعتق نفسك، ولا تدع من أمور رعيتك شيئا فإنك مسئول عنهم والله تعالى يصلحك ويمدك ويوفقك بالعمل الصالح والعدل في رعيتك... ثم ودعه وانصرف إلى الصحراء[11]".

نلمس من الاستشهاد حرص ابن عامر على التعبير على أن تنازله جاء بمحض إرادته، وأنه لم يكن تحت أي ضغط " لم أر من يقوم بأمر المغرب غيرك"، " جئت لأسلم الأمر إليك"، كما يوضح الاستشهاد أيضا رضوخ أبي بكر لرغبة يوسف ورفضه للعيش تحت سلطانه فلم يرض بالبقاء في المغرب وعاد إلى الصحراء، كما كان حريصا على تذكيره بأن الصحراء لا تدخل في ملكه " وأهنئك في بلادك وأعود إلى الصحراء". ولا يخفي أيضا حنين ابن عامر إلى الملك وتعلقه به " يا يوسف إني وليتك هذا الأمر وإني مسئول عنه"، وهذا ما يجعلنا نشك في صدق نيته في التنازل، ونتصور أنه لم يفعل ذلك إلا تحت الضغط القوى الذي ظهر له من يوسف.

عاد أبو بكر إلى الصحراء في قلة من جيش صنهاجة وظل بالصحراء إلى أن توفي سنة **1087**م تاركا المغرب وملكه ليوسف بن تاشفين الذي أحسن تنظيم وكون أعظم إمبراطورية بالغرب الإسلامي.

وإذا كان المرابطون قد استطاعوا توحيد المغرب الأقصى وتكوين إمبراطورية قوية، فإن تأثيرهم في الصحراء اقتصر على الجانب الثقافي، فقد رسخوا الدين الإسلامي وعمقوه على المذهب المالكي والعقيدة الأشعرية، وادخلوا اللغة العربية كلغة لتأدية الشعائر الدينية[12].

وعلى العموم فإن الذي يهمنا من المرابطين هو تأثيرهم الاجتماعي على الصحراء، وهذا ما لم نجد عنه شيئا لجفاف الأقلام عن أخبار الصحراء طيلة الثلاثة قرون الفاصلة بين موت أبي بكر بن عامر **1087**م، وقدوم المجموعات الحسانية في منتصف القرن **13**م، مما أضفى ظلامية قاتمة على تاريخ الفترة وأدى إلى وجود ثغرة يصعب سدها، إلا أننا من خلال إلقاء نظرة على ما قبل هذه القرون الثلاثة وما بعدها نستطيع أن نتصور وجود تأثير الحركة المرابطية على الجانب الاجتماعي في الصحراء، الشيء الذي يجعلنا نتساءل عن طبيعة هذا التأثير؟

رأينا أن الحركة المرابطية تأسست في الصحراء، واتجهت إلى الشمال بعد استكمال قوتها، فأخضعت مدن المغرب والأندلس بفضل قوة جيشها وتنظيمه، فهذا الجيش الذي لم تذكر المصادر أنه رجع إلى الصحراء – اللهم النزر القليل الذين عادوا مع أبي بكر– شكل هجرة من الصحراء أفرغتها من خير رجالها، ومن قوتها الدفاعية، مما جعلها فريسة سهلة في أيدي العرب المعاقلة فيما بعد.

ومع أن المصادر لم تذكر لنا رجوع هذا الجيش فإن القرائن تدل على بقائه في المغرب، لأن إنشاء دولة جديدة يتطلب رجالا مخلصين أقوياء تطحن بهم المتمردين والرافضين لسلطانها، كما أن هؤلاء الجنود لهم أهل في الصحراء، الشيء الذي يجعلنا نتصور التحاقهم بهم بعد أن دان لهم المغرب والأندلس، وما فيهما من رغد عيش لا يتوفر في الصحراء.

ولعل وجود قبائل في الصحراء تؤكد انتسابها لبطون عربية غير العرب الفاتحين، ولا المجموعات الحسانية التي وصلت مؤخرا يجعلنا نظن أن غالبية من عادوا مع ابن عامر كانوا من غير الصنهاجية، ولهذا الافتراض ما يدعمه من دلائل مادية، كوجود عبد الرحمن الركاز والإمام الحضرمي... في صفوف العائدين مع ابن عامر.

وهذا ما يجعلنا نرى أن الوجود العربي في تركيبة المجتمع تعزز بمجموعات جديدة كان لها دورها الديمغرافي والثقافي في وضع لبنات التغيير الجذرى في المجتمع الذى سيظهر مع الهجرات العربية الحسانية فيما بعد.

وقبل الحديث عن ولوج المجموعات الحسانية المعقلية إلى الصحراء يجدر بنا أن نشير إلى أصل هذه المجموعات التي يبدو أن النسابة اتفقوا على إرجاع أصولها إلى العرب، وإن كانوا يختلفون في قحطانيتهم وعدنانيتهم.

وسوف نكتفى هنا بعرض آراء هؤلاء النسابة والمؤرخين بادئين بابن خلدون الذي قال بالحرف الواحد " أما أنسابهم عند الجمهور فخفية مجهولة ونسابة العرب من هلال يعدونهم من بطون هلال وهو خبر غير صحيح، وهم يزعمون أن أنسابهم في أهل البيت إلى جعفر بن أبي طالب وليس ذلك أيضا بصحيح، لأن الطالبيين والهاشميين لم يكنوا أهل بادية ونجعة، والصحيح – والله أعلم – من أمرهم أنهم من عرب اليمن"[13].

ويعلل ابن خلدون رأيه هذا بوجود " بطنين يسمى كل واحد منهم بمعقل ذكرهم الكلبي وغيره فأحدهما من قضاعة بن مالك بن حمير... والآخرين بن الحرث بن كعب بن عمرو بن علة بن مذحج... والأنسب أن يكون هذا البطن الأخير الذي من مذحج[14]".

ويعارض رأي ابن خلدون هذا الناصر السلاوي في كتابه طلعة المشترى في النسب الجعفري بقوله " الظاهر أنه – معقل – يرجع إلى جعفر الأمير بن إبراهيم الأعرابي بن محمد الجواد بن علي الزينبي بن عبد الله

بن جعفر، إذ لا شك أن بني معقل من جعافرة الصعيد... وهم الذين كانت لهم الرئاسة في الحجاز وحاربهم بنو الحسن والحسين حتى أجلوهم عنه إلى صعيد مصر[15]".

ويحمل الناصر على ابن خلدون في موقفه من المعاقلة محاولا إبراز تناقض وقع فيه، فيقول "... وأعلم أن ابن خلدون قد رد قولهم وألحقهم ببني الحرث بن كعب باجتهاده ورأيه. فالحال أن ابن خلدون رحمة الله ركب في هذه النازلة متن عمياء وخبط خبطة عشواء، هذا وقد قامت قرائن أخرى قوية تدل على صحة نسبة بني معقل إلى جعفر رضي الله عنه. وهي أن ابن خلدون لما فرع بطون معقل ذكر في جملتهم الهراج والثعالبة والشبانات، وهذه البطون الثلاثة قد نص غيره على أنهم جعافرة صرحاء... فأم الهراج فهو لقب لموسى بن محمد بن جعفر الأمير... وزعم فيما أملاه عليه نسابة بني معقل أن الهراج المذكور هو بن هدى بن عمر بن عبد الله بن عقيل بن معقل... وهذا لا يعول عليه، والصواب ما عند الأزارقاني وبن عتبه وغيرهم من أن الهراج هو بن محمد بن جعفر الأمير، وأن عقب الهراج يعرفون ببني هراج، ومثله للسمرقندي في تحفة الطالب... فلم يبق من ريب في أن الثعالبة الذين هم أحد بطون معقل جعفريون[16]".

ويبدو أن السلاوي لم يترك في حديثه عن الهراج مكانا لتعدد الأسماء وتشابهها خاصة عند العرب.

وعلى الرغم من إطلاع المؤرخين البيظان على رأي ابن خلدون، فقد كان رأي الجماعة القائلة بجعفرية بني معقل هو الصواب عندهم، فها هو الشيخ محمد اليدالي[17] في قصديته التي يمدح بها الأمير أحمد بن هيبة البركني يشيد بنسبه إلى جعفر بن أبي طالب وينكر ما قاله ابن خلدون فيقول:

سلالة عبد الله وهو ابن جعفر شهيد العلا الطيار ذي الفتكة البكر
وذا نسب ينميهم بعضهم له كما لابن خلدون الولي الطيب النشر
هم العرب العرباء من سر هاشم صميم قريش ينتمون إلى فهر[18]

وأيا كان نسب المعاقل فإنهم " لم يتكلموا قط غير العربية، بل سمعنا من غير واحد أن لغة أولهم كانت عربية قحة غير مشوبة بشيء من كلام البربر إلا أنها غير معربة[19]"

وبدخول هؤلاء العرب إلى الصحراء فرضوا لغتهم وسيطروا سياسيا على المنطقة، كما أثروا تأثيرا بالغا في بنية المجتمع، لكن كيف ومتى وصل هؤلاء إلى المنطقة؟

ترتبط رحلة المعاقل إلى الصحراء بالزحف الهلالي المشهور على إفريقية من صعيد مصر وكان الهلاليون قد بدأوا رحلتهم من الحجاز بعد مساندتهم للقرامطة في ثورتهم الفاشلة ضد العباسيين، فنزلوا مصر لكن المستنصر الفاطمي ضاق بهم ذرعا وخاف على سلطته منهم على حد تعبير السعد[20]، فنقلهم إلى أعالي النيل. وقد ظلوا مصدر قلق له ولأعوانه حتى استطاع التخلص منهم، باقتراح من وزيره أبو محمد الحسن بن اليازوري، بتوجيههم إلى إفريقية انتقاما من الملك الصنهاجي المعز بن باديس الذي شق عليه عصا الطاعة وبايع أبا جعفر بن القادر من خلفاء بني العباس في بغداد سنة **437**هـ/**1045**م، وتحوله إلى مذهب أهل السنة كدليل على قطع أي صلة بالدولة الفاطمية.

ورغم أن بني هلال قضوا على ملك بن باديس وسيطروا عسكريا على إفريقية فإنهم لم يقيموا فيها سلطة لتناقض طباعهم مع الملك" باستحكام عوائد التوحش وأسبابه فيهم فصار لهم خلقا وجبلة. وكان عندهم

ملذوذا بما فيه من الخروج عن ربقة الحكم وعدم الانقياد للسياسة، وهذه الطبيعة منافية للعمران ومناقضة له فغاية الأحوال عندهم الرحلة والتغلب وذلك مناقض للسكون الذي به العمران ومناف له[21]".

وتتجلى نزعة الهلاليين البدوية في تخريبهم للمباني لسد حاجياتهم البدوية " فالحجر مثلا إنما حاجتهم إليه لنصب أثافي القدر فينقلبون من المباني ويخربونها عليه ويعودون لذلك، والخشب أيضا إنما حاجتهم إليه ليعمروا به خيامهم ويتخذوا الأوتاد منه لبيوتهم فيخربون السقف عليه لذلك[22]".

ونظرا لتحكم البداوة في الهلاليين واقتناعهم بها، وتنافي البداوة والتحضر " صارت طبيعة وجودهم منافية للبناء الذي هو أصل العمران[23]".

وانطلاقا من الصور التي صورها لنا ابن خلدون أعلاه، المرتبطة بعدم الارتباط بالأرض، فإن القبائل الهلالية واصلت تسللها باتجاه الغرب بحثا عن مكان بكر يشبع رغباتها السابقة بعد أن خربت إفريقية وضاقت عليهم، خاصة وأن أعدادهم كانت " كالجراد المنتشر" حسب ابن خلدون، فدخلوا الجزائر ثم المغرب وكان أول فوج منهم يصل إلى مراكش سنة **1160م**[24]، ودخلوا في خدمة الدول المتعاقبة على المغرب ابتداء من الموحدين وانتهاء بالمرينيين.

ويلاحظ في أغلب الكتابات أن الذين واصلوا المسيرة إلى المغرب أغلبهم من قبائل بني معقل وربما يعود ذلك إلى استئثار الهلاليين بأرزاق افريقية والتحكم فيها خاصة وأنهم الأقوى شكيمة والأكثر عددا وعدة.

استطاعت قبائل المعقل بفضل حنكتها الحربية ومهارتها العسكرية أن تنال إعجاب سلاطين المغرب الذين اعتمدوا عليها في قمع الانتفاضات المناهضة لهم، ودفع التهديدات الخارجية وتوطيد أحكامهم [25].

ومن هنا أصبحت قبائل بني معقل قوة فاعلة ومشاركة في رسم الخريطة السياسية في المغرب، وإن كان نفوذهم لم يظهر بشكل جلي إلا بعد دخولهم في خدمة الدولة المرينية في بداية القرن الثالث عشر ميلادي، واستقرارهم جنوب مراكش كقبائل مخزن يعتمد عليها السلاطين في تأمين حدود دولتهم الجنوبية وفي تحصيل الضرائب.

لكن لحمة المرينيين وقبائل المعقل سرعان ما انفكت عندما ضاق السلطان يوسف بن عبد الحق المريني بأعمال بني معقل في السوس ومراكش، فأبعدهم بعد معارك ضارية إلى الساقية الحمراء، التي لم يطل مكثهم فيها، فاجتازوها سنة **664هـ/1265م**[26] بحثا عن مصادر للعيش في فترة كانت السيطرة على المناطق الرعوية الخصبة ومحاور الطرق التجارية المنفذ الوحيد لسد الاحتياجات المادية.

وبوجود بني معقل في الساقية الحمراء يكونون قد دخلوا المجال الذي حددناه سلفا وأسميناه أرض البيظان وانتشروا فيه، فوصلوا إلى آدرار[27] في نهاية القرن الثالث عشر، وإلى الكبلة[28] في القرن الرابع عشر وإلى أزواد[29] وبقية المجال في بداية القرن الخامس عشر.

سيطر بنو معقل على المجال واقتسموه إمارات، وامتزجوا مع سكانه وكانوا بحق عنصر إثراء جديد للمجتمع سواء من الناحية السياسية أو الثقافية أو الاجتماعية، فعلى المستوى السياسي كونوا أنظمة قوية اقتسمت المجال ووفرت الأمن والاستقرار، وقاومت الأطماع الأوربية في المنطقة ردحا من الزمان، أما على المستوى الثقافي فقد حولوا اللغة العربية من لغة لتأدية الشعائر الدينية إلى لغة للتعامل في المجتمع، ونشروا

الثقافة العربية الإسلامية فانتشر الشعر وبرز شعراء عظام، كما نشروا الفقه وعمقوه. ويجب ملاحظة أن بني معقل لم يؤثروا كل هذا التأثير إلا عن طريق تأثيرهم على البنية الاجتماعية.

II- بنية المجتمع البيظاني

يدخل المجتمع البيظاني في عداد المجتمعات البدوية، وإن كان يمتاز عنها – فيما نعلم – بكونه المجتمع البدوي الوحيد الذي يملك ثقافة مكتوبة، كما أن له ارتباطا بالأرض لا يصل مرتبة المجتمعات الزراعية، ويفوق بكثير المجتمعات البدوية. ويتجلى ارتباط البيظان بالأرض في معرفة كل قبيلة لحدود أرضها وحرصها على حمايتها بالجاه والمال والأنفس إذا تطلب الأمر، ومن ذلك المشاجرات والمرافعات القضائية الكثيرة الناتجة عن محاولة قبيلة ما حفر بئر في الجزء المحاذي لأرضها من أرض قبيلة أخرى (مشكلة أركيز مثلا بين أدو علي وإدابلحسن) [30].

ومن جهة أخرى فقد عبر البيظان عن ارتباطهم بالأرض عن طريق فرض الضرائب على القوافل التجارية العابرة لمجالهم، كما هو الحال مثلا في الغفر الذي كانت قبيلة لعلب تأخذه على قوافل "أهل حبت" التجارية القادمة من شنقيط باتجاه مراكز التبادل على النهر[31]. هذا فضلا عن الضرائب التي تفرضها القبائل على غيرها من المنتجعين في مجالها والمسماة بحرمة التمجارت[32].

II- 1-البناء الأفقي للمجتمع البيظاني

على الرغم من ارتباط المجتمع البيظاني بالأرض فإنه يتمتع بمسلكيات البداوة، خاصة في غلبة التنظيم العشائري عليه في بنيته الأفقية، فهو مكون من مجموعة من القبائل تنتسب كل واحدة منها إلى جد معروف ينتسب إليه أفرادها، وفي بعض الأحيان تكون القبيلة مؤلفة من فرق عديدة ينتمون إلى أصول ومواطن مختلفة جاءوا واجتمع بعضهم إلى بعض بدافع الرهبة من شيء أو الرغبة في شيء وتعاقدوا وألفوا حلفا عشائريا[33]، فتكون بذلك القبيلة تنظيما سياسيا واجتماعيا واقتصاديا التأم في ظرف زمني معين وفي حيز مكاني معين دون أن يكون للعلاقة النسبية دور في تكوينه.

ومن ناحية أخرى عملت مؤثرات مختلفة عملها فتكونت في مجتمع البيظان كونفدراليات تضم كل واحدة منها مجموعة قبائل مستقلة، في شكل تناسق مع ما سماه سيف الدين القصير/ ص81 " الصداقة بين العشائر"، التي ذكر أنها كثيرا ما تحدث بين عشيرتين أو أكثر لتحقيق مكاسب أو منافع أو لرد خطر خارجي. كما حدد الوضعية القانونية للقبائل داخل هذا النوع من التحالفات حين اعتبر أن العشيرتين في هذه الحالة متساويتين في الحقوق والواجبات كأنهما فرقة أوعشيرة واحدة، مع احتفاظ كل عشيرة باستقلالها عن الأخرى.

وهذا ما ينطبق في مجتمع البيظان على أحلاف تشمشة، تاكونانت، تندغه...، أما إذا كانت الصداقة بين عشيرة قوية ايا كان مصدر قوتها وأخرى ضعيفة فإن الضعيفة تصبح من أتباع القوية ولواحقها[34]، كما هو الحال في تحالف أهل سيدي محمود.

وقد علق سيف الدين القصير على هذا النوع من التحالفات مشبها إياها بالمحالفات والمعاهدات الدولية التي تعقد بين الدول في عصرنا الحاضر، معتبرا إياها نوعا من تحقيق المكاسب المادية للعشيرة أو الدفاع عنها ضد خطر خارجي.

لا يختلف بناء القبيلة البيظانية كثيرا عن البناء العام القبائل العربية، التي ذكر محمد مراد أنها " تنقسم إلى عشيرتين أو أكثر، والعشيرة الواحدة إلى فرقتين أو أكثر، والفرقة تتكون من جماعتين تسمى الواحدة منها بالفخذ، وكان الفخذ ينقسم بدوره إلى حمولتين على الأقل، والحمولة تتكون من عائلتين ممتدتين أو أكثر[35]".

وإذا كان محمد مراد قد قسم بنية القبيلة إلى ست درجات، فإن سيف الدين القصير[36] قدم ثلاثة نماذج عالج كل منها وحدات بنية القبيلة العربية والاصطلاحات المميزة لهذه الوحدات. نسب أولها للسيد أبي البركات، وقسم بموجبها القبيلة إلى عشر وحدات تبدأ من الأعلى بالجذم وهي الأصل إما إلى عدنان أو قحطان، فالجماهير التي هي الجماعات المكونة من الشعوب، والشعوب التي تجمع القبائل، فالقبائل المكونة من العمائر، فالعمائر المكونة من بطون، وتجمع البطون الأفخاذ، وتتكون الأفخاذ من العشائر التي تتكون بدورها من الفصائل الجامعة لمجموعة أرهاط.

أما النموذج الثاني فمنسوب إلى القلقشندي وجرجي زيدان. وقد قسم القبيلة إلى سبع وحدات تبدأ من الأعلى بالشعب، فالقبيلة، فالعمارة، فالبطن، فالفخذ، فالفصيلة، فالعائلة.

وفي الأخير النموذج المنسوب إلى أحمد وصفي زكريا، والذي حددها بستة وحدات رتبها على النحو التالي من الأعلى إلى الأسفل: القبيلة، الضنأ، العشيرة، الفرقة أو الفندة، الفخذ أو الآل (العصبية)، البيت أو الأسرة.

ويلاحظ من النماذج الثلاثة السابقة عدم الاتفاق على عدد الوحدات المكونة لبنية القبيلة العربية، ورغم التقارب في عدد الوحدات بين النموذجين الأخيرين، فإن الاصطلاحات المميزة لكل وحدة تختلف اختلافا ظاهرا.

يتفق بناء القبيلة البيظانية مع الرأي القائل بسداسية وحداتها، لكنه يختلف معه في الاصطلاحات، أو على الأقل في انطباقها على تراتبية الوحدات، فالعشيرة مثلا هي أعلى الوحدات في القبيلة البيظانية، في حين نجدها في المرتبة الثالثة في نموذج زكريا، ومعدومة في نموذج القلقشندي.

تتكون القبيلة البيظانية من ست وحدات أعلاها العشيرة المكونة من مجموعة القبائل التي تتكون بدورها من عدة بطون، وتنقسم البطون إلى أفخاذ، والأفخاذ إلى ركائز، والركائز إلى خيم أو أسر، ويتم تمييز هذه الوحدات حسب القرابة النسبية الممزوجة بالتحالف في بعض الأحيان، فالخيم أو الأسر المنحدرة من أب واحد وحلفاؤها يكونون " ركيزة"، والركائز ذات الجد الواحد وحلفاؤها تكون فخذا ثم كذلك إلى أن يصلوا العشيرة.

يشكل الزواج أحد مرتكزات التوازن الاجتماعي والسياسي داخل القبيلة البيظانية، وهو في الغالب الأعم داخلي " يعمق علاقات القرابة على أساس رابطة الدم، الذي يزيد من قوة العصبية القرابية، والتي على أساسها يتحدد موقع الجب العائلي على صعيد النفوذ الاجتماعي والسلطة[37]"، وذلك بوصفه الوسيلة "الفعالة لتلافي الانقسامات بين الأشقاء[38]".

ورغم تساوي أفراد القبيلة الظاهري في الحقوق والواجبات والشكل، فإن الزواج عندهم يخضع لمعايير داخلية تمنع الأدنى من الزواج من التي هي أعلى منه مرتبة. وتتحدد التراتبية داخل القبيلة تبعا لعدة محددات أهمها النسب الرفيع من الناحيتين الأب والأم، وإتقان وظيفة القبيلة المعروفة بها.

وبالتالي فإن الزواج يكون عادة من ابنة العم المباشرة أو من الفصيلة الواحدة " إلى درجة يحق فيها لابن العم الزواج من بنت عمه دون أية شروط أو قيود[39]"، ويخرج عن القاعدة الظئار فهو مرفوض في المجتمع إلى درجة إدراج منعه في عقد الزواج بلفظة " لا سابقة ولا لاحقة"، التي تعنى أن المرأة تعتبر طالقا غصبا عن الرجل إذا كانت على ذمته امرأة أخرى قبلها، أو تزوج أخرى بعد زواجه منها، ويحق لابن العم منع ابنة عمه " من الزواج من خارج الدائرة القرابية[40]" الأدنى منها مرتبة كما يحق له فسخ مثل هذا النكاح إذا حصل دون علمه.

ومع ما يتمتع به الرجل من سلطة في القبيلة البيظانية، فإن للمرأة دورها في تحديد مسار سلطة الرجل، فكثيرا ما ترفع رجال على أبناء عمومتهم بسبب أمهاتهم فالذي أمه من أصل رفيع، وذات مكانة عليا يرتفع شأنه، في حين يعتبر من أمه من خارج القبيلة أو من الدرجات الدنيا منها، فتنحط قيمته عن قيمة أبناء عمومته داخل القبيلة.

تمارس القبيلة سلطتها على أفرادها وأتباعها ومواليها، دون غيرهم وتنتدب لذلك "شيخا" وجماعة تسمى جماعة الحل والعقد، تجتمع لدراسة المستجدات على القبيلة وتصدر قراراتها بشأنها، وذلك تبعا لمكانة القبيلة داخل المجتمع.

يرأس "الشيخ" جماعة الحل والعقد وغالبا ما يكون رأيه هو المفضل عند الجماعة، من خلال المناقشة والدراسة تتولد عنده الطريقة الأنجع لمواجهة المستجد على قبيلته، فيقوم باللازم من خلال إصدار الأوامر إلى أفراد قبيلته كل حسب إمكانياته العقلية والمادية.

ويسمى الشيخ شيخا حتى ولو كان حديث السن وهو بالنسبة لباقي أفراد القبيلة صاحب " الرأي الراجح والقول النافذ على سائر الطبقات[41]"، وهو عماد القبيلة وملاذها ويفترض فيه " وجود الشمائل والمناقب الخاصة بالشيوخ[42]".

تتسلسل المشيخة في أسرة معينة من القبيلة فيرثها الأبناء عن الآباء، وكثيرا ما يحدث أن يكون ولي عهد الشيخ طفلا، ويبقى تحت وصاية أحد أقربائه المتنفذين حتى يبلغ سن الرشد، وفي بعض الأحيان يستأثر الوصي بالمشيخة فتحدث انشقاقات وانقسامات تتحول بموجبها القبيلة إلى عدة قبائل متصارعة.

أما جماعة الحل والعقد فمكونة من رؤساء البطون والأفخاذ " والركائز" ويلون الشيوخ في المنزلة الاجتماعية ويماثلونهم أو يقتربون منه في الشمائل والمناقب ويرأسون فرقهم ويسوسون أفرادهم في الأمور الداخلية. وبعد هؤلاء يأتي العامة وهم السواد الأعظم من القبيلة المتحملون لأعبائها والمقاتلون في سبيلها، ولا يقل حرصهم على سمعتها ومكانتها عن حرص الشيوخ عليها، وبكثرة هؤلاء وقوتهم وعددهم يعظم نفوذ الشيوخ[43].

وفي آخر سلم القبيلة يأتي العبيد الذين يتولون الأعمال المنزلية ويسهرون على راحة أسيادهم وطمأنينتهم وستر عيوبهم، وقد انعكس ولاؤهم لمالكيهم على ولائهم للقبيلة، فأصبحوا يفتخرون بها وبمكانتها، كما أن مكانة العبد بين العبيد وعند المجتمع مقرونة بمكانة سيده وقبيلته " غلظ العبد ألا من عربيه".

وبهذا نكون قد اطلعنا على بنية المجتمع البيظاني أفقيا المكونة من مجموعة من القبائل تتحد كل طائفة منها في مسلكيات ووظيفة خاصة بها تميزها عن غيرها من المجموعات الأخرى مشكلة نمطا آخر من البناء الاجتماعي داخل المجتمع البيظاني أطلقنا عليه اسم البناء العمودي.

II-2- البناء العمودي للمجتمع البيظاني

رأينا أن المجتمع البيظاني مكون من مجموعة من القبائل يغلب عليها الطابع العشائري البدوى ومن هذه القبائل تكونت الفئات التي هي عبارة عن جماعات رتيبة معرفة بمجموعة من القيم والممارسات تؤدى وظائف في المجتمع محددة تقريبا (وظيفة حسان السياسية والعسكرية، وظيفة الزوايا الدينية والاقتصادية...إلخ) وتتقابل حسب سلم قيمي.

تمايزت القبائل البيظانية إذن إلى مجموعات تتحدد كل واحدة منها في مسلكيات خاصة تميزها عن غيرها. وقد طبعت مسلكيات كل مجموعة سلوك أفرادها فأصبحت مكانة الفرد في مجموعته مقرونة بمستوى قدرته على إجادة مسلكياتها.

وبموجب المسلكيات السالفة انقسم المجتمع إلى حملة للسلاح، وحملة للقلم ورعاة، وصناع، وفنانين. وتسمت كل واحدة من هذه المجموعات باسم خاص، يميزها عن غيرها من الفئات، ويعبر عن مكانتها الرتيبة داخل المجتمع.

وقد تناولت دراسات عديدة بنية المجتمع البيظاني، اعتبر بعضها أنه مكون من طوائف مغلقة[44] يتحدد فيها مستقبل الفرد بالولادة على غرار ما هو موجود في الهند، لكن هذا الرأي يفنده الحراك المستمر داخل المجتمع الذي تحولت بموجبه مجموعات عديدة من مجموعاتها التي ولدت فيها إلى مجموعات أخرى أعلى منها أو أدنى حسب التحول والأسباب الكامنة وراءه، كما هو الحال مثلا في ظاهرة التوبة التي تحولت بموجبها مجموعات كبيرة من حملة سلاح إلى حملة قلم[45].

وتطبع التقسيم الفئوي في مجتمع البيظان التراتبية، بحيث تتراتب الفئات حسب قوتها وسيطرتها ليصبح بذلك " نظام الفئات والمكانات السلمي بحق ركيزة التنظيم السياسي، ورهانه أيضا، بما يقتضيه من عديد الممارسات الاجتماعية التي لا تبدو مقاصدها سياسية بصفة مباشرة، كما أن الفئة الواحدة تطالها هي الأخرى التراتبية فكل فئة مكونة من طائفة من القبائل غير المتكافئة في المكانة تماما.

أما أسباب وتاريخ قيام التقسيم الفئوي عند البيظان فيشوبه غموض لم ينجل بعد، فالمدرسة الأوربية تعتبرها وليدة حرب شربه[46] في نهاية القرن السابع عشر وهو رأي مردود لأن الحرب قامت بين حسان وزوايا وشرارتها منع "لحمي" يسمى ببه بن آصور الصكاعي دفع الزكاة للزوايا واحتمائه بحسان.

أما المصادر المحلية فلا تختلف عن الروايات الشفوية المتوارثة التي تعيده إلى أبي بكر بن عامر المرابطي بحجة تقسيمه جيشه إلى ثلاث فئات اختصت كل واحدة منها بوظيفة معينة، وإلى هذا التقسيم يشير أحمد بن الأمين الشنقيطي بقوله: أما " سكان شنقيط من حيث الجنس في الأصل قبائل من البربر التي كانت تقطن صحراء المغرب ثم دخلها العرب في الفتوح الإسلامي وتغلبوا عليهم، فصاروا قسمين عربا وبربرا ثم تجنسوا جنسين الزوايا وحسان وانقسمت قبائل حسان إلى قسمين العرب واللحمة، فصار بهذا الاعتبار شنقيط ثلاثة أجناس، فالأول كان يتوغل في البلاد ينشر فيها دين الإسلام وهم المجاهدون، والثاني اشتغل بإحياء العلوم والثالث

بإصلاح الأموال وكان يدفع للمتعلمين الزكاة ويعطي الإعانة للمجاهدين، فغلبت على الأول حسان وعلى الثاني الزوايا وعلى الثالث اللحمة[47]".

ونحن نرجح أن تشكل هذا التقسيم مرتبط ببداية السيطرة الحسانية على المنطقة في القرن الرابع عشر، وذلك نتيجة للاعتبارات الثلاثة التالية:

يقوم الاعتبار الأول على دخول عنصر جديد في المجتمع وسيطرته عليه، وما يترتب علي ذلك من سيطرة على البشر تتجسد في تقسيمه حسب طبيعة السيطرة عليه إلى فئات متفاوتة، خاصة أن القادمون الجدد غلب على طباعهم السلب والنهب، الشيء الذي يدعو إلى مداراتهم من طرف الناس بأشياء معلومة تتحول مع مرور الزمن إلى ضرائب ثابتة يتوارثها الأجيال، خاصة وأنهم وضعوا عصا الترحال في هذه المنطقة وجعلوها موطنا لهم، مما يجعل مداراتهم تتحول من مسألة عابرة إلى واقع معيش لا غنى عنه لجميع الأطراف، فحسان يسدون به رمق الحياة، والآخرون يدفعون به الظلم عنهم.

أما الاعتبار الثاني فينبع من كون تسمية الفئات عربية، واللغة العربية معروف أنها لم تنتشر في البلاد إلا مع سيطرة القبائل الحسانية عليها، هذا فضلا عن أن إحدى هذه الفئات تسمت باسم القبائل الحسانية، فلو كانت التقسمة سابقة على هذه الفترة لكانت أسماء الفئات صنهاجية أو بعضها على الأقل خاصة وأن المجتمع احتفظ بتسميات صنهاجية تحمل دلالات مشابهة أو مقاربة لصفات الفئات المجتمعية، كالأنباط التي تعني الشجاعة، والفغ التي تعنى الفقيه...

ويتمثل الاعتبار الثالث في أن الوجود الحساني أحدث تغيرا ثقافيا وسياسيا جذريا في المجتمع جسد وعمق من خلال التنوع الوظيفي في البنية الاجتماعية وآليات تحكمها في صيغ التحولات على المستوى الاجتماعي.

وانطلاقا من أن تغير البنى الاجتماعي لا يحدث طفرة فقد ظل هذا التقسيم فضفاضا إلى حد ما، حتى عمقته وجذرته حرب شربيه التي بلغ فيها التناقض بين حسان والزوايا أوجه، وأفضت في جملة ما أفضت إليه إلى منع الزوايا من حمل السلاح حتى أصبح شعارهم "من حمل السلاح ترك الصلاح"، فانكبوا على التعلم لمنع حسان من تحويلهم إلى "لحمة".

وفي نفس الوقت ركزت فئة حسان على الناحية العسكرية بوصفها وسيلتها للاحتفاظ بمكانتها الريادية في المجتمع وفي تكريس سلطتها السياسية، واقتنع " اللحمة" بضرورة الاستمرار في الاحتماء بإحدى الفئتين خاصة حسان لتأمين السلامة لأنفسهم وممتلكاتهم، تحت شعار " الحياة إلا تحت إركاب ول اكتاب"، لكن ما هي خصائص هذه الفئات وكيف كانت تراتبيتها في بنية المجتمع؟

احتل حسان المرتبة العليا في السلمية الاجتماعية، وتكرس ذلك من خلال سيطرتهم السياسية والعسكرية وتجسيد سيادتهم على الفئات الأخرى بفرض الضرائب والغرامات، أما الزوايا فقد احتلوا الرتبة الثانية مجسدين ذلك من خلال سيطرتهم الروحية على بقية الفئات، في حين كان نصيب اللحمة الرتبة الثالثة، بالإضافة إلى "ايكاون" و"لمعلمين" المعترف لهم بالحرية والاستقلالية الوظيفية رغم أنهم لا يشكلون فئات مستقلة.

أما الخصائص فسوف نحاول تبينها من خلال تتبعها عند كل فئة على حدة وذلك حسب التراتبية السلمية لهذه الفئات في البنية الاجتماعية:

** حسان (لعرب): وهم الفئة المسيطرة عسكريا وسياسيا اقتسموا البلاد إمارات واحتكروا اسم " العرب لأنفسهم، ولا يسمحون بهذه اللفظة لغيرهم كالزوايا مثلا وكالطبقة الوسطى منهم أنفسهم، ولا يدعون أن من ذكرناه أعجمي الأصل بل لأنه عندهم لا يستحق ذلك الاسم لضعفه[48]".

تقوم فلسفة هؤلاء على احتكار عالم العنف حسب تعبير عبد الودود ولد الشيخ، ويقوم منهج حياتهم على القوة والحرب والفروسية والتدريب عليها منذ نعومة أظافرهم وحتى اللحد، وكانوا يتركون لكل مولود ذكر خصلة شعر في شعره لا تحلق أبدا قبل أن يقوم ببطولة وإلا ظلت مثار تعيير له طيلة حياته، وقد ساهمت هذه العادة في إتقانهم لفنون الفروسية والحرب "وماذا أقول في قوم يعيبون من مات منهم حتف أنفه وإذا ذكر أحد منهم ميتا له قتل في معركة، يقول: مات متفرشا، يعنى أنه قتل آخر[49]".

ويتميز حسان بأخلاق خاصة بهم، كالأنفة والكبرياء وحب السيطرة والحياء حتى " أن الصغير لا يواجه الكبير بالقتل في الحرب توقيرا له لأن الحرب لا يزيل حرمة التوقير بينهم، لكن إذا أراد قتله أمر غيره واختفى من محل قتل الكبير[50]".

ومن طباعهم أيضا عدم التملك واحتقار المنشغلين بجمع المال وإلى ذلك أشار" غاستون دوني"، بقوله: " فالحساني لا يبذل ولن يبذل أي جهد من المهد إلى اللحد، باستثناء المسائل المرتبطة بطبيعته كالنهب والغزو والانتقام ومعاقبة المتمردين[51]".

وقد علق الدكتور محمدو بن محمدن على ما ذكره دونيه بقول..." وبخصوص كسل حسان الذي أشير إليه فإن القول بأنهم يمارسون النهب والغزو ومعاقبة المتمردين... يمثل في حد ذاته اعترافا غير مقصود بنوع من النشاط يمليه تحضير الوسائل الضرورية لهذا العمل، لكن القول بأن حسان لا يمارسون تقريبا الأنشطة الاقتصادية المنتجة من رعي وزراعة وتجارة لأنهم يأنفون عن ممارستها أقرب إلى الصحة[52]".

ويؤكد " بيير بونت" هذه الصورة حين اعتبر أن الثراء واقتناء الأموال يتعارض بوضوح في نسق قيم حسان مع النبل الذي هو السيادة على الرجال، وغالبا ما يقود التكديس المادي أو إعادة توجيه النشاطات الاقتصادية والاجتماعية وكذا الممارسات الزواجية بعض البيوتات الحسانية إلى الالتحاق بالزوايا في النهاية، والاندماج فيها إلى حد صعوبة التمييز بينهم[53]".

وللتوفيق بين عدم اقتناء الأموال وتوفير حاجيات الحياة قام حسان بفرض حق معلوم في أموال بقية الفئات عن طريق الضرائب و"المغارم" و"الأغفار" الموظفة على كل فئة حسب مكانتها.

وتبعا لما ذكرنا آنفا من أن الفئة الواحدة تطالها التراتبية فقد شهدت فئة حسان تراتبية انقسمت بموجبها إلى ثلاث طبقات عبر عن كل واحدة بمصطلح خاص، فعبارة مغفري تحيل إلى الطبقة العليا وما تتمتع به من شهامة وأنفة" وأبهة عظيمة[54]، وتحيل عبارة حساني إلى الخبرة في استخدام الأسلحة وإتقان فنون الحرب، إلا أنها تحيل إلى مستوى أخلاقي أدنى من ما تحيل إليه عبارة مغفري، أما عبارة " أحسيسين" بالتصغير فتعبر عن تدن في المستوى الأخلاقي يتحول بموجبه الشخص إلى غاصب ونهاب(هنتات) مع تدن في إتقان الحرب.

** الزوايا: يطلق هذا الاسم على الفئة المتعلمة " المسيرة لعالم الغيب" حسب تعبير ولد الشيخ، وهي المنتجة للثقافة العالمة، ويبدأ فيها الفرد الدراسة من صغره، ويقدح عندهم ضعف المستوى المعرفي للشخص،

كما أنهم مساهمون فاعلون في التحكم في وسائل الإنتاج، فهم القائمون على حفر الآبار، والتجارة، ويملكون أنعاما كثيرة.

ويقسمون بدورهم إلى طبقات كالزوايا والطلبة، فالزوايا تحيل إلى المعرفة ومكانة خلقية رفيعة، في حين "تعبر الطلبة" عن تدن في المستوى الخلقي والمعرفي يتحول بموجبه الفرد إلى مستغل للدين لابتزاز الفئات الأخرى بالتحايل وإدعاء التحكم في عالم الغيب.

** اللحمة (أزناكة): الفئة المشرفة على تربية الماشية، وتدين بالولاء السياسي لحسان، والولاء الروحي للزوايا، وتستغل من الاثنين بحجة حمايتها عن طريق دفع المغارم، وينقسمون إلى ثلاث طبقات، أعلاها اللحمة التي تفيد كثرة المال وحسن خلق، وأزناكة التي يعتبر أصحابها أقل مالا وأقل خلقا، أما الرعيان فهم غير المالكين، وكل عملهم العمل كمأجورين للزوايا أو للحمة أنفسهم.

وبالإضافة إلى هذه الفئات توجد مجموعات أخرى متميزة من الناحية الوظيفية، لكن اسم فئة لا ينطبق عليها لعدم وجودها كقبائل مستقلة، وارتباطها المباشر بإحدى الفئات السابقة، فهي مضافة إليها بحيث أن اسمها لا ينطق إلا بإضافة إلى إحدى القبائل، كإيكاون آل فلان، أمعلمين آل فلان....، وهذه المجموعات هي:

* إيكاون: هم الفنانون، يرتبطون بحسان يسجلون أمجادهم ويمدحونهم ويحيون لهم الليالي الساهرة، ويتقاضون مقابل ذلك الهدايا السخية، ولا توجد بينهم أي رابطة مع الفئات الأخرى، بل إن الزوايا يكرهونهم. وهم منتجو الثقافة الفنية ومساهمون فاعلون في إنتاج الثقافة الشعبية.

* لمعلمين: المجموعة المشرفة على الصناعة في المجتمع، ويرتبطون بمجموعات الزوايا، وعليهم الاعتماد في صناعة مستلزمات الحياة البدوية، وصناعتهم غالبا من الخشب والجلود، ولهم ادوار في الإنتاج الثقافي العلم والشعبي.

III– دور البنية الاجتماعية عند البيظان في التكافل الاجتماعي

يرى سيف الدين/ صـ**75** أن الروابط الإدارية والسياسية بين الأقارب في عالم البدو ضعيفة جدا لا تقويها إلا سلطة الشيخ وحسن سياسته، مصنفا هذا النوع من العلاقات الاجتماعية في زاوية الروابط العصبية القبلية، ولم يذكر منها سوى رابطة دية الدم التي ذكر أنها تتوقف عند الجد الخامس، وأن الناس يدفعونها عن طيب خاطر.

وهذا ما لا ينطبق على المجتمع البيظاني الذي تشمل رابطة الدية فيه كل أفراد القبيلة، بل أفراد التحالفات التي لا تربطها علاقة نسبية. وينظر إليها كفريضة دينية أوجبها الشرع لا يحق لأي فرد الامتناع عن دفعها، بالإضافة إلى أنها فريضة تفرضها الحياة البدوية. ولا زالت هذه الظاهرة مصاحبة للمجتمع البيظاني إلى الآن رغم وجود المدن وقيام الدولة الحديثة.

كما أنها ليست الرابطة الوحيدة التي تحقق التكافل الاجتماعي في المجتمع البيظاني، حيث شكل تنوع التقسيم الفئوي للمجتمع على أساس وظيفي مصدرا مهما للتكافل تحققت بموجبه المهام الخدمية في المجتمع من خلال إسنادها لفئات متخصصة عملت على توفيرها والسهر على انتظامها وشمولية الاستفادة منها وفق آليات الأزمنة وخصوصياتها.

وفي هذا السياق تم توفير خدمات الأمن والتعليم من طرف فئتي: "لعرب" و" الزوايا"، بينما أسندت خدمات الإنتاج الرعوي والصناعة إلى فئة:"ازناكة" ومجموعة "لمعلمين"، مما احدث تنوعا خدميا ساعد على استمرارية الحياة في الصحراء وانسيابيتها.

وبسبب التدني في الأداء الخدمي للدولة الحديثة لا تزال بعض هذه الأدوار قائمة إلى حد الساعة، بحيث توفر القبيلة مجموعة من الخدمات تكمل النقص في خدمات الدولة في مجالات التأمين والصحة والتعليم والتشغيل والإيواء...

وتعتبر " التعزريت" – وهي نظام أو قانون قرى الضيوف– أكبر دليل على تعاون المجتمع وتكافله، فبموجبها تتساوى الأسرة التي عندها ضيوف مع غيرها من الأسر في التكاليف المادية اللازمة لقراهم. ويحدث ذلك بطريقة ميكانيكية منظمة دون اللجوء إلى اجتماع أو تشاور – فبمجرد نزول الضيوف عند أسرة يعرف عددهم ومكانتهم، فتقوم كل أسرة في الحي بإعداد طعام يناسبهم وترسله إليهم عند الأسرة التي نزلوا عندها، وبهذا لا تتحمل الأسرة المضيفة إلا الجزء اليسير من تكاليف الضيوف.

وبموجب " التعزريت" كانت الإشادة بالكرم والتعبير عن عدمه في المجتمع ترتبط بالقبائل بدل الأسر أو الأفراد، فكلما كان إحكام واثبات نظام " التعزريت" قويا عدت القبيلة من الكرماء، وكلما كان ضعيفا عدت على عكس ذلك. ولو تفحصنا القصائد الفصيحة أو الشعبية المادحة أو الذامة بشأن قرى الضيوف والاعتناء بهم، لوجدنا أن الغالب الأعم منها موجه إلى قبائل، في حين لم يوجه منها للأفراد إلى النزر القليل.

وقد يكون هذا من أهم الأسباب التي أدخلتها دائرة الاهتمامات الفقهية التشريعية في المجتمع، فقد ذكر محمد المختار بن أمباله ما نصه" وأما الضيافة فلا تجب إلا على باب المواساة[55]"، ثم أضاف "أنها تفرض على أهل البوادي" في رأي أحمد بن حنبل. ونقل عن السالك بن الإمام الحاجي في حديثه عن قوم عادتهم جمع الطعام للضيوف قوله " إن عمله البالغون الرشداء بطيب أنفسهم حل، وإن كان فيهم الأيتام والأرامل والضعفاء فلا يحل أكله لأهل المنزل، وأما الضيفان فقد يأكلون ما يجدون في ضيافتهم فلا حرج على الضيف والإثم على من أطعمه مالا ينبغي، وقيل لا ينبغي للضيف أن يأكل إذا علم أنه مجموع من الأرامل واليتامى والضعفاء إلا لضرورة، وقال أن هذا القول الأخير هو الذي نص عليه العلماء"[56].

وغير بعيد من هذا الدور التكافلي الذي تقوم به "التعزريت"،وجدت مظاهر أخرى من مظاهر التكافل الاجتماعي أفرزتها البنية الاجتماعية البيظانية في أشكال مناسباتية ساهمت في المؤازرة في أوقات الضائقة في المناسبات الاجتماعية، كما هو حال"المعونة في الأعراس" و"الكشوة" في الولادات" والإطعام في التعازي..، ولا تزال هي الأخرى فاعلة إلى حد الساعة في حل الكثير من المشاكل الاقتصادية والاجتماعية في المجتمع، رغم أنها تساعد في بعض الأحيان في تشجيع الإنفاق غير المعقلن في المجتمع.

وفضلا عن هذا كله، فقد كان للمنظومة القيمية الأخلاقية التي أفرزتها التركيبة الاجتماعية الدور الفعال في تكريس مفاهيم التكافل الاجتماعي حتى عدت في إطار الواجبات المفروضة في النسق السلوكي للأفراد، كما هو الحال في إدراج تكاليف النساء المادية –حتى ولو كن خارج دائرة الحضانة الشرعية – في اختصاصات ذوى القربى من الرجال، وعدت مساعدة الضعيف والمحتاج من مكارم الأخلاق....

وبما أن ضبط هذا النوع من الروابط شهد بعض الاختلالات، خاصة في المناطق أو الأزمنة التي تضعف فيها السلط السياسية أو تختفي، فقد ظهرت روابط أخرى لا تقل في قوتها عن سابقاتها، كالمدارة التي عرفها محمد المختار بن أحمد بن انباله التيشيتي بأنها " تطلق على ملاينة الناس وحسن صحبتهم والاحتمال لهم بخفض الجناح ولين الكلمة وترك الإغلاظ لهم والرفق بالجاهل في التعليم وبالفاسق بالنهي عن فعله وترك الإغلاظ عليه. وتطلق على دفع المال اتقاء من شر الظلمة، وعلى ما تجمعه القبيلة لحفظ مصالحها ودفع المفاسد عنها وإقامة مروءاتهم من ضيافة الوارد عليهم ومواساة الغرباء ومكافأة من له إليها يد صالحة وعلى ما يعطي للخفير من الظلمة[57]".

ومن هذا التعريف تتضح أهمية المداراة كإحدى أهم الروابط الاجتماعية السلطوية داخل القبيلة في المجتمع البيظاني، " فهي من ناحية رابطة سلطوية تحافظ من خلالها القبيلة على كيانها، ومكاسبها الاقتصادية، كما أنها محددا لعلاقاتها مع الآخرين الأقوى منها، فهي دفع بالمال – بعد فشل ما سواء – من أجل البقاء على كيان القبيلة، وسيادتها على أرضها وأفرادها، وأتباعها، وعلى هذا فالمداراة وسيلة من وسائل البقاء على سلطة القبيلة المتمثلة في " حفظ مصالحها ودفع المفاسد عنها".

أما من الناحية الاجتماعية فالمداراة تحافظ على سمعة القبيلة داخل المجتمع بما توفره من مواساة للغرباء، وقرى للضيف، وغيرهما من العادات التي يعتبر التخلي عنها والتفريط فيها قادحا عند المجتمعات البدوية والأخلاق العربية. كما أنها تحمل معنا تكافليا تعاونيا يتم بموجبه تقسيم الأعباء المادية على أفراد القبيلة بدل أن يتحملها فرد واحد، مما يعكس أهميتها كرابطة عشائرية الغرض منها الحفاظ على سمعة القبيلة داخل مجتمعها.

وقد بلغت المداراة من الشيوع في المجتمع ما جعلها تدخل اهتمام الفقهاء، فبحثوا في مشروعيتها وكانت النتيجة الحكم بوجوبها، فقد أفتى الطالب محمد بن المختار بن الأعمش (**1036**هـ/**1625**-**1696**/**1107**م) عندما سئل عنها بأنه رأى " حكما قضى به قاضي وادان محمد بن عبد الله بن أحمد الودانى رحمه الله تعالى وهو لزوم المداراة على جميع ما اشتمل عليه وادان من قاطنيها وطارئيها ومن انضاف إليهم، وأن من لم يعطها تؤخذ منه كرها ويباع فيها ملكه شرعا[58]".

وهذا هو رأي حماه الله التيشيتي حين سئل " عن رجل أعطى جميع ما ناب قومه وشركاءه في المداراة كلها من الوظائف ومؤونة الظلمة حتى انصرفوا ولم يكلموا أحد من قومه، ثم بعد انصرافهم طلب من قومه أن يوزعوا له ما أعطى للظلمة، فامتنع بعضهم من ذلك وأبوا وقالوا ليس علينا شيء من ذلك لأنا لم نحضر حين أعطيت ما أعطيت ولا نخاف منهم تلك الساعة لعدم حضورنا وقال هو (أي الذي دفع المداراة) لولا الصلح الذي صالحناهم ومداراتنا لهم ما سلمتهم، فأجاب أن الذي بذل الرجل لازم لمن تناولته مصلحة مداراته لمن أقام معه[59]".

ولعل هذا اللبس هو ما أراد سيد عبد الله ولد الحاج إبراهيم (**1152**هـ/**1739**-**1232**هـ/**1818**) توضيحه في نوازله عندما " سئل عن المداراة هل تضرب على الأموال والمكلفين والبيوت فأجاب والله تعالى أعلم أنها على المال لأنها دفعت لحفظه من الظلمة يدور مع العلة وجودا أو عدما لا على المكلفين أو البيت لعدم الخوف عليهم[60]".

هكذا شرع الفقهاء المداراة بعد أن فرضت نفسها كرابطة اجتماعية وسياسية تضمن بها القبيلة بقاءها، وتحافظ بها على ممتلكاتها، ومكانتها داخل المجتمع البدوي البيظاني. وتحيل فتاوى الفقهاء في هذا الشأن إلى إيمانهم بضرورة القبيلة كتنظيم داخل المجتمع البدوي، وضرورة سلطتها على أفرادها وأرضها، " ولا يخرج عنها (المداراة) إلا من رفض سكنى ذلك الموضع الذي دوري فيه، واستوطن غيره بحيث لا يعد من سكانه[61]".

وبالرغم من أن هذه البنية قد تشكلت بآلياتها الأخلاقية والوظيفية وأنساقها القيمية والروحية لتسيير مجتمع بدوي في فترة زمنية تختلف أطرها وقوالبها التنظيمية عن زماننا اليوم، فإن ضعف الأداء التكفلي للدولة الحديثة في منظومتها الخدمية، جعلها لا تزال تقوم بنفس الأدوار التكافلية التي كانت تقوم بها في الماضي، كما أنها لا تزال صمام الأمان لتماسك وتلاحم هذا المجتمع رغم ما يظهره البعض من تمرد عليها وما يحملونها من مسؤوليات جعلتهم يرونها سببا للإخفاق والتأخر؟

الهوامش

[1]- محمد المختار ولد السعد، حرب شربيه، أو ازمة القرن 17 في الجنوب الغربي الموريتاني،مطبعة المعهد التربوي الوطني، نواكشوط، 1995، ص 36.

[2]- محمذن ولد باباه، الشيخ محمد اليدالي وسطه الاجتماعي (تشمشه)، مرقون بحوزتي.

[3]- ينقسم البربر إلى فرعين كبيرين هما: البرانس والبتر. وهم سكان شمال إفريقيا الأقدمون، لعبوا أدوارا كبرى في تاريخ شمال إفريقيا، تعددت آراء الباحثين حول أصولهم، فمنهم من ينسبهم إلى العرب من خلال شجرة نسب تربطهم بالقحطانيين، وعملت المدرسة الاستعمارية كل ما في وسعها لربطهم بأصول أوربية مدعية أنهم اجتازوا البحر الأبيض المتوسط في فترة متقدمة. بينما يرى ابن خلدون أنهم شعب مستقل بذاته.

[4]- محمد الجوهري وآخرون، ترجمة كتاب: دراسة علم الاجتماع، لمؤلفه جاك صابرن (jacque sabran)، دار المعارف الطبعة الثالثة، 1979.

[5]- السيد ولد أباه، ترجمة لمقال عبد الودود ولد الشيخ: "القرابة والسلطة، قراءة نقدية في النظرية ألانقسامية، حوليات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط، العدد 4، 1994، ص 59.

[6]- الشيخ محمد اليدالي ووسطه الاجتماعي، المرجع السابق، ص11.

[7]- حفظ ولد الطالب على، البنية القبلية ومفهوم السلطة في المجتمع البيظاني خلال النصف الأول من القرن العشرين، بحث لنيل الإجازة في التاريخ، جامعة نواكشوط 1989، ص8.

[8]- محمد المختار ولد السعد، المرجع السابق، ص37

[9]- الناصر السلاوى (أحمد بن خالد)، الاستقصاء لتاريخ دول المغرب الأقصى، ج1، الدار البيضاء، المغرب، 1956، ص 467.

[10]- المرجع نفسه، ص467.

[11]- نفسه، ص ص 467، 468.

[12] -C. Vavaker : La Mauritanie Jusqu'au XXème Siècle Introduction a la Mauritanie, C.N.R.S, Paris 1979, PP 57,58.

[13]- ابن خلدون، عبد الرحمن، تاريخ ابن خلدون، ج6، دار الكتاب اللبناني، بيروت 1967، ص121.

[14]- المصدر نفسه نفسه، ص 122.

[15]- ورد هذا الكلام منسوبا إلى الناصري السلاوي في كتاب: نصوص من التاريخ الموريتاني، تحقيق محمدن بن باباه، بيت الحكمة، قرطاج تونس 1990، ص33.

[16]- المرجع نفسه، ص33.

[17]- من فقهاء ومؤرخي البلاد في بداية القرن 18م.

[18]- الشيخ محمد اليدالي، قصيدة مخطوطة، بحوزتي نسخة منها.

[19]- محمد بن أحمد يوره الديماني، إخبار الأخبار بأخبار الآبار، تحقيق أحمد ولد الحسن، منشورات معهد الدراسات الإفريقية، الرباط 1992، ص21.

[20]- محمد المختار ولد السعد، المرجع السابق، ص38.

[21]- ابن خلدون، المقدمة، تحقيق عبد الواحد وافي، لجنة البيان العربي، القاهرة، 1965، ص49.

[22]- المصدر نفسه، ص49.

[23]- نفسه، ص49.

[24]- الشيخ محمد اليدالي ووسطه الاجتماعي، المرجع السابق، ص 39.

[25]- يذكر ولد السعد في كتابه حرب شربيه أن المنصور الموحدي استخدم قبائل بني معقل ضد الإسبان سنة 583هـ/1178م، ص 39.

[26]- ابن عذاري، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، دار كريما ديس للطباعة، تطوان 1960، القسم الثالث، ص466.

[27]- منطقة جبلية تقع في الشمال الموريتاني الحالي توجد فيها مدينة شنقيط التي أصبح اسمها علما على البلاد والسكان في إحدى مراحل تاريخه.

[28] - مصطلح يطلق على المنطقة الجنوبية الغربية من موريتانيا، ويضم ولايات الترازة، والبراكنة وانشيري الحالية.

[29]- منطقة في غربي مالي الحالية سكانها من عرب المعقل منه انطلقت الجبهة العربية لتحرير أزواد المناهضة لحكومة مالي.
[30]- محمدن بن أحمد بن العاقل، حكم بشأن تقسيم أركيز، مخطوط بحوزتي نسخة منه.
[31]- محمد الأمين ولد سيدي أحمد، تحقيق رسائل الشيخ سيديه الكبير الى المجموعات التروزية، بحث لنيل الإجازة في التاريخ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة نواكشوط،1995، ص
[32]- محمد المختار ولد السعد: "الإمارات والمجال الأميري البيظاني خلال القرنين 18-19(إمارة الترارزة نموذجا)، حوليات كلية الآدب، جامعة نواكشوط، العدد2، المطبعة الوطنية، نواكشوط، ص58.
[33]- سيف الدين القصير، " العلاقات الاجتماعية في المجتمعات العشائرية"، مجلة المعرفة، دمشق سنة 1992م، العدد 342، ص72.
[34]- المرجع نفسه، ص 82.
[35]- محمد مراد، " العائلة وعلاقات القرابة والسلطة في المجتمع المصري"، مجلة الاجتهاد، العددان 39-40، دار الاجتهاد للأبحاث والترجمة والنشر، بيروت، 1998، ص15.
[36]- سيف الدين القصير، المرجع السابق، ص ص 67،68،69.
[37]- محمد مراد، لمرجع السابق، ص ص29،30.
[38]- جورج أبو صالح، ترجمة كتاب: الطبقات الاجتماعية في لبنان، لسليم نصر وكلور دوبار ، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، الطبعة الأولى، 1982، ص48
[39]- محمد مراد، المرجع السابق، ص27.
[40]- نفس المرجع، ص 27.
[41]- سيف الدين القصير،لمرجع السابق، ص77.
[42]- المرجع نفسه ، ص77.
[43]- نفسه ، ص77.
[44] -Constant Hames : la Société Maure ou le Système des Castes hors de l'inde , cahier International de sociologie, vol . xl. xl, 1969, PP 163-177.
[45] -Pierre Bonte : (Guerriers et Repentants : la tawba et l'évolution politique de la Société Emirale Maure) Al-Wâsit ; bulletin de l'institut Mauritanien de la Recherche Scientifique, bul 3,1988, p.p. 5-18.
[46]- حرب قامت في النصف الثاني من القرن السابع عشر في الجنوب الغربي لبلاد البيظان بين حسان والزوايا.
[47]- أحمد بن الأمين الشنقيطي، الوسيط في تراجم أدباء شنقيط، دار الخانجي، القاهرة.
[48]- المرجع نفسه، ص480.
[49]- نفسه، ص480.
[50]- محمد ولد أمينو ولد الفراء، مناقب أولاد أحمد بن دامان، مخطوط بحوزتي نسخة منه.
[51]- محمدو ولد محمدن، "الرحالة الفرنسيون في القرن 19م ودورهم في تحريف التاريخ الموريتاني"، حولية كلية الآداب والعلوم الإنسانية، العدد2، 1990، ص21، نقلا عن Gaston Donnet
[52]- المرجع نفسه، ص27.
[53] -P. Bonte.op.cit.p14.
[54]- أحمد بن الأمين الشنقيطي، المرجع السابق، ص480.
[55]- - محمد المختار ولد أحمد ولد انباله التيشتي، بيان حكم المداراة للظلمة خوف الانتهاب والضيافات، مخطوط، بحوزتي نسخة منه ، ص9.
[56]- المرجع نفسه، ص9.
[57]- نفسه، ص1.
[58]- الطالب محمد بن المختار بن الأعمش، نوازل المداراة، مخطوط بحوزتي نسخة منه.
[59]- بيان حكم المداراة للظلمة خوف الانتهاب والضيافات، المرجع السابق، ص4.
[60]- سيد عبد الله ولد الحاج ابراهيم، النوازل، اجوبة المداراة، مخطوط.
[61]- بيان حكم المداراة للظلمة خوف الانتهاب والضيافات، المرجع السابق،4.

حـــرب الصحراء الغربية
وآثارها في موريتانيا 1975–1978م

د. محمد المختار ولد سيدي محمد الهادي، أستاذ التاريخ المعاصر بجامعة انواكشوط

التمهيد:

إن الحديث عن الحرب في الصحراء الغربية وأثرها في التطور السياسي الموريتاني يقتضي، في البداية، التذكير بأنها كانت متعددة الأطراف ومتشعبة الأسباب نظراً لتداخل المصالح السياسية والإستراتيجية للأطراف المعنية بالنزاع[1]، وعلى الرغم من الصعوبات التي تعترض دراسة محور واحد من حرب متعددة الجبهات، والتعقيدات المترتبة على ذلك، فإن التحديدات المنهجية للبحث تفرض الالتزام بالجانب الموريتاني دون غيره، سعياً لكشف بعض الخفايا المتعلقة بأهم حدث سياسي عرفته موريتانيا بعد استقلالها.

ومهما تعددت الآراء بشأن هذه الحرب، واختلفت المواقف حولها، وبغض النظر عن وجاهة الحجج والأسانيد التي ساقتها الجهات المعنية، فإن الموقف الموريتاني يبقى أكثرها إثارة للتساؤل نظراً للترابط الاجتماعي والثقافي والاقتصادي بين الإقليمين، وأنها أكثر الأطراف تأثراً بالحرب التي تركز ثقلها على الأراضي الموريتانية، كما أنها كانت تطالب بجميع الإقليم في البداية ثم قبلت باقتسامه مع المغرب في منتصف السبعينيات من القرن العشرين، قبل أن تنسحب منه نهائياً بعد حركة العاشر من تموز–يوليو سنة 1978؛ وهذا ما يؤكد ضرورة دراسة هذا الموقف، لاسيما بعد ظهور بعض الوثائق المتعلقة به، وذلك من خلال الإجابة عن الأسئلة المحورية التالية: لماذا دخلت موريتانيا الحرب؟ ما أهم مراحلها على الجبهة الموريتانية؟ وما مدى تأثيرها في التطور السياسي الموريتاني ؟

غير أن الإجابة عن هذه الأسئلة تتطلب فكرة عامة عن منطقة النزاع طبيعياً وبشرياً ، وطبيعة المشكلة التي أدت في النهاية إلى هذه الحرب.

يقع إقليم الصحراء الغربية في غرب الوطن العربي، وفي الجزء الشمالي الغربي من القارة الإفريقية، ويشترك مع المملكة المغربية شمالاً بحدود طولها (445)كيلومترا، ومع موريتانيا جنوباً بنحو (1570) كيلومترا ومع الجزائر شرقاً بنحو(30) كيلومترا في حين يبلغ ساحله على المحيط الأطلسي غرباً نحو (1400)كيلومترا

ينقسم الإقليم جغرافياً إلى ثلاث مناطق رئيسة هي :

أ. منطقة طرفاية: في أقصى الشمال، والتي تنتهي جنوباً عند خط العرض (20)، وعاصمتها مدينة طنطان، وتقدر مساحتها الإجمالية بنحو (265) كيلومترا مربعا.

ب. منطقة الساقية الحمراء: التي تقع في الوسط، وتقدر مساحتها الإجمالية بنحو (190) ألف كيلومترا مربعا، تنتهي جنوباً عند خط العرض (26)، وعاصمتها مدينة العيون.

ج.منطقة وادي الذهب: في الجزء الجنوبي من الإقليم على الحدود الموريتانية وتقدر مساحتها الإجمالية بنحو (82) ألف كيلومتر مربعا، وعاصمتها مدينة الداخلة.

ويمتاز إقليم الصحراء الغربية بمناخ شبه معتدل قياساً إلى المناطق الصحراوية الأخرى، وذلك نظراً لوقوعه بمحاذاة الشاطئ الأطلسي، أما في أجزائه الوسطى فإن السائد هو المناخ القاري الحار نهاراً والبارد ليلاً، وهو في عمومه

غير ممطر، كما أن معدلات التساقط تتناقص كلما اتجهنا جنوباً، إذ يصل متوسطها إلى (**43**) مم في العيون، و(**40**) مم في الداخلة، و(**30**)مم في أقصى الجنوب.

وتمتاز تضاريسه بوجود مرتفعات جبلية في الأجزاء الوسطى والجنوبية يتراوح ارتفاعها ما بين (**500**) إلى (**800**) مترا، كما أن الطابع الصحراوي العام لم يحل دون وجود بعض الأودية كثيفة الأشجار كما هو الحال في وادي الجنة في منطقة تيرس، وهذه الخواص الطبيعية كان لها شأنها الكبير في التأثير بمسار العمليات العسكرية لاسيما في الجبهة الموريتانية.

وعلى المستوى البشري: فإن الطابع البدوي لأغلب سكان الإقليم والقائم – أساساً–على التنقل الدائم في الصحراء، ووجود بعض الامتدادات العرقية لهذه القبائل داخل الأقطار المجاورة، واتساع الرقعة الجغرافية، وصعوبة مسالكها، تجعل الحديث عن المعطيات الكمية المتعلقة بالسكان محفوفة بالكثير من الشكوك، تعكسها الفروق الكبيرة في الأرقام التي قدمتها بعض الدراسات ومراكز البحوث[2].

وسنعتمد في هذه الدراسة على الإحصاء الذي قامت به إسبانيا سنة **1974**، لا من منطلق الإقرار المطلق بصحته، ولكن؛لأنها الدولة التي كان الإقليم خاضعاً لسيادتها، ولها من الوسائل البشرية، والإمكانات المادية والمعنوية ما يمنحها حق الأولوية في هذا الجانب، كما أن هذا الإحصاء جاء متزامناً مع التطورات التي سندرسها، وتضمن الكثير من المؤشرات التفصيلية التي تشكل أساساً– كمياً – لا غنى عنه لدراسة المشكلة الصحراوية وطبقاً لهذا الإحصاء؛ فإن عدد سكان إقليم الصحراء سنة **1974** قد وصل إلى (**73497**) نسمة[3]، وهو رقم لا يشمل الأجانب المقيمين في الصحراء، ولا الصحراويين القاطنين في دول الجوار، وتحتل قبائل أرقيبات[4] المقيمة في المناطق الساحلية والشرقية من الإقليم، المركز الأول بنسبة (**52%**)، تليها قبائل تكنه القاطنة في الشمال بنسبة (**15.78%**)، وتعتمد على التجارة ولها صلات قوية بجنوب المغرب، وفي المرتبة الثالثة توجد قبائل دليم التي تمثل نحو (**7.3%**) من مجموع السكان، وتقع مضاربها في الجنوب قرب الحدود الموريتانية، تليها قبيلة أولاد تيدرارين بنسبة (**6.6%**)، وقبيلة العروسيين بنسبة (**3.9%**) ومجموعات قبلية أخرى أقل عددا[5].

وعلى المستوى السياسي؛ فإن إقليم الصحراء الغربية ظل قرونا طويلة معبراً لهجرات بشرية متعددة[6]، إلا أن ظروفه القاسية، والطبيعة البدوية لسكانه، كلها عوامل لم تجعل منه مستقراً لسلطة مركزية، وإن كان سلطان القبائل في مجال انتجاعها كان ماثلاً تعبر عنه الأعراف الاجتماعية البدوية، والتقاليد العربية الإسلامية مع بقية من عادات الصحراء وقيمها.

ومنذ الثلث الأخير من القرن التاسع عشر الميلادي بدأت إسبانيا في التخطيط لوضع الإقليم تحت حمايتها، حيث أبرمت سلسلة اتفاقيات مع شيوخ القبائل في وسط الصحراء وشمالها[7] سنة **1881** حظيت بمباركة أوربية في مؤتمر برلين سنة **1884**م[8]، ثم أشفعتها باتفاقيات مكملة سنة **1886** مع أمير آدرار في الشمال الموريتاني، الذي كان يتمتع بنفوذ في جنوب الصحراء[9]، وتعزز الموقف الاسباني في معاهدة باريس في **13** تشرين الأول–أكتوبر سنة **1904** م التي أضافت لممتلكاتها في المنطقة الجزء الشمالي من المغرب والمناطق الواقعة جنوب إيفني[10].

وقد اقتصر الوجود الإسباني في بداية الأمر على بعض المحطات الساحلية مثل طرفاية والداخلة ولكويرة مما أتاح للقبائل الصحراوية فرصة التحرر من السيطرة الإسبانية واللجوء إلى جنوب المغرب وشمال موريتانيا وغرب

الجزائر، وترتب على ذلك نوع من عدم الاستقرار السياسي تفاقم بعد تحول ثقل المقاومة المسلحة الموريتانية إلى المناطق الشمالية، وتنسيقها مع الشيخ ماء العينين(ت 1328– 1910م) في مدينة أسماره[11].

وهكذا تصاعد الضغط الفرنسي على إسبانيا لتشديد قبضتها على عموم الصحراء ووصل الأمر حد اختراق الجيوش الفرنسية لمناطق النفوذ الأسباني لتعقب الثوار، وكان اكتشاف بعض الثروات المهمة في الإقليم عاملاً مضافاً أسهم مع سابقيه في تغيير السياسة الإسبانية في المنطقة، فبادرت سنة 1946م إلى تسميتها بأفريقيا الغربية الإسبانية، وأقامت بها سلطات إدارية محلية، وأخضعت أهم مراكزها لسيطرتها المباشرة[12].

ومنذ مطلع الخمسينيات من القرن العشرين الميلادي أصبحت الصحراء الغربية مسرحاً لحرب استنزاف قامت بها بعض القبائل المحلية، بالتعاون مع عناصر جيش التحرير المغربي الذي هاجم المراكز الإسبانية في عموم الصحراء، والوحدات الفرنسية في شمال موريتانيا مما دفع الإسبان والفرنسيين إلى تنظيم حملة عسكرية مشتركة لمواجهة هذا الجيش في العاشر من شباط–فبراير سنة 1958، وقد مكّنت هذه الحملة من القضاء نهائياً على هذا الجيش، الذي تكبد خسائر بشرية ومادية فادحة[13]، واستسلم بعض قادته بعد أن حوصروا في الصحراء، ثم أصدرت إسبانيا عفواً شاملاً عن العناصر التابعة لها ضمن المحاصرين، في حين بدأ الفرنسيون في تنظيم مفاوضات مع قبائل أرقيبات التي تخلت عن سلاحها في نيسان–ابريل [14] 1958م.

وكان لاستقلال المغرب وموريتانيا وتنامي الثورة في الجزائر أثر بالغ في تطور المشكلة الصحراوية، فقد عمدت إسبانيا إلى سلسلة إجراءات استهدفت ترضية بعض أطراف النزاع، إذ قامت بإرجاع منطقة طرفاية إلى المملكة المغربية في الأول من نيسان–ابريل سنة 1958 لإثارة مشاعر الصحراويين ضد المغرب، وإلهائه عن المطالبة بباقي الإقليم.

كما أصدرت في نيسان–ابريل سنة 1961 قانوناً جديداً يؤكد تبعية إقليم الصحراء للحكومة الإسبانية، ليصبح منذ ذلك التاريخ المقاطعة الحادية والخمسين ضمن التقسيم الإداري الإسباني، ويعطي هذا القانون للسكان حق التمثيل في البرلمان الإسباني " الكورتيس " ويسمح بإنشاء مجلس بلدي مؤلف من أربعة عشر عضواً يمثلون أهم القيادات العشائرية في الصحراء[15].

وخلال هذه المرحلة أصدرت الجمعية العامة للأمم المتحدة سلسلة من القرارات[16] تتضمن إدراج الصحراء الغربية في قائمة المناطق المشمولة بتصفية الاستعمار، وتطالب إسبانيا بإجراء استفتاء لتقرير مصير السكان " يأخذ في الحسبان تطلعات الشعوب المحلية الأصلية بالتشاور مع الحكومتين المغربية والموريتانية وكل الأطراف الأخرى المعنية بالقضية "[17]. ومع أن القرارات الدولية قد شكّلت بادرة أمل للشعب الصحراوي وسنداً معنوياً لنضاله، فإنها في المقابل لم تخلِ من مظاهر تردد وعناصر تعقيد إذ تتحدث عن " شعوب محلية " وعن أطراف خارجية تسمي بعضها وتشير إلى بعضها الآخر، وتتبنى قاعدتين متناقضتين في العرف الدولي وهما احترام الحدود الموروثة عن الاستعمار، واحترام الوحدة الترابية للدول، والحقيقة أن هذا التناقض يعود إلى اختلاف جوهري في وجهات نظر الأطراف المعنية بالقضية الصحراوية

والواقع أن إسبانيا كانت تستغل عدم إلزامية القرارات الدولية من جهة، والخلافات بين المغرب والجزائر، والمغرب وموريتانيا من جهة أخرى فـــتماطل في تنظيم الاستفتاء حيناً، وتوهم كل واحد من الأطراف الثلاثة على حدة أنه صاحب الحق في الصحراء، وأنها على استعداد للتنسيق معه في شأن مستقبل الإقليم بشكل منفرد، غير أن متغيرات محلية قد جرت منذ مطلع السبعينيات أهمها المصالحة الجزائرية المغربية، والاعتراف المغربي بموريتانيا، قد أرغمت إسبانيا

على تغيير موقفها والدعوة إلى استفتاء وهو ما رفضته المغرب وموريتانيا اللتان بدأتا بالتخطيط لاقتسام الصحراء بينهما مما أدخل المنطقة في أتون حرب مدمرة كانت لها آثارها السلبية في موريتانيا، فما هي دوافعها الحقيقية؟.

2. أسباب دخول موريتا نيا للحرب :

ما كادت موريتانيا تنهي احتفالاتها بالذكرى الخامس عشرة لاستقلالها الوطني حتى اندلعت حرب الصحراء الغربية لتبدد المكاسب السياسية التي كانت قد حققتها، وتشل المشاريع الاقتصادية المنجزة أو التي كانت قيد الإنجاز[18]، وقد تضافرت مجموعة من العوامل الاقتصادية والاجتماعية والأمنية والسياسية أدت مجتمعة إلى اشتراك موريتانيا في هذه الحرب.

فعلى المستوى الاقتصادي : كانت البلاد تعيش آثار سنوات الجفاف التي أهلكت الثروة الحيوانية، وخلقت جواً من المعاناة الاجتماعية عكسه التزايد الكبير لسكان المراكز الحضرية التي كانت تفتقر إلى المرافق الضرورية فكان على الحكومة الموريتانية أن تتطلع إلى إقليم الصحراء الغني بثرواته الطبيعية المهمة للحد من آثار هذه الأزمة.

وعلى المستوى الاجتماعي : فإن سكان المناطق الصحراوية، ولاسيما الجنوبية والوسطى يمثلون امتدادا بشرياً للمجموعة الموريتانية (البيظانية)، بل إن أغلب قبائل الصحراء توجد لها فروع مهمة داخل الأراضي الموريتانية سواء تعلق الأمر بقبائل أرقيبات أم قبائل أولاد دليم أم غيرهم[19]، فالجميع يتكلمون اللهجة الحسانية، ويمارسون عادات وتقاليد اجتماعية متطابقة، وهو ما عدّه الرئيس المختار سبباً كافياً للمطالبة بهذا الإقليم كونه جزءاً لا يتجزأ من التراب الوطني الموريتاني[20].

وهناك دواعٍ أمنية لا تقل أهمية عن سابقاتها، بل إنها في بعض الأحيان تبدو أكثر إلحاحاً تتعلق بنشاط بعض المجموعات القبلية والتنظيمات السياسية الصحراوية، ورد الفعل الإسباني على تلك الأنشطة، فمنذ الإعلان عن تأسيس الجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء ووادي الذهب (البوليساريو) في الزومات شمال موريتانيا في العاشر من أيار–مايو سنة[21]**1973**م عرفت الأوضاع الأمنية في المنطقة تطوراً خطيراً أحرج الحكومة الموريتانية التي كان عليها أن تدعم الجبهة، وتعمل في ذات الوقت على تنسيق موقفها مع المغرب والجزائر، وتتحاشى إثارة الجانب الإسباني، إلا أن التوفيق بين هذه الأطراف كان حينها يبدو متعذر التحقيق في ضوء تضارب الأهداف والغايات وفيما كانت الجبهة تستعد لبدء نشاطها السياسي والعسكري تلقى الرئيس المختار رسالة من قادة أرقيبات طالبوا فيها الحكومة الموريتانية " بالسماح لهم بمزاولة نشاطهم التحرري في وطنهم الثاني موريتانيا. .. وإقامة دورات تدريبية لمقاتليهم في المدارس الموريتانية،... ودعمهم ببعض الأسلحة والمعدات الحربية، وتوفير التسهيلات الضرورية لتحركهم " [22]، وقد أضافت الجبهة بعد تأسيسها إلى هذه المطالب فتح مكتب لها في العاصمة الموريتانية ومنحها حصة دعائية في برامج الإذاعة الموريتانية[23].

وتتضمن وثائق وزارة الداخلية الموريتانية العديد من الرسائل التي بعثتها بعض الشخصيات القيادية من قبائل أرقيبات ولاسيما مجموعة القواسم إلى الرئيس المختار وإلى وزير الداخلية الموريتاني أحمد ولد محمد صالح تناشدهما توفير الدعم اللازم للشعب الصحراوي في مواجهة الاستعمار الأسباني، وتعدهما بعدم اتخاذ أي إجراء يسيء إلى موريتانيا أو يعّرض مصالحها للخطر[24]، كما قامت الجبهة باعتماد ممثل دائم لها في موريتانيا هو السيد محمود بن ابهاه وهو من وجهاء القواسم، وكلفته بجمع المساعدات والتبرعات لصالح المقاتلين[25].

وعلى الرغم من أن موريتانيا لم تستجب لكل المطالب الصحراوية، إلا أنها قدمت لهم بعض الدعم المادي والدبلوماسي من ما مكنّهم من تنفيذ بعض العمليات ضد الوجود الإسباني، كما وقفت إلى جانبهم في مؤتمر بنغازي سنة

1974 للحصول على عضوية المنظمة الإفريقية للشباب، وغضت الطرق عن الكثير من نشاطهم الذي كان يتم فوق أراضيها[26].

غير أن الحكومة الإسبانية التي أصبحت مصالحها تتعرض للخطر من جرّاء هجمات البوليساريو لم تغض النظر عن الدعم الموريتاني للجبهة، فقد سلم المقيم الإسباني في الصحراء غوميز د سالازار (Gommiez De Salazar) مذكرة احتجاج إلى حاكم بئر أم قرين في الشمال الموريتاني النقيب مولاي ولد بوخريص في 30 حزيران–يونيو سنة 1973م، وقد تضمنت المذكرة طلب إسبانيا بعدم السماح للصحراويين بمهاجمة المراكز الإسبانية انطلاقا من الأراضي الموريتانية[27]، ثم قامت إسبانيا بعد ذلك بعدة أيام بإرسال خمس طائرات هليكوبتر حلقت فوق المدن الشمالية لموريتانيا وألقت منشورات تتضمن تهديداً بغـــزو المناطق الـــتي توجد فـــيها قواعد الجبهة،أو التي يعود إليها المقاتلون الصحراويون بعد مهاجمة الأهداف الإسبانية[28].

وقد أخذت الحكومة الموريتانية التهديدات الإسبانية على محمل الجد وباشرت في تضييق الخناق على مقاتلي الجبهة، ومراقبة تحركهم، قبل أن تعمد ابتداء من 7 تموز–يوليو 1973 إلى تنسيق تحركها مع السلطات الأمنية الإسبانية، وتسليمها بعض عناصر الجبهة الذين يثبت اشتراكهم في تنفيذ العمليات ضد الإسبان[29].

استنكرت الجبهة التحول الجديد في السياسة الموريتانية وجاء في رسالة بعثت بها إلى وزير الداخلية الموريتاني قولها: "وكم كانت خيبة أملنا ياسيادة الوزير عندما اعتقل القائم بأعمال حكومتكم الموقرة في بئر أم قرين... عشرة من ثوارنا مع (12) بندقية وجمالهم وذخيرتهم. .. ثم حينما رفضتم الإعلام ببياناتنا العسكرية المسلحة إلى وزارتي الخارجية والإعلام"[30]، وعندما لم تتلق الجبهة رداً من وزير الداخلية، بعثت برسالة أخرى إلى الرئيس المختار في العاشر من تشرين الأول–أكتوبر 1973، تضمنت الاحتجاجات السابقة وأضافت إليها طلباً عاجلاً من أعضاء اللجنة التنفيذية لمقابلته، آملين تفهمه لمشاكلهم بموضوعية[31].

ويبدو أن مساعي الصحراويين لدى الحكومة الموريتانية قد باءت بالفشل نتيجة الضغوطات التي كانت تتعرض لها موريتانيا من إسبانيا، ومع هذا فإن التعاطف الشعبي معهم قد وفر لهم فرصة التحرك بحرية في المناطق الموريتانية المحاذية للصحراء، وهو ما زاد الوضع خطورة في السنوات التالية.

فـــفي تقرير سري رفعه مدير الأمن الوطني الموريتاني محمد بن خليل إلى وزير الداخلية الموريتاني في الثالث والعشرين من كانون الثاني–يناير سنة 1975 عـــــن الحالة الأمنية في شمال البلاد ونشاط عناصر الجبهة، تأكيد أن جميع أبناء قبائل المنطقة يقدمون الدعم للمقاتلين الصحراويين، ولاسيما قبائل أرقيبات التي ينتمي إليها أغلب قادة الجبهة، حيث يمثلها في مقاطعة بئر أم قرين موسى بن البصير من مجموعة السواعد، وعبد الرحمن بن ميارة من مجموعة أهالات، وفي مقاطعة أزويرات يمثلها محمد بن زيو من السواعد وهو عضو قيادي في الجبهة[32].

ويعرض التقرير لمصادر تمويل نشاط الجبهة قائلاً:" إنها تشمل مساهمات التجار ورجال الأعمال الصحراويين، كما أن بعض وجهاء البدو يقدمون الجمال إلى قواعد الجبهة لتوفير اللحوم للمقاتلين، في حين تتبرع النسوة بحليهن "[33].

ويؤكد التقرير أنه على الرغم من الجهود المبذولة من طرف السلطات المحلية، فإن مناطق الشمال الموريتاني تكاد تكون خارج سلطة الدولة الموريتانية وأنها مسرح للصراع الصحراوي الأسباني، حيث لم تتمكن قوات الحدود الموريتانية التي تستخدم (12) سيارة عابرة للصحراء من شل حركة عناصر الجبهة[34].

ويكشف التقرير النقاب عن أن الجبهة قد عمدت إلى شق طريق بري عبر المناطق الوعرة بين مدينة أزويرات في الشمال الموريتاني ومنطقة تنيدوف في الصحراء الجزائرية يمر بمخيمات قبيلة العروسيين الواقعة على بعد (**70**) كيلومترا إلى الشرق من مدينة عين بنتيلي، والتي تعد أحد القواعد الرئيسة لبعض مقاتلي الجبهة الذين يستخدمون (**4**) سيارات من نوع لاندروفر **(Land-Rover)** بعضها مسجل في موريتانيا والآخر مسجل في الصحراء الغربية[35].

ويختم المسؤول الأمني الموريتاني تقريره بالقول : " إنني أأمل أن تتخذ السلطات المعنية التدابير اللازمة لوضع اليد على تلك المناطق، قبل أن تتحول الأمور فيها إلى وضع شبيه بما يجري في جنوب لبنان "[36]، وهكذا يتضح أن العوامل الأمنية كان لها شأنها الكبير في دفع موريتانيا إلى الحرب.

ومن جملة الأسباب السياسية للحرب طموح الرئيس المختار إلى توحيد المجموعة البيظانية[37] واستكمال الوحدة الوطنية، واستغلال التناقض الحاصل في مواقف مختلف الأطراف المعنية بقضية الصحراء الغربية، فهو يرى أن القبائل الموجودة على الحدود الشمالية الموريتانية، وتلك التي تقع على الحدود الشرقية بمحاذاة جمهورية مالي، هي جزء من المجموعة الموريتانية كانت القوى الاستعمارية قد فرضت عليها أن تعيش خارج بلدها، وأن مرحلة الاستقلال السياسي يجب أن تعيد الأرض إلى أصحابها، والقبائل إلى وطنها، ومن هذا المنطلق كان نداؤه الشهير الذي وجهه في الأول من تموز–يوليو سنة **1957**م غداة انتخابه ممثلاً إقليميا لمناطق الشمال الموريتاني، حيث مضارب القبائل التي توجد امتداداتها داخل الصحراء، حين قال : ". .. لقد كنا دائماً وسنظل نؤكد أن مشكلة الصحراء الغربية هي مشكلة موريتانية داخلية، طالما أن الأمر يتعلق بجزء لا يتجزأ من أرضنا وشعبنا "[38].

والواقع أن مساعي الرئيس المختار لتحقيق الوحدة الوطنية قد قطعت أشواطاً مهمة منذ استقلال البلاد، والقضاء على التعددية السياسية فيها، واحتواء أغلب القيادات المعارضة في السبعينيات، إلا أنها في المقابل، كانت تقتضي استكمال الوحدة الترابية على افتراض وجاهة الدعوى الموريتانية، غير أن التصميم المعلن في الخطاب السياسي الموريتاني بشأن الصحراء كان يخفي وراءه، في بعض الأحيان، نوعاً من التردد عكسته سياسة التحالفات الظرفية مع مختلف الأطراف، في محاولة لتأمين أكبر قدر من المكاسب بأقل قدر من الخسائر.

وفي الوقت الذي كانت فيه موريتانيا تدافع عن تمسكها بالسيادة على إقليم الصحراء، فإنها لم تستبعد تشجيع كيان سياسي يجمع شتات القبائل الصحراوية، على أن يرتبط بعلاقات خاصة مع الدولة الموريتانية من قبيل النظام الكونفدرالي، مشكلاً في الوقت ذاته، حاجزاً أمنياً يفصل الأراضي الموريتانية عن المملكة المغربية التي كانت لها مطامع في موريتانيا[39]، وهي خطوة كان من المتوقع أن تحظى بمباركة إسبانيا والجزائر لانسجامها مع مطامحهما الاقتصادية والإستراتيجية، ولتأثيرها السلبي على المغرب، إلا أن هذه الفكرة، قد اصطدمت في النهاية ببعض العوائق أهمها: رفض الصحراويين لاعتماد الوسائل السياسية وإصرارهم على مواصلة المقاومة ضد الإسبان، ورد الفعل الاسباني على هذه السياسة، والموقف المغربي الرافض لحل لا يكون أحد أطرافه الرئيسة، مستنداً في ذلك على قرارات الجامعة العربية والأمم المتحدة، وعلى الدعم الفرنسي والأمريكي لموقفه.

ويبدو أن الرئيس المختار قد وصل أخيراً إلى قناعة تامة بأن التنسيق مع المغرب في حل المشكلة الصحراوية يبقى أكثر وجاهة من غيره، فهو يضمن لموريتانيا حليفاً قوياً كان حتى سنة **1969** يشكّل أكبر تهديد خارجي لاستقلالها، ويفتح لها آفاق دخول الجامعة العربية، ويؤمن لها بعض المكاسب الاقتصادية، إلا أنه في مقابل ذلك يفرض عليها التنازل عن جزء من الصحراء الغربية لصالح المغرب، والتخلي عن دعمها للجبهة، وتحالفها القوي مع الجزائر، وهكذا بدأ

الطرفان في تنسيق مواقفهما في الأمم المتحدة، وفي مرافعات محكمة العدل الدولية التي لم يكن رأيها الاستشاري الصادر في السادس عشر من تشرين الأول–أكتوبر **1975**م قاطعاً، بل اتسم ببعض الغموض[40] فسره كل طرف بما يلائم أطروحاته بشأن النزاع.

وشكلت معاهدة مدريد التي كانت تتويجاً لذلك التنسيق، وللمباحثات السرية التي أعقبته، السبب المباشر للحرب، حيث وقعها في العاصمة الإسبانية الوزير الأول المغربي أحمد عصمان ووزير خارجية موريتانيا حمدي ولد مكناس وممثل عن الحكومة الإسبانية في الرابع عشر من تشرين االثاني–نوفمبر سنة **1975**، وأصبحت سارية المفعول بعد تصديقها من ولي عهد إسبانيا خوان كارلوس **(K. Karlos)** في الحادي والعشرين من الشهر ذاته ونصت المعاهدة، من بين أمور أخرى، على[41]:

–انسحاب إسبانيا من كامل الإقليم في أجل أقصاه يوم **28** شباط–فبراير سنة **1976**م.

–تعيين حاكم موريتاني في منطقة وادي الذهب، وآخر مغربي في الساقية الحمراء.

وتذكر بعض المصادر أن الاتفاقية قد تضمنت بنوداً سرية تتعلق بتفاقم ثروات الإقليم[42]، وهو ما عدّته الجزائر خيانة موريتانية لها، وتنكراً للعلاقات الطيبة التي كانت تربطهما، أما جبهة البوليساريو فقد عدّت المعاهدة بمثابة إعلان حرب وبدأت في تعبئة قواتها للدفاع عن الإقليم، بدعم مباشر من الجزائر.

3. مراحل الحرب على الجبهة الموريتانية :

تلاحقت الأحداث في الصحراء الغربية بعد الإعلان عن معاهدة مدريد في منتصف تشرين االثاني–نوفمبر سنة **1975**، وأصبحت نذر الحرب قائمة، غير أن موريتانيا ظلت مترددة أكثر من أي طرف آخر لاعتقادها أنه في الإمكان السيطرة على نصيبها من الصحراء دون أن تـــدخـــل في حـــرب مع جيـــش التحرير الشعبي الصحراوي[43] المدعوم من طرف الجزائر، ولأنها تدرك ضعف موقفها ومحدودية الوسائل الدفاعية لقواتها التي لم تتجاوز حينها ثلاثة آلاف مقاتل يعوزهم التسليح الجيد والتدريب.

غير أن الانسحاب الإسباني المبكر،وزحف الجيش الملكي المغربي[44]على عموم مدن الساقية الحمراء ومراكزها، قد ترك فراغاً سياسياً وأمنياً في المناطق الجنوبية من الصحراء التي نص الاتفاق على إعطائها لموريتانيا، مما أثار مخاوف المغرب الذي بدأ في الزحف جنوباً لسد هذا الفراغ، في حين فسرت موريتانيا تأخرها في احتلال هذه المناطق، في تصريح لمدير الأمن الوطني قال فيه : " لقد كنا نأمل، حتى آخر لحظة، أن لا تحصل المجابهة مع الصحراويين، لذلك كان تركيزنا على إسعاف المنكوبين في مركز الكويرة، غير أن الجبهة قد استغلت الفرصة لتقوية مواقعها وجلب الإمدادات الخارجية "[45].

ومع بداية كانون الأول–دجمبر سنة **1975** أصدرت القيادة الموريتانية أوامرها لقواتها لاحتلال مدن وادي الذهب ومراكزه، لتبدأ بذلك حرب الصحراء الغربية التي استمرت ثلاث سنوات متتالية، وعلى الرغم من أن هذه الحرب لم تأخذ دائماً الطابع الجبهوي المباشر، ولم تكن أغلب معاركها حاسمة بشكل يضمن تفوقاً مطلقاً لأحد الطرفين، إلا أن مرحلتها الأولى قد اتسمت بتفوق موريتاني مؤقت جسده سقوط المدن الصحراوية تباعاً في أيدي القوات الموريتانية، ثم ما لبثت قوات جبهة البوليساريو أن استعادت زمام المبادرة وتمكنت من تسجيل سلسلة من الاختراقات في عمق الأراضي الموريتانية، قبل أن تتدخل القوات الفرنسية والمغربية لحماية المرافق الاقتصادية، والمواقع السيادية الموريتانية التي أصبحت مهددة من جرّاء الهجمات الصحراوية المتكررة، وفيما يلي نجمل الحديث عن أهم مراحل الحرب على الجبهة الموريتانية :

أ. المرحلة الأولى :

وهي التي تبدأ من كانون الأول–دجمبر سنة **1975**م وتنتهي في شباط–فبراير سنة **1976** م، وقد تركزت العمليات العسكرية خلالها في الجزء الجنوبي من الصحراء الغربية، وتحديداً في مناطق وادي الذهب، وكانت القوات الموريتانية المهاجمة تحت أمرة المقدم فياه ولد معيوف، وهو من أبرز القادة العسكريين في موريتانيا في تلك المرحلة، وقد دارت أولى المعارك في الحادي عشر من كانون الأول–دجمبر سنة **1975**م واستهدفت السيطرة على مدينة الكويرة الحدودية، ذات الأهمية الإستراتيجية والاقتصادية لوقوعها على مشارف العاصمة الاقتصادية الموريتانية، وقربها من خط سكة الحديد التي تُنقل عبرها خامات الحديد إلى ميناء نواذيبو لتصديرها إلى الخارج، وقد استمرت هذه المعركة عدة أيام أعلن بعدها في العشرين من كانون الأول–دجمبر**1975** م أن القوات الموريتانية قد استولت على المدينة[46].

ولم يمض أكثر من يومين على سقوط الكويرة حتى أعلنت القيادة العسكرية الموريتانية أن قواتها في الصحراء قد دخلت مدينة تشله الواقعة في جنوب الإقليم وأرغمت المقاتلين الصحراويين على إخلائها نهائياً في **22** كانون الأول–دجمبر. وخلال الأسابيع الثلاثة التي تلت احتلال هذه المدينة، عمدت القوات الموريتانية إلى فرض حصار عسكري على مدينة العركوب الواقعة بمحاذاة المحيط الأطلسي إلى الجنوب من الداخلة، والتي دافعت عنها قوات جبهة البوليساريو دفاعاً مستميتاً، ولم تستطع الوحدات الموريتانية أن تدخلها إلا في **11** كانون الثاني–يناير سنة **1976**[47]م.

وفي هذه الأثناء كانت المعارك العنيفة تدور بين المقاتلين الصحراويين المرابطين في مدينة عين بنتيلي شمال شرقي الصحراء، والوحدات الموريتانية التي تحاصرها، وقد صدر بيان عسكري موريتاني في **20** كانون الثاني–يناير **1976**[48] يؤكد سقوطها، فيما سارعت الجبهة إلى نفي الخبر قائلة إن مقاتليها ما زالوا يسيطرون على المدينة، وأن الجيش الموريتاني لم يستطع اختراق دفاعاتهم الحصينة، إلا أن توالي وصول التعزيزات الموريتانية، وانسحاب بعض عناصر الجبهة لمشاغلة القوات المغربية على الجبهة الثانية، قد مكّن القوات الموريتانية من فرض سيطرتها على المدينة بعد ذلك بعدة أيام.

وكانت أكثر المعارك في الصحراء ضراوة، هي تلك التي جرت حول مدينة آوسرد الواقعة في وسط تيرس الغربية، والتي توجد بها أكبر قواعد جبهة البوليساريو في المنطقة، وقد هجرها أغلب سكانها مع بدء الاجتياح المغربي–الموريتاني للإقليم، ولم يبق فيها سوى ثلاثة آلاف شخص[49]، وهي محاطة بحصون منيعة أقامها الأسبان منذ بداية احتلالهم للمنطقة، وبسلسلة جبلية تحيط بها من كل الجهات، تقريباً، مما يعني بالقياسات العسكرية سهولة الدفاع عنها، وصعوبة اقتحامها، لاسيما في ظل تواضع الإسناد الجوي للقوات الموريتانية المهاجمة.

وبقدر ما كان الصحراويون حريصين على الاحتفاظ بهذه المدينة لأهميتها الإستراتيجية من جهة، ولأنها تمثل أهم وآخر معاقلهم في المنطقة، كانت القوات الموريتانية تراهن على احتلالها لوقوعها على الطريق الصحراوي الرابط بين مدن الشمال الموريتاني والمدن الصحراوية، ولتكمل بذلك حملتها العسكرية، وتقضي على الخطر الذي يمثله مقاتلو الجبهة، وعلى الرغم من أن موريتانيا قد تمكنت من احتلال المدينة في السادس من شباط–فبراير سنة **1976**م، إلا أن خسائرها البشرية والمادية كانت جسيمة[50].

وكانت موريتانيا قد تسلمت مدينة الداخلة، عاصمة الإقليم في **9** كانون الثاني–يناير **1976** من القوات الملكية المغربية، التي احتلتها قبل أكثر من شهر، لتكون بذلك المدينة الوحيدة في الصحراء التي تدخلها القوات الموريتانية دون قتال.

وبموازاة مع حملتها العسكرية اتخذت السلطات الموريتانية سلسلة من الإجـــــراءات الإدارية استهدفت تأكيد سلطتها على الإقليم الجديد الذي أصبح يعرف بولاية تيرس الغربية، ويضم ثلاث مقاطعات هي تشله وآوسرد وعين بنتيلي، في حين ألحقت الكويرة بولاية نواذيبو، كما تم تعيين حمود ولد عبد الودود واليا على الإقليم[51]، وتم الإبقاء على كل الموظفين الصحراويين الذين قبلوا التعاون مع الإدارة الجديدة، ومنحوا كل الامتيازات المادية والمعنوية التي كانوا يتمتعون بها في ظل الإدارة الإسبانية[52].

وبذلك انتهت المرحلة الأولى من الحرب، بإعلان الرئيس المختار أن مسألة الوحدة الوطنية قد حسمت بشكل نهائي[53]، وتأكيد وزير السيادة الوطنية أحمد بن محمد صالح في الثالث والعشرين من شباط–فبراير **1976**م أن القوات الموريتانية تسيطر الآن على عموم منطقة وادي الذهب[54]، ودعوته الصحافة الدولية لزيارة المنطقة للإطلاع على الجهود المبذولة لإغاثة السكان المنكوبين، وإعادة إعمار المنطقة بعد الدمار الذي أصابها من جرّاء الحرب، وذلك في منتصف آذار–مارس سنة [55] **1976**م، غير أن موجة التفاؤل التي طبعت تصريحات كبار المسؤولين الموريتانيين لم تدم طويلاً، ولاسيما بعد إقدام جبهة البوليساريو على نقل الحرب إلى العمق الموريتاني.

ب. المرحلة الثانية :

بعد استيلاء الجيشين الموريتاني والمغربي على الصحراء الغربية أدركت القيادة الصحراوية أن فتح جبهتين في آن واحد نوع من الانتحار العسكري، فوضعت إستراتيجية عسكرية جديدة تقوم على مبدأ التركيز على الحلقة الضعيفة في التحالف في محاولة لكسرها، وإرغامها في النهاية على الخروج من الحرب، وكانت خطة " موريتانيا أولاً " ترتكز على أكثر من مسوغ، فموريتانيا دولة صحراوية مكشوفة لها أكثر من (**4000**) كيلومتر حدودي، وأغلب قواتها متمركز في المدن الصحراوية، ووسائل اتصالاتها ضعيفة، هذا فضلاً عن وجود تعاطف كبير مع الصحراويين في بعض الأوساط الاجتماعية الموريتانية ولاسيما في قبائل الشمال، وكذا تطابق المواصفات الشكلية بين الموريتانيين والصحراويين لدرجة يستحيل معها التفريق بين هذا الطرف أو ذاك، وكلها عوامل تسهل عمليات الاختراق والتسلل داخل العمق الموريتاني، وهو ما أخذته القيادة الصحراوية في الحسبان تأخر تنفيذ الخطة العسكرية الصحراوية الجديدة لإتاحة الفرصة لوساطة مالية عهدت بها جبهة البوليساريو إلى الرئيس موسى تراوري **(Moussa Traoure)** (**1968–1991**)[56]. في منتصف شباط–فبراير سنة **1976**، بهدف إقناع الرئيس المختار بالخروج سلمياً من الحرب، والتزام الحياد.

ولم ينس الأمين العام للجبهة الولي مصطفى السيد (**1973–1976**)[57] " تذكير الرئيس الموريتاني بأن بلاده ليست في مأمن من الأطماع المغربية أبداً، وأن المغرب يحاول أن ينفرد بجيرانه كل على حدة بهدف إحياء مشروع إمبراطوريته القديمة "[58].

غير أن الرئيس المختار قد تجاهل عرض الزعيم الصحراوي، ليس لأنه لا يدرك المخاطر التي تضمنتها الرسالة، أو لا يأمن الوعود الصحراوية، ولكن لأن الأمور كانت قد وصلت نقطة اللاعودة، ولم يعد هناك من حل سوى مواصلة الحرب، لاسيما وأن الانتصارات الأولى للقوات الموريتانية كانت مثار إعجاب بعض الأوساط الشعبية والرسمية التي لم تكن تدرك – حينها – حجم المخاطر التي تنتظر البلاد من جرّاء هذه الحرب.

وفي هذه الأثناء كانت البوليساريو قد أكملت تنظيم وحداتها وأعادت تأهيل آلياتها العسكرية، وحصلت على الكثير من المعدات القتالية من الجزائر وبعض الدول الأخرى[59]، من ما مكّنها من دخول المرحلة الجديدة من الحرب بتصميم قوي، ومعنويات عالية، وقد قام الرئيس الولي مصطفى السيد الذي تولى القيادة الميدانية في هذه المرحلة بتقسيم

قواته إلى ثلاث مجموعات، تقوم أولاها بالهجوم على المواقع الموريتانية، وتدخل الثانية معسكرات التدريب المكثف، في حين تركن الثالثة إلى الراحة[60]، وذلك بشكل دوري، لضمان تحقيق أكبر قدر من الكفاءة القتالية، ومما عزز موقف الصحراويين أن قواعد ارتكازهم الخلفية كانت بعيدة عن مسرح العمليات، نظراً لوجودها في منطقة تيندوف الواقعة تحت السيادة الجزائرية، مما يعني أن كل جهودهم، في هذه المرحلة، قد انصبت على العمليات الهجومية.

ومنذ أواخر آذار–مارس **1976**م دخلت الحرب مرحلتها الثانية التي دارت أغلب معاركها داخل الأراضي الموريتانية، حيث هاجم الصحراويون خلال شهري نيسان–ابريل ومايو–أيار–مايو أهم مند الشمال الموريتاني القريبة من الحدود الجزائرية، وفي كل مرة كانوا يدخلون إحدى هذه المدن في غفلة من سكانها، ويهاجمون الحامية العسكرية، ومكاتب الإدارات الرسمية، ثم ينسحبون مستصحبين معهم بعض الرجال من المدن المهاجمة لاستخدامهم كأدلاء، وفي أكثر الحالات لم يكن المدد الموريتاني قادراً على الوصول إلا بعد عدة ساعات، بل أيام من وقوع الهجوم نظراً لأتساع رقعة البلاد، وضعف وسائل الاتصال العسكري.

ومن أمثلة العمليات العسكرية الصحراوية الناجحة، تلك التي جرت في بئر أم قرين بتيرس الزمور في **27** آذار–مارس **1976**، والهجوم الذي أستهدف مقاطعة وادان في ولاية آدرار في **25** نيسان–ابريل، والعمليات التي دارت في مدينة شنقيط التاريخية في المدة من **9** إلى

13أيار–مايو **1976**م[61]، وفي كل هذه العمليات اعتمد الصحراويون على عدد محدود من وحداتهم سريعة الحركة، في محاولة لتنفيذ أكبر عدد من الاختراقات العسكرية داخل العمق الموريتاني، والانسحاب في حال حصول هجوم مضاد، وكانت البوليساريو، تستهدف، أساساً، تحديد مواقع تجمع القوات الموريتانية، واستكشاف الطرق السالكة إلى بقية المناطق الموريتانية، ولاسيما العاصمة انواكشوط التي أصبحت هدفاً رئيساً لعملياتهم منذ منتصف تلك السنة

ومع مطلع حزيران–يونيو كان الصحراويون قد أكملوا عمليات الاستطلاع وبدأوا في التخطيط لهجوم شامل على الأراضي الموريتانية، وفي الخامس من الشهر ذاته انطلقت قوة عسكرية صحراوية من تيندوف قوامها (**800**) مقاتل تحملها أكثر من مائة من سيارات اللآندروفر والعربات العسكرية، مدججة بالأسلحة[62]، ومعززة بوسائل اتصالات متطورة، بقياس ظروفها، يقودها الرئيس الصحراوي بنفسه، ورغم أن أنباء الحملة قد وصلت إلى موريتانيا عن طريق الاستخبارات العسكرية الفرنسية[63]، إلا أن القادة العسكريين في موريتانيا لم يكونوا على علم بطبيعة العناصر القيادية لهذا الهجوم، ولا بوجهته النهائية، ولهذا ارتأوا ترك وحدات البوليساريو تتوغل في العمق الموريتاني لتسهيل عملية محاصرتها وقطع الإمداد عنها.

بدأت إحدى الوحدات الصحراوية هجومها في **5** حزيران–يونيو**1976**م مستهدفة مدينة ازويرات عاصمة تيرس الزمور، والتي توجد بها أكبر مناجم الحديد في موريتانيا ثم توغلت إلى الجنوب حيث خاضت معركة قاسية مع القوات الموريتانية في منطقة تورين القريبة من مناجم النحاس، خسرت خلالها العشرات من مقاتليها، حيث سقط بعضهم في الميدان، وأسر بعضهم الآخر، كما تركت وراءها بعض الأسلحة والمعدات العسكرية[64].

وفي هذه الأثناء كان الرئيس الولي يقود هجوماً آخر على مدينة أطار عاصمة ولاية آدرار، ومدينة تشيت التاريخية في محاولة للسيطرة على هذه المناطق الإستراتيجية لإرباك القوات الموريتانية، وتوسيع الجبهة للتأثير في معنويات الخصم، ولتأمين خطوط الإمداد في حالة التوغل، وخطوط الانسحاب في حالة التراجع، وبعد عدة اشتباكات مسلحة، وتدخل الطيران الموريتاني انزاحت الوحدات الصحراوية نحو الجنوب، وخاضت سلسلة معارك ضارية على الطريق الرابط

بين مدينتي اكجوجت ونواكشوط، وذلك في السابع من حزيران–يونيو واستطاعت ثلاث سيارات تابعة للبوليساريو أن تتسلل عبر الدفاعات الموريتانية وتدخل أطراف العاصمة مطلقة عدة صواريخ من نوع سام 6 (Sam 6)، وسام 7 (Sam 7) على مباني القصر الرئاسي الموريتاني، وعلى السفارتين الأمريكية والسوفيتية[65]، مما أثار الرعب في صفوف سكان العاصمة، وهز الثقة في الأداء العسكري للجيش الموريتاني.

غير أن أكثر المعارك، في هذه المرحلة، حسما تلك التي جرت في منطقتي أم التونسي وبنشاب إلى الشمال من انواكشوط، حين حاول الرئيس الصحراوي في 9 حزيران–يونيو ضرب حصار على العاصمة، واقتحامها بما بقي معه من مقاتلين، فردت الطائرات الموريتانية بهجوم مضاد استهدف الوحدات الصحراوية التي كانت تتقدم على جبهات مكشوفة، أما على الأرض فقد سارعت القوات البرية التي يقودها المقدم أحمد ولد بوسيف[66]، وتلك التي يقودها المقدم محمد خونه ولد هيداله[67] بالتحرك من قواعدها في الشمال نحو العاصمة لتداركها قبل أن تسقط في أيدي الصحراويين، كما استقدمت القيادة العسكرية الموريتانية، على وجه السرعة وحدات إضافية من قاعدة أوزيرات وقاعدة آوسرد وقد أسفرت هذه المعارك عن سقوط المئات من قوات الطرفين[68].

وعندما أدرك الرئيس الصحراوي أن قواته أصبحت شبه محاصرة، وأن التعزيزات الموريتانية تصل باستمرار، أعطى أوامره لقواته بالانسحاب إلى قواعدها الواقعة على بعد (1000) كيلومترا بينما قام بصحبة تسعة من خيرة مقاتليه بهجوم وهمي لمشاغلة القوات الموريتانية والتغطية على انسحاب وحداته، لكن خطته انكشفت، ووقع في كمين مع جميع عناصر مجموعته حيث قتل هو ومساعده الأول القائد لعبيد ولد العروسي في التاسع من حزيران–يونيو 1976[69].

وفيما أعلن وزير السيادة الوطنية الموريتانية، المكلف بوزارة الدفاع نبأ مقتل الزعيم الصحراوي، عاداً ذلك نصراً عسكرياً وسياسياً لموريتانيا، حرص على تأكيد أن الهجوم كان من تدبير الجزائر، استناداً إلى طبيعة الخطة والتسليح، بل إنه ذهب إلى أبعد من ذلك حين قال : " إن من ضمن الأسرى الذين وقعوا في أيدي القوات الموريتانية جنوداً جزائريين نظاميين"[70]، وفي معرض الحديث عن أهداف الهجوم قال الوزير الموريتاني " إنه يستهدف السيطرة على العاصمة والإطاحة بنظام الحكم الموريتاني، وتنصيب حكومة جديدة موالية للجزائر"[71].

وفي باريس صرح السفير الموريتاني أحمد بن اغناه الله: " أن مقاتلي البوليساريو أصبحوا مطاردين في الصحراء، وسيتم القضاء عليهم، ومن ثم فإن الوساطات الإفريقية لم يعد لها ما يسوغها "[72]، وكان يشير بذلك إلى المبادرات المالية والليبية لحل النزاع[73]، أما في الجزائر فقد نفى حبيب الله عضو لجنة العلاقات الخارجية مقتل الرئيس الصحراوي قائلاً: " إنه ما زال يقود المعارك في العمق الموريتاني"[74]، إلا أن بياناً لاحقاً لجبهة البوليساريو أكد " استشهاد الرئيس الولي وهو يخوض معركة الشرف ضد نظام العمالة والرجعية في موريتانيا"[75].على حد وصف البيان ومن ما لاشك فيه أن هذا الهجوم يشكّل منعطفاً حاسماً في الحرب فلأول مرة تصل طلائع المقاتلين الصحراويين إلى العاصمة الموريتانية، على الرغم من أن هجومها لم يكن موجهاً توجيهاً دقيقاً بدليل تعرض السفارة السوفيتية للصواريخ، مما يعني أن القصف كان عشوائياً، كما أنها المرة الأولى التي يتعرض فيها مثل هذا العدد من المدن الموريتانية لهجوم شامل، وبهذا الحجم من العدد والعتاد، ولقد تزامن الهجوم، كذلك، مع انعقاد قمة منظمة الوحدة الإفريقية في جزيرة موريس[76]، من ما أعطاه بعداً سياسياً ودعائياً آخر، إلا أن طبيعة الخسائر البشرية الصحراوية ولا أقول عددها كانت من أهم مميزات الهجوم، ذلك أن مقتل الرئيس الولي، وإن بدا نصراً معنوياً للجيش الموريتاني، إلا انه في المحصلة النهائية كان خسارة كبيرة للشعبين الموريتاني والصحراوي، لما يتصف به هذا الرجل من روح وطنية عالية، وكفاءة قتالية، وحنكة سياسية كان فيها بدعاً من

أغلب قومه، والأهم من كل ما سبق أن الرئيس الولي كان أقرب القيادات الصحراوية إلى الوفاق مع موريتانيا، وأكثرهم حماساً إلى إخراجها من موقع الخصم إلى موقع الحليف، وهذا ما تؤكده التقارير الأمنية السرية الموريتانية في السنوات التي سبقت الحرب[77]، والمبادرات التي قيم بها في أثنائها[78].

ويبدو من سياق الأحداث اللاحقة أن الصحراويين لم يستسلموا لهول الصدمة، وأنهم قد عقدوا العزم للثأر لقائدهم بعـــملية انتقامية أطلقوا عليها اسم " هجوم الشهيد الولي مصطفى السيد "، الذي استمر عدة أشهر متتالية، ولم يقتصر على مناطق تجمع القوات الموريتانية، ولا على بقية الأهداف العسكرية الأخرى، وإنما أخذ منذ البداية طابع الحرب الشاملة، لغرض تحقيق أهداف محددة أهمها :

● احتلال المدن التاريخية الموريتانية التي يقع أغلبها في الشمال والوسط (شنقيط، وادان، تيشيت. ..)، وعلى الرغم من أن أغلب سكانها كان قد هجرها لأسباب اقتصادية أو أمنية، ولم يبق فيها غير محدود من الأسر، وبعض الموظفين الإداريين، إلا أن مكانتها التاريخية لدى الموريتانيين، ستجعل الصحراويين، في حال احتلالها، في موقع المنتصر معنوياً، في مقابل الآثار النفسية التي ستترتب على ذلك في الأوساط الموريتانية، التي لم يعد أغلبها متحمساً للحرب، كما هو الحال في الأشهر الأولى.

● وفي محاولة للتأثير في معنويات الجيش الموريتاني، والضغط على قيادته السياسية عمد الصحراويون إلى مهاجمة مناطق متباعدة داخل الأراضي الموريتانية ووادي الذهب خلال مدد متقاربة، إذ بدأوا من مدينة الداخلة في الصحراء، مروراً بأغلب مدن الشمال، وصولاً إلى انواكشوط بالغرب، وتجكجة بالوسط، وانتهاء بتامشكط في الجنوب الشرقي، وباسكنو في أقصى الشرق الموريتاني[79]، من ما يعطيها انطباعا أولياً أن الأمر يتصل بجيش كبير جداً يغطي هذه الجبهات التي تتجاوز أربعة آلاف كيلومتر، إلا أن الأمر، في حقيقته هو خلاف ذلك، فالقيادة الصحراوية، قد استفادت من تجربتها السابقة في الهجوم على انواكشوط، ولم تعد مستعدة لتكرار ذلك الخطأ العسكري المتمثل بتسيير حملات كبيرة لا تستطيع تأمين خطوط الإمداد لها، وبدلاً من ذلك بدأت في إرسال مجموعات محدودة من الغرب عبر الصحراء، ومن الشمال الشرقي عبر الحدود الجزائرية، ومن الشرق والجنوب الشرقي عبر الحدود المالية، محققة بذلك تفوقاً نوعياً على القوات الموريتانية، ومكاسب دعائية في الأوساط الدولية.

● أما الهدف الثالث لهذا الهجوم فكان يتلخص في شل الحركة الاقتصادية في موريتانيا، من خلال تركيز العمليات العسكرية على المناطق المنجمية في ازويرات واكجوجت[80]، وتدمير سكة القطار الذي ينقل الخامات إلى ميناء التصدير في نواذيبو، وتهديد المهندسين الأجانب، ولاسيما الفرنسيين العاملين في موريتانيا، الذين أصبحوا بحكم تعاملهم مع الحكومة الموريتانية، هدفاً أساسياً للمقاتلين الصحراويين، والحقيقة أن هذه العمليات العسكرية قد ألحقت ضرراً كبيراً بالاقتصاد الموريتاني، كما سنرى في مبحث لاحق، كما أنها أضرت بالمصالح الإستراتيجية والاقتصادية لكل من فرنسا والمغرب وهما من أقوى حلفاء موريتانيا، ولقد كان من نتائج ذلك أن أصبحتا أكثر استعدادا للتدخل المباشر في موريتانيا مما أدخل الصراع في منعطف خطير وحاسم كانت له آثار سلبية في موريتانيا وعموم المنطقة.

ج. المرحلة الثالثة :

وهي آخر مراحل الحرب، وتغطي سنة **1977** والنصف الأول من سنة **1978**، وقد شهدت سلسلة معارك ضارية بين القوات الموريتانية، التي أصبحت في موقع الدفاع عن المرافق الاقتصادية والسيادية، وقوات جبهة البوليساريو التي بدأت في تشديد الخناق على هذه المرافق والمواقع، مستغلة جوانب الضعف في الأداء العسكري الموريتاني، ونقص

التسليح والتدريب، وتواضع وسائل اتصالاته، وتذمر القوات الموريتانية من جرّاء تأخر الرواتب والأرزاق. وكان من أشهر هجومات الصحراويين في هذه المرحلة، ذلك الذي استهدف المنشآت الصناعية في أوزيرات في الأول من أيار–مايو 1977م، واشتركت فيه أكثر من(150) من ناقلات الجنود والعربات العسكرية المزودة بمدافع الهاون، وقاذفات الصواريخ، ومدافع الميدان، وأسفر عن خسائر كبيرة في الأرواح، وأخرى جسيمة في المنشآت المستهدفة[81].

وفي الثالث من تموز–يوليو سنة 1977م، نفذ مقاتلو البوليساريو هجوماً جريئاً على العاصمة نواكشوط، بواسطة وحدات كماندوز استطاعت التسلل إلى ضواحي المدينة وتوجيه مدافعها إلى مباني القصر الرئاسي وحي السفارات، وقد أعلنت الجبهة أن العملية كانت انتقاما للشهيد الولي في الذكرى الأولى لوفاته[82]، كما أنها جاءت متزامنة مع اجتماعات القادة الأفارقة في لبريفيل، من ما يعطيها مغزى سياسياً مضافاً إلى دوافعها العسكرية.

والواقع أن ما يميز هذه المرحلة من الحرب عن سابقاتها هو اشتراك الجيشين الفرنسي والمغربي إلى جانب القوات الموريتانية في المعارك الدائرة في الشمال الموريتاني، ومع أن فرنسا لم تكن في منأى عن الحرب منذ البداية نظراً لمصالحها الكبيرة في المنطقة، وكانت قد أعربت عن استعدادها للتجاوب مع المطالب التي قدمها الرئيس المختار أثناء زيارته لباريس في مطلع سنة 1976، إلا أن تدخلها في بداية الحرب قد اقتصر على تقديم بعض الأسلحة والمعدات الخفيفة، وإعارة بعض طائرات الهيلكوبتر (Hélicoptère) الاستطلاعية، وإرسال بعض المستشارين العسكريين، الذين ارتفع عددهم في المرحلتين الأولى والثانية من الحرب من (295) إلى (325) مستشارا[83].

ويعود تباطؤ فرنسا في التدخل المباشر في الحرب، على الرغم من إلحاح القيادة الموريتانية، إلى جملة اعتبارات، أولها عدم الرغبة في إثارة غضب الجزائر المؤيدة للصحراويين، والتي هي حليف استراتيجي وشريك تجاري لفرنسا، وثانيها الخوف من انجازفة بالجنود الفرنسيين في حرب تدور معاركها في عمق الصحراء. وفي ظروف بالغة القسوة، وثالث هذه الاعتبارات عدم تحمس وزير الدفاع الفرنسي حينها بورجي (M. Bourges) لهذه الفكرة، وهو الذي كان قد أرغم على توقيع اتفاقية جلاء القوات الفرنسية من موريتانيا في مطلع السبعينيات من القرن العشرين، أيام كان مكلفاً بالشؤون الخارجية في حكومة الرئيس جورج بومبيدو، مما ولد لديه شعوراً بعدم الرضا عن القيادة الموريتانية، التي أصبحت الفرصة سانحة للنكاية بها، بل وبالشماتة بجيشها الذي أضحى في حالة الدفاع عن النفس.

ويبدو أن العمليات العسكرية المتكررة التي نفذتها وحدات البوليساريو في الأول من أيار–مايو 1977، وفي السادس والعشرين من تشرين الأول–أكتوبر من العام ذاته، والتي استهدفت المهندسين الفرنسيين العاملين في مناجم الحديد، وأسفرت عن مقتل أثنين منهم وأسر ثمانية آخرين[84]، كانت السبب المباشر في تغيير الإستراتيجية العسكرية الفرنسية، فبادرت إلى إرسال (600) خبير عسكري إضافي، ووحدة مظليين بكامل معداتها للتمركز حول مناجم الحديد، وأصدرت القيادة العسكرية الفرنسية العليا أمراً كلف بموجبه الجنرال فورجـــي (M. Forget) مدير الديوان العسكري الأقدم لوزير الدفاع بقيادة وتنسيق العمليات العسكرية في موريتانيا، واضعة تحت تصرفه قوة جوية قدرها (1400) رجل، وثلاثة أسراب من طائرات الجواكوار (Jaguar) التابعة لسلاح الجو، وطائرات أبريجي (Breget) التابعة لسلاح البحرية، وطائرات الميراج (Mirage) الهجومية[85]، وكانت كلها تنطلق من قواعد خارج الأراضي الموريتانية، بعضها في داكار والرأس الأخضر وبعضها الآخر في مدينة بوردو الفرنسية، على أن يقتصر مسرح عملياتها على الأراضي الموريتانية الواقعة ضمن حدود 1960، في محاولة للظهور بمظهر المدافع عن مستعمراتها السابقة، ولأن أغلب هجمات البوليساريو خلال هذه المرحلة، قد تركز في هذه المناطق.

وعلى الرغم من الهالة الإعلامية التي أحاطت بالحملة الفرنسية، وما أسفرت عنه من تفوق مرحلي للجانب الموريتاني، جسدته الطلعات الجوية المتكررة فوق الأراضي الموريتانية، والغارات المكثفة التي شنتها طائرات الجاكوار على الوحدات الصحراوية شمال مدينة أطار في العاشر من تشرين االثاني–نوفمبر **1977**، والهجمات العنيفة التي استهدفت تجمعات اللاجئين الصحراويين ومقاتلي البوليساريو في مناطق متعددة إلى الغرب من تنيدوف على الحدود الجزائرية في الثامن عشر من كانون الأول–دجمبر **1977**، واشتركت فيها أكثر من (**28**) من طائرات الجاكوار والبريجي، متجـــاوزة الـــنطاقات المعـــلنة فـــي الخـــطة الفرنسية، ومخلفة مئات القتلى وآلاف المشردين[86]، إلا أن التأثير الفعلي للحملة كان ضعيفاً، بالقياس إلى حجمها، ذلك أنها لم تستطع شل حركة الوحدات الصحراوية التي كانت بارعة في أساليب التمويه، واعتمدت في استراتيجيتها المرحلية على مبدأ إعادة تمركز وانتشار قواتها من منطقة لأخرى بشكل سريع ودائم، كما أن هذه الحملة لم تتمكن، أو لنقل لم تشأ حسم الصراع لصالح موريتانيا مما دفع الرئيس المختار إلى طلب التدخل العسكري المغربي.

وفي الثالث من أيار– مايو **1977** وقعت موريتانيا والمغرب في الرباط معاهدة دفاع مشترك، تأسس بموجبها مجلس أعلى للدفاع، تولى رئاسته، بشكل دوري كل من الملك الحسن الثاني والرئيس المختار، وقد ضم المجلس في عضويته كلاً من وزراء الدفاع والداخلية وكبار قادة صنوف الجيشين، وتلخصت مهمات المجلس في تنسيق العمليات العسكرية المشتركة لجيوش الدولتين، ووضع الخطط المناسبة للتصدي لهجمات المقاتلين الصحراويين في الجنوب المغربي، ومناطق الشمال الموريتاني[87].

وتطبيقاً لنصوص المعاهدة وصلت وحدات من الجيش الملكي قوامها (**8000**) رجل، على دفعات خلال الأشهر الأخيرة من سنة **1977**، والأشهر الأولى من السنة اللاحقة. وبدأت عملية انتشار على طول سكة الحديد التي تربط مناجم الحديد في أوزيرات بميناء التصدير في نواذيبو، كما تمركز بعضها قرب مدن أكجوجت وأطار لحمايتها من عناصر البوليساريو وقطع الطريق التي كانوا يسلكونها في هجماتهم على العاصمة نواكشوط، كما اشترك سلاح الجو الملكي إلى جانب القوات الموريتانية في المعارك التي دارت في الخامس من كانون الثاني–يناير **1978** إلى الشمال من أطار لصد الغارات الصحراوية عن هذه المدينة[88]، وأسهمت الوحدات المتمركزة على طول سكة الحديد في تأمين بعض رحلات القطار الحديدي، وإن لم تتمكن من حمايته بشكل دائم[89].

والحقيقة أن هذا التحالف فضلاً عن مزاياه الاقتصادية[90]، قد مكّن الحكومة الموريتانية من الحفاظ مؤقتاً على كيانها المتصدع، وتوجيه رسالة واضحة إلى فرنسا مفادها أنها ليست الخيار الوحيد أمام موريتانيا في سعيها للدفاع عن وحدتها الوطنية، كما أن طبيعة الوجود العسكري المغربي في موريتانيا، والمرتكز أساساً على القوات البرية يبدو أكثر فاعلية في التصدي للاختراقات الصحراوية التي تعتمد أساليب المباغتة والتسلل، من نظيره الفرنسي المعتمد على عنصر التفوق الجوي، غير أن ذلك لا يعني، بأي حال من الأحوال، أن التحالف المغربي – الموريتاني قد كسب الحرب، ولا أن الصحراويين قد خسروها، على الرغم من عدم تكافؤ الأطراف، بل إن غياب التنسيق بين الوحدات المغربية والموريتانية، وعدم رضا القادة العسكريين الموريتانيين عن الأداء العسكري لنظرائهم المغاربة، والتشكيك في جديتهم وكفاءتهم، قد حدّ من فاعلية الجيشين، مما أنعكس سلباً على الأوضاع الأمنية في عموم موريتانيا التي أصبحت تعيش حالة من عدم الاستقرار، في حين بدأ الشعب يفقد الثقة في جيشه المتداعي، ويضيق ذرعاً بالجيوش الأخرى، الجاثمة على أرضه، والعاجزة عن تحقيق الأهداف التي استقدمت من أجلها.

ثانياً. الآثار العامة للحرب في موريتانيا :

قد يكون من نافل القول الحديث عن الآثار السلبية لأي حرب مهما كانت درجة الإعداد لها، وقوة أو ضعف أطرافها، ويزداد الأمر سوءاً حينما يتعلق بدولة ناشئة تعاني من أزمات اقتصادية قاسية، ونقص حاد في الكفاءات البشرية، وموجات جفاف متكررة، كما هو الحال في موريتانيا التي أكد وزيرها للاقتصاد الوطني سيد ولد الشيخ عبد الله في بداية الحرب ذلك قائلاً: " إذا كانت هناك دولة في العالم ليست على استعداد لخوض حرب فإنها موريتانيا، ذلك أن جهودنا منذ الاستقلال كانت منصبة على المشاريع التنموية، ولم يكن التسليح يهمنا إلا بدرجة ثانوية "[91].

وعلى الرغم من ذلك فان المكتب السياسي لحزب الشعب قد بادر منذ الأيام الأولى لبدء العمليات العسكرية في الصحراء إلى حملة وطنية شاملة استهدفت تعبئة الشعب الموريتاني مادياً ومعنوياً للإسهام في الدفاع عن حوزته الترابية، وبدء عمليات الاكتتاب في الجيش الوطني، وفتح حملة للتبرعات لتمويل المجهود الحربي، وإغاثة سكان المناطق المتضررة في الصحراء الغربية[92]، غير أن آثار الحرب كانت أعمق بكثير من ما تصوره القادة السياسيون في موريتانيا، وقد طالت مختلف جوانب الحياة الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والعسكرية، وكادت تعصف بكل معالم الدولة بعد أن عصفت برموزها القيادية، وفيما يأتي نجمل الحديث عن آثار هذه الحرب.

1. الآثار الاقتصادية والاجتماعية:

لم يمض وقت طويل على دخول موريتانيا الحرب حتى كانت آثارها واضحة في الاقتصاد الوطني المعروف بهشاشته، وضعف موارده، وقد تزامن ذلك مع موجة جفاف عمت جميع دول الساحل الإفريقي، كان من مظاهرها في موريتانيا تناقص الثروة الحيوانية، التي فقدت أكثر من ثلاثة أرباعها بفعل تراجع معدلات التساقط المطري[93] وانتشار الأمراض[94].

وأخذت أسعار المواشي في التدهور مما أفقد أكثر من ثلثي السكان أهم مورد اقتصادي يعتمدون عليه، كما تراجع إنتاج البلاد من مادة اللحوم بشكل لم يسبق له مثيل، فبلغ (400) طن سنة 1977، مقابل (1547) طن سنة 1973[95].

وتأثرت المشاريع الزراعية في البلاد من جراء الحرب، حيث كان مقرراً أن يتم استصلاح مساحات زراعية في امبوري[96] قدرها (2500) هكتار، ولم ينجز منها سوى (276) هكتاراً، وجرى تقليص المساحة الزراعية ضمن مشروع غورغول من (16000) هكتار إلى (1500) هكتار، ونتيجة لذلك تراجع إنتاج الحبوب في المناطق المحاذية للنهر من (50000) طن سنة 1968 إلى (22000) طن سنة 1977[97]. وهكذا ارتفعت أسعار الحبوب بشكل غير مسبوق من (أربع) أواق للكيلو غرام الواحد سنة 1976 إلى (30) أوقية للكيلو غرام الواحد في انواكشوط، و(35) أوقية في مدينة أطار بالشمال الموريتاني سنة 1977[98]، وانعكس ذلك سلباً على الوضع المعيشي للسكان في العديد من المناطق، ولاسيما الشمال والوسط.

وطالت تأثيرات الحرب صادرات المعادن، ومنها الحديد، الذي هو عصب القطاع الحديث في الاقتصاد الموريتاني، فقد تراجع معدل تصديره من (11.6) مليون طن سنة 1974 إلى (8.4) مليون طن سنة 1977[99]، نتيجة الأضرار التي لحقت بالمنشآت المعدنية في ازويرات من جراء الهجمات المتكررة التي نفذها الصحراويون خلال سنوات الحرب الثلاث، وما أسفرت عنه من توقف مستمر للقطار الذي ينقل خامات الحديد من مواقع الاستخراج إلى ميناء

التصدير على الساحل الأطلسي، وتزامن ذلك مع تدني أسعار الحديد في الأسواق العالمية مما الحق أضراراً بالغة بالاقتصاد الوطني.

وبعد أن ألحقت تيرس الغربية بموريتانيا مع مطلع عام 1976 تم افتتاح فرع للمصرف الوطني الموريتاني (BNM) في الداخلة، كان من مهماته منح بطاقات تصدير وإيـــراد لبعـــض العـــائلات والشخصـــيات المتنفذة، وتمكن هذه البطاقة حاملها من استبدال ما يعادل (198000) أوقية شهرياً، بالعملات الأجنبية، مما يكلف المصرف الموريتاني خسارة قدرها (12%) عن كل بطاقة، وقد جاء في تقرير سري بعنوان " استعلامات اقتصادية " أعدته إدارة الأمن الوطني الموريتاني بعد الحرب أن عدد هذه البطاقات قد تجاوز (188) بطاقة في مدينة الداخلة وحدها[100]، وأن العديد من الأسر في هذه المدينة كانت لديها أكثر من بطاقة واحدة[101]، وقدر التقرير خسارة الخزينة الموريتانية من جراء هذه العملية بقرابة (33) مليون أوقية خلال سنة 1978 وحدها، عاداً ذلك بمثابة محرقة للاقتصاد الوطني، لا تهدف إلى مساعدة الفقراء وضحايا الحرب، وإنما إلى شراء الذمم كما جاء في التقرير[102].

وقد أضيفت رواتب عمال ولاية تيرس الغربية إلى أعباء الميزانية الموريتانية، وبلغت (4166910) أواق خلال سنة 1976 وحدها[103] ولا يشمل هذا المبلغ رواتب الجنود التابعين للوحدات العسكرية المرابطة في مدن الصحراء، ولا الموظفين المعارين من الوزارات الموريتانية المختلفة، والذين يمارسون أنشطة مؤقتة في هذه المدن.

وقد تضاعف الإنفاق العسكري ولم تعد القطاعات الإنتاجية في الدولة تحظي بعناية تذكر، وإنما أصبحت أغلب التمويلات تخصص للمجهود الحربي الذي كلف (1200) مليون أوقية سنة 1975، وازداد سنة 1976 ليصل قرابة (1800) مليون أوقية، أي ما يعادل (30%) من الميزانية[104]، ومع اشتداد الضغط العسكري الصحراوي، وتركزه قرب المراكز الحضرية والمرافق الاقتصادية خلال سنة 1977 تضاعف الإنفاق العسكري فأصبح يمثل (60%) من ميزانية الدولة[105]، ولا تـــدخل ضـــمـــن هـــــذه الأرقام أثمان الأسلحة والمعدات العسكرية فبعضها معار من فرنسا بموجب معاهدة التحالف المبرمة سنة 1976، وأغلبها يتم سداده بقروض ميسرة تقدمها المملكة العربية السعودية والكويت والإمارات العربية المتحدة، حيث تكفلت الرياض سنوياً بتقديم (60) مليون دولار إلى موريتانيا نصفها على شكل هبة والنصف الأخر على شكل قرض طويل الأجل[106]، أما الكويت والإمارات فان أموالهما كانت تدفع كرواتب ومخصصات للموظفين، والجنود المرابطين على الجبهة[107].

ويبدو أن الأقطار الخليجية كانت ترمي من وراء دعمها السخي لموريتانيا إلى إثارة المشاكل للجزائر المحسوبة في عداد الأقطار التقدمية، وذات التوجه الاشتراكي الواضح، وخوفاً من قيام دولة في الصحراء الغربية كثر الحديث عن علاقات قوية بين قادتها وبعض الأنظمة الشيوعية.

وكان اعتماد موريتانيا على المساعدات الخارجية في تمويل الحرب، وبعض المشاريع الثانوية الأخرى سبباً في ازدياد مضطرد لديونها الخارجية، التي ارتفعت من (140) مليون دولار سنة 1973 إلى (700) مليون دولار في منتصف عام 1978، لتصل مع نهاية الحرب إلى مليار دولار[108].

ومما فاقم الوضعية الاقتصادية وزاد من حدتها أن أصبحت العملة الوطنية في وضع سيء للغاية نتيجة الانهيار الاقتصادي، والمخاوف التي أثارها إقدام الجزائر على إغراق الأسواق المالية الموريتانية بكميات من الأوراق النقدية المزورة، مما دفع الحكومة الموريتانية إلى سحب كل الفئات النقدية التي كانت قد طبعت في الجزائر كإجراء احترازي

وذلك في الأشهر الأخيرة من سنة 1976[109]، وهو ما انعكس سلباً على الأوقية التي تراجع سعر صرفها خلال الحرب مقارنة بالفرنك الإفريقي المعمول به في الدول المجاورة.

وكان من الآثار الاقتصادية للحرب أن استشرى الفساد المالي والغش والمضاربات، وأصبح بعض المسؤولين السامين في الدولة يستغل موقعه الوظيفي لتكديس الثروات من خلال التحايل على بعض الأموال المقدمة من بعض الممولين العرب والأجانب، وهو ما أساء إلى سمعة الدولة واثر سلباً في توريد المعدات الحربية إذ أوقفت فرنسا في الأول من حزيران–يونيو 1978 شحنة أسلحة في ميناء مرساي كانت السعودية قد أرسلت أموالا لسدادها غير أن تلك الأموال تعرضت لتلاعب مالي أثار حفيظة المملكة التي عمدت في السابع من حزيران–يونيو سنة 1978 إلى تجميد قرض جديد قدره (100) مليون دولار[110]، كانت على وشك تحويله إلى موريتانيا، كما عملت على إقناع الكويت بضرورة التراخي في دفـــع الأقســـاط المترتبة عليها لتمويل مشاريع الشـــركة الوطنية للصناعة والمعادن (SNIM) [111]، وذلك للضغط على الرئيس المختار للقيام ببعض الإصلاحات الاقتصادية، وتحسين الأداء الإداري لمؤسساته المالية، وكان رد الرئيس المختار سريعاً وحاسماً، إذ أصدر قراراً في السابع من حزيران–يونيو 1978 يقضي بمكافحة الفساد والرشوة، وقام بإعفاء العشرات من المسئولين المتورطين في الفضائح السابقة ومتابعتهم.

وأسند وزارة المالية إلى أحمد ولد داداه الذي كان يشغل منصب محافظ المصرف المركزي الموريتاني، غير أن الرئيس المختار الذي اشتد عضده بأخيه لم يفلح في استرضاء الممولين، مما أوصل البلاد إلى درجة الإفلاس المالي حسب ما جاء في تقرير البنك الدولي لسنة 1978م[112].

وعلى المستوى الاجتماعي أدت ظروف الحرب وما رافقها من أزمات اقتصادية إلى اختلالات كبيرة في الخارطة السكانية، فقد تجمع أغلب السكان قرب المراكز الحضرية، وعلى طول الطريق الرابط بين المدن الكبرى، ولم يعد البدو يمثلون سوى (27%) من مجموع السكان بدلاً من (78%) قبل الحرب وتضاعف سكان المدن الرئـــيسة من (6%) قبل الحرب إلى (31%) بعدها[113]، ولعل من أهم أسباب هذه الحركة الاجتماعية المفاجئة تلك الخسائر التي لحقت بالرعاة منذ نهاية الستينيات وبداية السبعينيات من القرن العشرين، وتراجع النشاط الزراعي في المناطق الجنوبية، وتدهور الأوضاع الأمنية في المناطق الحدودية عموماً، ومناطق الشمال والجنوب الشرقي على وجه التحديد، بعد أن أصبحت عرضة لغارات مفاجئة ومتكررة تقوم بها عناصر جبهة البوليساريو، مما أرغم سكانها على هجرها ولو بشكل مؤقت.

وفي الوقت الذي تحول فيه آلاف الرعاة والمزارعين إلى جنود، لتأمين الدفاع عن الوطن، وتوفير لقمة العيش لأسرهم النازحة من الريف والتي أصبحت تعيش في ضواحي المدن في حالة من البؤس الشديد استدعت في بعض الأحيان وضع خطط طوارئ لأغاثتها، كان النشاط الضريبي في زيادة مستمرة، وطال كل الفئات الاجتماعية والمهنية، من كسبة وأصحاب مهن صغيرة وتجار ومزارعين ورعاة وغيرهم، ليصل قرابة (27%) من مداخيل سنة 1976[114]، وكان حزب الشعب قد أقنع السكان بان تبرعاتهم النقدية والعينية ستوجه إلى الأسر المتضررة في الصحراء إلا أنه اتضح بمرور الوقت أن الأمر يتعلق بحملات تشريد لا بعمليات إغاثة مما أثار استياءً كبيراً في أغلب الأوساط الاجتماعية التي لم تعد مستعدة لدفع المزيد من هذه التبرعات.

وقد أثارت الحرب، كذلك، الحساسيات القبلية والعرقية في موريتانيا، لا سيما في المراحل الأخيرة منها، فلم يعد خافياً أن أغلب قبائل الشمال الموريتاني غير راضية عن الحرب التي تخوضها بلادهم ضد أبناء العمومة في الصحراء، كما أن بعض الأوساط المقربة من قيادة حزب الشعب غدت تسوغ اختراق الصحراويين للمجال الترابي الموريتاني بتسهيلات

تقدمها هذه القبائل لهؤلاء المقاتلين، وهو ما من شأنه في الظروف الاعتيادية في الدول أن يصنف كتواطئ مع العدو في زمن الحرب، ويتطلب من الرئيس المختار إجراءات ردعية طبقاً للقانون ولطبيعة الظرفية، غير أن الأمر في موريتانيا لم يكن بهذه البساطة بعد أن أصبح هؤلاء السكان ينظرون إلى الحرب بعدم الرضا قائلين : " إن القاتل منا والمقتول "[115]، بل إن بعض المصادر الفرنسية المعاصرة للحرب تذهب إلى أبعد من ذلك مؤكدة أن جبهة البوليساريو قامت عدة مرات بعمليات اكتتاب للمقاتلين في مضارب قبيلتي أرقيبات وأولاد ادليم في مدن موريتانيا الشمالية[116].

ومع أن الزنوج الموريتانيين كانوا قد شاركوا في الحرب، وأبدو كفاءة عسكرية متميزة أثناء احتلال المدن الصحراوية إلا أن استمرار الحرب، وتركز ثقلها داخل العمق الموريتاني، وسقوط الكثيرين منهم أثناء المعارك، قد ولد لدى بعضهم شعوراً بان الحرب لن تكون في صالحهم في كل الحالات[117]، ذلك إن خسارتها ستجعلهم عرضة لانتقام المقاتلين الصحراويين المعروفين بكراهيتهم للزنوج، أما في حالة كسب الحرب وهي مستبعدة، فان الموازين الاجتماعية ستتغير لصالح الأغلبية العربية التي ستتعزز بعشرات الآلاف من سكان الصحراء العرب، وهو ما سيجعل الأقلية الزنجية في وضع لا تحسد عليه.

ومما زاد مخاوف الزنوج ما تناقلته الصحف السنغالية، ولا سيما الناطقة منها باسم الحزب الاشتراكي، في الأشهر الأخيرة من الحرب حيث أصبحت تفرد مساحات كبيرة من صفحاتها للحديث عن معسكرات تعذيب خاصة بالزنوج الذين وقعوا في أسر جبهة البوليساريو وعن تورط الآلاف من عناصر الطوارق[118]، في الحرب إلى جانب الصحراويين، وهو ما من شأنه أن يؤكد تلك المخاوف التي راودت زنوج موريتانيا، بل أن الحالة قد تخرج عن نطاق السيطرة وتدخل منطقة الساحل في حرب عصابات لا تقتصر على موريتانيا والصحراء وإنما تطال جمهوريات مالي والنيجر وتشاد وجميع النطاقات الإفريقية التي تتحرك داخلها هذه القبائل البدوية[119].

والواقع أن اشتراك بعض الطوارق في الحرب، على افتراض صحته، قد لا يكون بالضرورة موجهاً إلى الزنوج، بشكل خاص بقدر ما هو تعبير عن التعاطف مع الصحراويين، ووسيلة لكسب بعض المنافع المادية، ذلك أن الطوارق حينها لم تكن لديهم أطماع سياسية محددة، وإنما كانوا بطبيعتهم البدوية ميالين للسلب والنهب وركوب المخاطر سعياً للمعيشة، ومع هذا فلا مناص من الإقرار بأن تلك التحالفات كان من شأنها أن تلحق الضرر بالوئام الاجتماعي في موريتانيا، مما حدا بالرئيس المختار إلى التلويح من جديد بشعاراته القديمة المتعلقة بدور موريتانيا في التلاحم العربي الإفريقي كونها همزة الوصل، وجسر التواصل بين هاتين الأمتين.

2. الآثار السياسية والعسكرية :

لم تكن الآثار السياسية والعسكرية للحرب بأقل من سابقاتها الاقتصادية والاجتماعية، فقد أدت إلى تعميق هوة التناقض بين الاتجاهات السياسية المعارضة، وتلك المنضوية تحت لواء حزب الشعب، بل إنها أدت إلى انقسامات عميقة في صفوف النخبة الحاكمة، وكل القوى المؤثرة في المجتمع وإن بدت الدوافع مختلفة في بعض الأحيان.

فالاتجاه القومي العربي لم يكن يرى في الحرب أكثر من مغامرة عسكرية للفت الأنظار عن الأوضاع الداخلية غير المستقرة، والتراجع عن الخطوات التي كان الرئيس المختار قد بدأها منذ مطلع السبعينيات من القرن العشرين من قبيل الإصلاحات الاقتصادية والسياسية والعسكرية، وقد عارض هؤلاء الحرب لا من باب الإقرار بعدم عائدية الصحراء إلى موريتانيا، ولكن لأن اللجوء إلى القوة لا يمثل الحل الأفضل لمثل هذه القضايا، ولأن الوحدة المفروضة بالقوة لا تملك مقومات البقاء ما دامت لا تمثل إرادة بعض أطرافها، ولا يمكن حمايتها بتدخل الجيوش الأجنبية وإعادة التحالف مع القوى

الاستعمارية[120]، ثم إن مشكلة الصحراء الغربية طبقاً لهذا التحليل، باتت تمثل إحراجاً لكل من يدافع عن الحرية ويؤمن بها فكراً وممارسة، لاسيما وأن الأمر يتعلق بشعب قدم تضحيات كبيرة في سبيل التخلص من الهيمنة الاستعمارية، ليجد نفسه في نهاية المطاف هدفاً لتآمر الأشقاء – الجيران.

وقد وجد اليساريون الديمقراطيون في الحرب ضالتهم المنشودة لإثبات أطروحاتهم الرافضة للتعامل مع الرئيس المختار، ولتكون مصداقاً لرأيهم القائل إن حكومة حزب الشعب مثال للرجعية والعمالة، وأن الآمال المعقودة عليها لا تعدو كونها أوهاماً، وأن نهجها التوسعي لا يشكّل فقط هدراً للموارد الوطنية، وإنما تجاوزاً على حق الشعوب في تقرير مصيرها، وأعربت الحركة الوطنية في أكثر من مناسبة عن تأييدها المطلق لنضال الشعب الصحراوي، ولحقه في قضيته العادلة، وطالبت الرئيس المختار بوقف الحرب، واعتماد أسلوب الحوار للوصول إلى حل يعيد الحقوق إلى أصحابها، ويجنب المنطقة ويلات الدمار والتشريد[121].

ولم يقتصر الاستياء من الحرب ومضاعفاتها على الاتجاهات المعارضة، بل طال بعض القيادات السياسية والاجتماعية في حزب الشعب الحاكم، فالمثقفون والشباب الذين كانوا قد هرعوا إلى هذا الحزب سنة **1975**م قناعة بمنجزاته، أو طمعاً في وظائفه، لم يعودوا مع استمرار الحرب راضين عن اعتماد الرئيس المختار على الحكومات الخليجية والمغربية والفرنسية التي هي في مجملها رجعية أو استعمارية[122]، من شأن التركيز المفرط عليها أن يرجح كفة خصومهم في الجناح الثاني من الحزب والمشكل – أساساً – من الزعامات التقليدية والعناصر المحافظة.

أما رجال الأعمال الذين علقوا آمالاً كبيرة على الاستثمار في المدن الصحراوية القريبة من الشواطئ الإسبانية، وراهنوا على تسهيلات تقدمها لهم الحكومة لقاء خسارتهم في ضريبة " التضامن "، والتبرعات التي كانوا يقدمونها بين الحين والآخر، فإن آمالهم قد تبددت بعد أن توقفت أغلب المشاريع الاقتصادية بسبب الحرب، ولم يعد المستثمرون العرب والأجانب مستعدين للمخاطرة بأموالهم في بلد تعصف به الحرب ويفتقر إلى الحد الأدنى من الشروط الأمنية[123]، مما أثار استياءهم، لاسيما بعد تطبيق السياسة الاقتصادية الصارمة التي تبنتها قيادة الحزب للحد من تدهور الاقتصاد الوطني وإرضاء الدول المانحة.

وشكل الشأن المتنامي للسيدة مريم داداه، حرم رئيس الجمهورية، في قيادة قطاعات هامة من الحزب والدولة وتوجيهها في سنوات الحرب، مصدر سخط الكثيرين لاسيما بين العروبيين الذين كانوا يحملونها مسؤولية تعثر مسيرة التعريب، والتجار الذين يؤكدون أنها كانت العقل المدبر لصياغة القوانين الصارمة التي أضرت بمصالحهم، والقادة العشائريين الذين كانوا يرون في حدتها وأساليبها السلطوية، مصدر إزعاج لهم[124]، وتنفير من حزب الشعب، وأمينه العام المعروف بالرزانة وحسن السيرة.

وعلى المستوى الخارجي فإن الإستراتيجية السياسية للقيادة الموريتانية قد ارتكزت على إثبات الحق التاريخي في الصحراء، ونفي تهمة التوسع التي روجت لها الدعاية الصحراوية، كما أعلنت قيادة حزب الشعب الموريتاني عزمها على قطع العلاقات مع أية دولة تعترف بالجمهورية الصحراوية، ورفضت في الرابع من نيسان–ابريل **1976** استقبال السفير السويدي ريدبيك **(M. Redbeck)** ممثل الأمين العام للأمم المتحدة ووسيطه في الصحراء، لأنه التقى قادة البوليساريو في تيندوف، كما قاطعت موريتانيا أعمال المؤتمر الوزاري الإفريقي المنعقد في جزيرة موريس في الثاني من تموز–يوليو **1976** لإدراجه القضية الصحراوية على جدول أعماله[125]، وزار الرئيس المختار خلال الحرب (**16**) دولة عربية وإفريقية وآسيوية وأوربية[126] وأرسل عدداً من وزرائه إلى عشرات الدول الأخرى، غير أن كل هذه الإجراءات

والجهود لم تفلح في احتفاظ موريتانيا بالعلاقات المتينة التي كانت تربطها بأغلب دول العالم، والتي استطاعت أن تستغلها في الحصول على مكاسب مادية كبيرة، وأخرى معنوية جسدتها الصداقات الشخصية التي ربطت الرئيس المختار بأغلب القادة في العالم والألقاب التي كانت تصفه " بحكيم إفريقيا " و " محامي القضية الفلسطينية في المحافل الإفريقية "[127].

ولعل من أهم الآثار السياسية للحرب على المستوى الخارجي، ما لحق بالعلاقات الموريتانية – الجزائرية من أذى، فلقد كانت الجزائر، قبل الحرب من أهم الحلفاء العرب

لموريتانيا، الذين دافعوا عنها في المحافل العربية، وذللوا الصعاب أمامها للانضمام إلى الجامعة العربية سنة **1973** بعد زوال الاعتراض المغربي، وأسهمت الجزائر بسخاء في دعم المشاريع الاقتصادية الموريتانية، ووقفت إلى جانبها في أصعب مراحل تأريخها حتى أصدرت عملتها الوطنية التي طبعت في الجزائر وبدعم مالي منها، كما وقف الرئيس هواري بومدين (**1965–1978**) بحزم إلى جانب الرئيس المختار حين أتخذ قرار التأميم في الثامن والعشرين من تشرين الثاني–نوفمبر **1974**، وقد اعترف الرئيس الموريتاني بذلك في مذكراته قائلاً : " إن الرئيس بومدين قد تعهد لي بإعداد الفنيين الموريتانيين الذين سيحلون محل الفرنسيين، وأنه سيكون في تيندوف [قرب الحدود الموريتانية]. .. وسيعبئ الجيش الجزائري. .. ولن يترك موريتانيا وحيدة "[128]، وذلك على افتراض أن فرنسا سوف تتدخل عسكرياً لإجهاض قرار التأميم.

غير أن الجزائر التي راهنت على تحالفها القوي مع الرئيس المختار في سعيها لإيجاد صيغة لحل المشكلة الصحراوية لا تتيح للمغرب الهيمنة عليها، قد أصبحت منذ بداية السبعينيات تنظر بعين الريبة إلى التقارب الموريتاني المغربي، الذي أسفر في نهاية المطاف عن اتفاقية التقسيم التي تمت في مدريد سنة **1975**م، تلك الاتفاقية التي رأت فيها الجزائر إساءة موريتانية وتنكراً للعلاقات الحميمة التي كانت تربط البلدين، مما أثار حفيظة الرئيس الجزائري الذي استدعى نظيره الموريتاني في بشار بالجزائر في العاشر من تشرين الثاني–نوفمبر **1975** وطلب منه الانسحاب من الاتفاقية، وأن يختار بين الجزائر والمغرب، وهدده بتنظيم الصحراويين وتكوين جيش للضغط على موريتانيا لأنها الحلقة الضعيفة في الصراع [129]، وقد ردّ الرئيس المختار على ذلك بالقول : " إنني لن أختار بين الجزائر والمغرب لأنهما دولتان شقيقتان وصديقتان وجارتان وأتمنى أن تظل علاقاتنا معهما جيدة، ولكن مصالحنا تتناقض في بعض الأحيان مع مصالحكم وتتفق مع مصالح المغرب... والشيء الوحيد الذي لن نقبل أبداً التنازل عنه هو سيادتنا واحترامنا لالتزاماتنا. .. وقد سبق لنا أن اتفقنا مع المغرب على أمور لن نتراجع عنها "[130]، وهكذا يبدو أن القطيعة بين الدولتين أصبحت حتمية في ضوء تعارض أطروحاتهما ومصالحهما، وإقدام الجزائر على تنفيذ تهديداتها ابتداء من الأشهر الأخيرة من سنة **1975**.

وقد ردت موريتانيا على تصرف الجزائر بقطع العلاقات الدبلوماسية معها في قرار اتخذه المكتب السياسي لحزب الشعب الموريتاني في السابع من آذار–مارس **1976**[131]، في حين بادرت الجزائر إلى طرد (**60**) ضابطاً موريتانياً كانوا يتلقون دورات تكوينية في المدارس العسكرية الجزائرية[132]، وبدأت الحملات الإعلامية بين الدولتين، وفي كل مرة كان الصحراويون يهاجمون موقعاً موريتانياً كانت هذه الأخيرة ترفع شكوى إلى الأمم المتحدة من منطلق أن الأمر يتصل بعدوان جزائري منظم تنفذه مجموعة من " المرتزقة[133] الصحراويين، وفي تعليقه على تلك الهجمات والموقف الجزائري منها كان الرئيس المختار يكرر القول: " إننا لا نضيع الوقت في البحث عن الحجر الذي نرمي به، ولكن في البحث عن الذي رماه[134] ".

ومع أن العلاقات الموريتانية الليبية لم تصل مرحلة القطيعة النهائية كسابقتها إلا أنها قد ساءت، بشكل واضح، بعد فشل المشاريع التي اقترحتها ليبيا لحل النزاع[135]، وانحيازها إلى جانب الصحراويين، ودعمها المستمر لقضيتهم.

وخلال المراحل الأخيرة من الحرب لم يعد خافياً أن الجماهيرية غير راضية عن الحكومة الموريتانية، وعن شخص الرئيس المختار، لاسيما بعد زيارته لطرابلس في منتصف نيسان–ابريل سنة **1978** التي لم يتمكن خلالها من مقابلة العقيد معمر القذافي (**1969**– **2011**) مما يؤشر إلى عمق الأزمة القائمة بين الطرفين، ولربما كان التدخل الفرنسي أحد الأسباب الإضافية وراء تلك الأزمة، لأن الجماهيرية ترى أن الوجود الفرنسي في المنطقة يشكّل خطراً على دولها، وتهديداً للأمن القومي العربي، وسابقة خطيرة في تدويل النزاعات المحلية، كما أنها غير راضية عن الوجود العسكري المغربي في موريتانيا لأن النظام المغربي معروف برجعيته حسب وجهة النظر الليبية[136].

ولقد انعكست هذه الآثار بشكل سلبي على الأداء السياسي للحكومة الموريتانية التي أصبحت أجهزتها الحزبية عاجزة عن تأمين الحد اللازم من التأييد العلني للحرب، فقد أظهرت المناقشات العلنية لمؤتمر شبيبة حزب الشعب المنعقد في نواكشوط في الرابع عشر من آب–أغشت **1977** تعاطفاً كبيراً مع الصحراويين، ولاسيما بين الفئات المثقفة التي لم تعد تستهويها شعارات الوحدة المفروضة بالقوة، والتي ترتب عليها من الخسائر ما يتجاوز طاقة البلاد، أما الرئيس المختار الذي أصبح يعد الحرب بأنها " دفاع عن النفس "[137]، فقد جدد الدعوة للجزائر إلى إقامة علاقات طبيعية، وتعهد بإصدار عفو شامل عن الصحراويين الذين يلقون أسلحتهم، وبعدم تصفية أية حسابات مع أي منهم[138]، وهي لغة جديدة لم تكن مألوفة في خطبه السابقة، وتعكس الإحساس بخطورة الوضع وخروجه عن نطاق السيطرة.

وكانت نتائج المؤتمر الطارئ لحزب الشعب في كانون الثاني–يناير سنة **1978** مخيبة للآمال، وعكست عدم الارتياح والتشاؤم السائد في البلاد من جراء الحرب، التي لم يتخذ المؤتمر قراراً حاسماً بشأنها على الرغم من أنها كانت النقطة الوحيدة المدرجة على جدول أعماله، وهكذا غدا واضحاً لقادة حزب الشعب أنهم قد فقدوا زمام الأمور، لأن كسب الحرب أصبح مستحيلاً، وخسارتها باتت شبه مؤكدة في ضوء تردي الأوضاع العامة في الداخل، وتوقف الدعم الخارجي، وقد أعترف بذلك صراحة عضو المكتب السياسي للحزب أحمد ولد سيد بابه حينما مرر قصاصة ورق إلى الرجل الثاني في الحزب أحمد ولد محمد صالح خلال اجتماع مشترك للمكتب السياسي والحكومة في الثامن من تموز–يوليو سنة **1978**، كتب فيها ما نصه : " أعتقد أن جلستنا هذه ستكون من آخر الجلسات إن لم تكن آخرها فالوضع لا يمكن أن يستمر على هذه الحالة "[139].

وعلى المستوى العسكري فإن آثار الحرب كانت ماثلة، فقد أدت إلى زيادة مضطردة في عدد أفراد الجيش الموريتاني الذي لم يكن يتجاوز(**1200**) رجل في السنوات العشر التي تلت الاستقلال[140]، وكان الرأي السائد لدى أغلب قادة الحزب هو إبعاد العسكر عن السياسة إلا أن الأحداث الدموية التي شهدتها البلاد سنة **1966**[141] جعلتهم يعدلون عن هذا الرأي ويقررون إدماج الجيش في الحزب، وهو ما تم في المؤتمر الثالث المنعقد سنة **1971** الذي أكد أن " اندماج القوات المسلحة في الحزب يخدم الأهداف الوطنية العليا "[142].

وتطبيقاً لمقرراته عقدت ملتقيات لقادة الجيش الوطني والحزب وضع خلالها تصور نظري لمشروع توجيه سياسي للجيش يهدف إلى الدفاع عن الحوزة الترابية، ومكافحة الفقر والكسل، وصيانة الوحدة الوطنية ضد النزعات الجهوية والقبلية والعنصرية، وتقوية الشعور بالواجب[143]، غير أن دخول موريتانيا للحرب قد تطلب منها بناء جيش وطني

كبير، وتطويره وتسليحه ليكون في مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقه، والتي لم تعد تنحصر في الدفاع عن الحدود الموريتانية لسنة **1960**، وإنما في السيطرة على الجزء الجنوبي من الصحراء الغربية وحمايته من هجمات البوليساريو.

ومع أن عملية التعبئة الوطنية الشاملة التي أعلنها حزب الشعب منذ نهاية سنة **1975**[144]، وعمليات الاكتتاب المستمرة قد ضاعفت أعداد الجيش بشكل غير مسبوق، فوصل نحو (**17000**) رجل مع نهاية عام **1976**، ونحو (**18000**) رجل في نهاية عام **1977**[145]، إلا أن هذه الزيادة العددية لم تكن مدعومة بالجانب النوعي، فقد ظلت أغلب وحدات الجيش تفتقر إلى الحد المقبول من التسليح والتدريب ووسائل الاتصال مما يفسر تعثرها المستمر في وقف هجمات الصحراويين.

وعلى الرغم من أن المدرسة العسكرية لمختلف الأسلحة **(EMIA)** التي أعلن عن تأسيسها في مدينة أطار في الرابع من حزيران–يونيو سنة **1976**، وافتتحت رسمياً في العشرين من تشرين الثاني–نوفمبر من العام ذاته، قد نجحت في تخريج دفعات متتالية من الضباط وضباط الصف، إلا أن هؤلاء الضباط والمراتب كانوا يفتقرون، في أكثر الحالات، إلى الكثير من التقاليد العسكرية المعمول بها في الجيوش العالمية، وأولها الانسجام، والدقة في تنفيذ الأوامر، لأن إعدادهم جرى على عجل، ولأن الأعراف الاجتماعية والعادات المكتسبة من المحيط العشائري كانت أكثر رسوخاً من الدروس النظرية التي أصبحوا يتلقونها، وفي المحصلة النهائية، لم يستطع أغلب هؤلاء العسكر التحرر من موروثهم التقليدي التي يحترم التراتبية الاجتماعية أكثر من الرتب العسكرية.

ومن المشاكل التي أثرت في الأداء العسكري للجيش الموريتاني، تلك التي تتعلق بالمرتزقة السنغاليين والغينيين الذين جندوا للخدمة في الوحدات الموريتانية[146]، وكانوا في أغلبهم من الصيادين وعمال البناء وخدم البيوت، مما يعني أن كفاءتهم العسكرية وتفانيهم في الخدمة، وحرصهم على كسب الحرب تبدو مـــثـــار شـــــك، إن لم يكن بمحض الإرادة، فبفعل نقص الخبرة، ومع هذا فإن مجرد وجودهم في الجيش يفرض منحهم الجنسية الموريتانية، وهو أمر بالغ الحساسية والخطورة على مستقبل البلاد وموازينها الاجتماعية والسياسية.

وإذا كان التحالف العسكري الموريتاني مع كل من فرنسا والمغرب في سنوات الحرب قد وفر دعماً مادياً وعسكرياً للقوات الموريتانية كانت في أمس الحاجة إليه، إلا أنه في المقابل قد ترك آثاراً نفسية عميقة في صفوف قادة الجيش لاسيما بعد أن اتضح أن طائرات الجاكوار الفرنسية كانت مزودة بكاميرات تصوير عالية الدقة من نوع **(Omera-35)** تقوم بمسوحات جوية شاملة تحجب أغلب نتائجها عن القيادة العسكرية الموريتانية، لتحفظ في الملفات ذات الأهمية العالية **(Dossiers Des Objectifs)** لدى قيادة سلاح الطيران الفرنسي، مما أثار استياء الحكومة الموريتانية[147].

وأتسم تعامل قادة الجيش الموريتاني، كذلك، مع حلفائهم المغاربة بقدر كبير من الشك والتوجس مرده الخوف من تجدد الدعاوى المغربية القديمة في موريتانيا، وعدم الرضا عن الأداء العسكري للوحدات المغربية المرابطة في أكثر المناطق الموريتانية أهمية على المستويات الاقتصادية والسياسية والعسكرية، وهو ما انعكس سلباً على التنسيق بين الجيشين في العمليات العسكرية، ورفض القادة الموريتانيون الأوامر التي تصدر عن القادة المغاربة الميدانيين[148]، وفي نهاية المطاف لم يعد الوجود الفرنسي مصدر ارتياح القيادة السياسية، ولا التمركز المغربي موضع ترحيب القيادة العسكرية وسيطر اليأس على الأوساط الوطنية التي لم تعّد آمنة من خصومها ولا مطمئنة لحلفائها !!

وبخصوص الخسائر البشرية للحرب، فإن الإحصائيات الدقيقة بشأنها غير متوفرة بشكل كامل، وما هو موجود منها بحوزة هذا الطرف أو ذاك لا يمكن الاعتماد عليه باعتباره يمثل وجهة نظر غير محايدة، ولما كانت أغلب المعارك قد جرت في عمق الصحراء والمناطق الجبلية ولم يكن بوسع الصحافة الدولية والمراقبين المستقلين أن يغطوها ميدانياً، لم يعد أمام الباحث من خيار سوى الاستئناس بالبيانات العسكرية الصادرة عن الطرفين دون الاعتماد المطلق عليها.

وحسب المصادر الصحراوية فإن الخسائر الموريتانية في الحرب قد تجاوزت (**2000**) قتيل وحوالي (**2500**) جريح، وبضع مئات من الأسرى[149]، في حين لا نجد في الوثائق الموريتانية المتعلقة بالحرب ذكراً للخسائر التي لحقت بهم، ولا تلك التي ألحقوها بالخصم !! إلا في حالات نادرة[150]، فأغلب البيانات الموريتانية لا تعطي أرقاماً محددة، وإنما تكتفي بوصف الإصابات الصحراوية بأنها جسيمة أو فادحة أو غيرها من الصيغ التي تفيد المبالغة والتعميم، في مقابل صمت مطبق عن حجم الخسائر التي لحقت بالقوات الموريتانية.

والواقع أن الأرقام الصحراوية مبالغ فيها لأغراض الدعاية الإعلامية، والحرب النفسية، كما أن تكتم الموريتانيين الذي تجاوز حدود المنطق، هو محاولة للتقليل من شأن الخصم، والظهور بمظهر المنتصر، وفيه نوع من مراعاة مشاعر القبائل الموريتانية التي لها امتدادات عرقية في المناطق الصحراوية، ومع هذا فإن طبيعة سير المعارك، والتحالفات التي شهدتها الحرب، وحجم الجيوش، وطبيعة الأسلحة، قد تساعدنا في إعطاء تصور تقريبي لا يرقى إلى مستوى الإحصائيات العملية الدقيقة، وإنما هو من قبيل التقديرات المؤسسة على المنطق، ففي الأشهر الأولى من الحرب التي شهدت دخول القوات الموريتانية إلى المدن الصحراوية كانت الخسائر أفدح في صفوف العسكريين الموريتانيين، لأنهم يهاجمون مناطق محصنة في أغلبها، ويتحركون في ميدان غير ميدانهم، وخلال المرحلة الثانية التي جرت في العمق الموريتاني كانت الخسائر متقاربة عددياً، وإن كان الصحراويون قد خسروا قادة كباراً يفوقون في أهميتهم وحدات بكاملها أمثال القائد الولي مصطفى السيد، أما في المرحلة الأخيرة، التي شهدت تدخل الطيران الفرنسي والمغربي إلى جانب موريتانيا فإن الإصابات في صفوف الصحراويين كانت أكثر، نظراً لعدم التكافؤ، وقد طالت المدنيين البدو ومواشيهم، مما أثر سلباً على البوليساريو دون أن يشل حركتها.

وبناءً على ما تقدم، واستنادا إلى شهادات اثنين من القادة الموريتانيين والصحراويين– طلبا مني حجب اسميهما – فإن قتلى الحرب من الطرفين كانوا في حدود (**3000**) قتيل وكان مجموع الجرحى أكثر من ذلك بقليل، في حين قدر عدد الأسرى لدى الطرفين بقرابة (**1000**) أسير، وهي أرقام تبدو أكثر وجاهة من سابقاتها، وتكاد تكون موضع إجماع أغلب المعاصرين للحرب.

وخلاصة القول: إن قرار موريتانيا بدخول الحرب كان يفتقر إلى الحكمة، وخوضها الحرب كان يتطلب مجهوداً مادياً وعسكرياً كبيراً، لأنها جاءت في ظروف صعبة اقتصاديا واجتماعيا وفاقمتها بدون شك، كما أن موريتانيا كانت أكثر الأطراف تضرراً منها، فقد أعادتها إلى مرحلة ما قبل الدولة المركزية، وقللت من حلفائها وزادت من خصومها، مما دفع قادة الجيش إلى الإطاحة بالرئيس المختار وإعلان وقف الحرب.

الهوامش

[1] يتعلق الأمر بإسبانيا التي كانت تستعمر الإقليم، والمغرب وموريتانيا والجزائر والجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء، وواد الذهب المعروفة اختصارا بالبوليساريو (Polisario)، ومن أمثلة الدراسات الجادة التي عالجت مواقف هذه الأطراف المختلفة، علي الشامي (الدكتور)، الصحراء الغربية عقدة التجزئة في المغرب العربي، الطبعة الأولى، دار الكلمة للنشر، بيروت، 1980 .

[2] ففي دراسة أعدها نادي باريس بالتعاون مع (250) من المتخصصين في الدراسات الاجتماعية في (33) دولة، وصدرت في 18 مايو 1960 أن سكان الصحراء الغربية يقدرون بنحو (50000) نسمة، وجاء في نشرة علمية صادرة عن المعهد الجغرافي الايطالي صدرت سنة 1970 أنهم لا يتجاوزن (23797) نسمة، أما المصادر الصحراوية في السبعينيات فإنها تقدر عددهم بحوالي (700000) نسمة، للمزيد من التفاصيل ينظر :

Attilio Gaudio , Le dossier du sahara occidental , Nouvelle Ed latines , Paris , 1978 ; Attilio Gaudio , le dossier de la Mauritanie , nouvelle ed latines , Paris , 1978 , PP. 306-307 .

[3] Balta , Op. Cit., P. 165 ; Attilio Gaudio , le dossier de la Mauritanie , Op. Cit., P. 306 .

[4] نسبة إلى الشيخ سيد أحمد الرقيبي .

[5] يتعلق الأمر بقبائل آيت لحسن، وأهل الشيخ ماء العينين، آية موسى، أهل باركلله، أولاد أبي السباع، آيت بعمران، أسكارن، تندغه، للمزيد من التفاصيل يراجع :

Garnier Christiine ; Ermont Ph, Desert Fertile : Un Nouvel Etat la Mauritanie Hachette , Paris , 1960 , P 136-137 .

[6] أهمها وأكثرها صلة بالموضوع الهجرات العربية في العصر الحديث، ولاسيما الهجرات الهلالية، والهجرات الحسا نية، وحركة الانتجاع التي كانت وما زالت أهم مميزات سكان ذلك الإقليم .

[7] يتعلق الأمر بقبائل أرقيبات وأولاد اداليم وتكنه

[8] Balta op cit p168.

[9] Ibid.

[10] Balta

[11] هي العاصمة الروحية للصحراء الغربية وقد أسسها المجاهد الشيخ ماء العينين سنة 1898 واتخذها مقرا" لزاويته الصوفية، ومنطلقا" للمجاهدين من مريديه الذين كانوا يخوضون المقاومة في موريتانيا ضد الوجود الفرنسي .

[12] Attilio Gaudio , le Dossier du Sahara occidental , Op. Cit., P45 .

[13] اشترك في الحملة (5000) عسكري فرنسي و(600) سيارة، و(70) طائرة مقاتلة، أما المشاركة الإسبانية فقد تمثلت في (9000) عسكري، و(60) طائرة هجومية، وقد أسفرت العملية عن مئات القتلى والأسرى والمشردين، للمزيد من التفاصيل ينظر:

George Chaffard , Carnets Secret de la décolonisation , Calmann-Lévy , Paris , 1965 .

[14] François Beslay , Les Reguebates de la paix française au front Polisario , L'Harmattan , Paris , 1984 , P178

[15] يعرف هذا المجلس محليا" بـ " الكابلادو " أو مجلس القبائل، ويتألف من (14) عضواً يرأسهم حظري ولد سعيد الجماني، وهو من أهم وجهاء العشائريين في الصحراء الغربية.

[16] من أهم تلك القرارات الدولية، القرار رقم (1514) في الدورة الخامس عشرة بتأريخ 1960/12/14، والقرار رقم (2072) في الدورة العشرين بتأريخ 1965/12/16، والقرار رقم (2229) في الدورة الحادية والعشرين بتأريخ 1966/12/20، والقرار رقم (2711) في الدورة الخامسة والعشرين بتأريخ 1970/12/14.

[17] وهي إشارة إلى الجزائر التي لها حدود مع الصحراء الغربية .

[18] من تلك المشاريع الطريق البري الرابط بين نواكشوط ومدينة النعمه في الشرق الموريتاني، والمشاريع الزراعية على ضفة نهر السنغال ... وغيرها .

[19] تكنه، أولاد أبي السباع، العروسيين، أهل باركل، أهل الشيخ ماء العينين .

[20] Attilio Gaudio , le Dossier de la Mauritanie , Op. Cit., P. 381 .

[21] نص البيان التأسيسي للجبهة على "... انتهاج خيار العنف الثوري، والنضال كوسيلة لجعل الشعب الصحراوي الأفريقي يسترجع حريته، ويفشل المناورات الاستعمارية الإسبانية "، ومن المفارقات أن موريتانيا والمغرب كانت تدعمان الجبهة في هذه المرحلة في حين تعارضها الجزائر، التي كانت- حينها- تساند تنظيما" صحراويا" آخر يسمى الحركة الثورية للرجال الزرق (Morehob).

[22] و. و. د. م، س. إ. ت. ت، ملفات جبهة البوليساريو، رسالة خطية من قادة أرقيبات إلى الرئيس المختار وحكومته، [د. ت] .

[23] و. و. د. م، س. إ. ت. ت، ملفات جبهة البوليساريو، رسالة خطية من قادة الجبهة بتأريخ 1974/8/8 .

[24] هناك العشرات من هذه الرسائل في وزارة الداخلية الموريتانية ضمن ملفات إدارة التوثيق والترجمة لم يتم تنظيمها وثائقياً حتى الآن (2001)

[25] و. و. د. م، س. إ. ت. ت، ملفات جبهة البوليساريو، رسالة خطية من الجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء ووادي الذهب إلى الرئيس المختار بتأريخ 1974/2/10.

[26] المصدر نفسه .

[27] Weexsteen , R. " La question du Sahara occidental " Annuaire de L'Afrique du nord , Paris , 1976 , P256-257

[28] و. و. د. م، س. إ. ت. ت، ملفات جبهة البوليساريو، وثيقة صحراوية بعنوان " التخطيط المشترك الإسباني - الموريتاني للقضاء على الثورة الشعبية الصحراوية " (د.ت)، ص1 .

[29] المصدر نفسه، ص2 .

[30] و. و. د. م، س. إ. ت. ت، ملفات جبهة البوليساريو، رسالة خطية من الجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء ووادي الذهب إلى وزير الداخلية الموريتاني، بتأريخ 1973/6/28 .

[31] و. و. د. م، س. إ. ت. ت، ملفات جبهة البوليساريو، رسالة خطية من الجبهة الشعبية لتحرير الساقية الحمراء ووادي الذهب إلى الرئيس المختار بتأريخ 1973/10/10.

[32] A. M. I. M., Serie Dossiers Polisario , Rapport de Mission , (Secret) , NKTT , le 23 / 1 / 1975 , P 2 .

[33] Ibid ., P 3 .

[34] Ibid., P 4 .

[35] Ibid.

[36] Ibid.

[37] مصطلح محلي يقابل المجموعة السودانية، ويشمل كل العشائر العربية الناطقة باللهجة الحسانية في الصحراء وموريتانيا ومناطق من جمهورية مالي .

[38] Attilio , Gaudio , Le dossier de la Mauritanie , Op. Cit., P381 .

[39] Balans , J. L. " Chronique Mauritanienne " Annuaire de L'Afrique du Nord , Paris , 1975 , P654 .

[40] أقرت المحكمة أن الصحراء لم تكن أرضا" بلا مالك، وأن بعض القبائل قد قدمت ولاءها في بعض المراحل لسلاطين المغرب، كما أقرت بوجود علاقات ترابية وتداخلات مكثفة بين القبائل الصحراوية والمجموعة الموريتانية، وأشارت المحكمة إلى حق السكان في تقرير مصيرهم، لمزيد من التفاصيل ينظر :

Maurice Barbier, le Conflit du Sahara Occidental L' harmattan , Paris , PP. 132-154 .

[41] Diallo Saidou , La Politique Mauritanienne du Sahara Espagnol et ses conséquences , Aix - En - Provence , 1978 , P. 60 et Suivantes .

[42] تذكر الباحثة ليلى بديع أن نصيب إسبانيا من الثروتين السمكية والمعدنية كان (50%)، في حين تتقاسم موريتانيا والمغرب الـ (50%) الباقية، ويذكر نبيل الملحم أن الاتفاقية قد نصت على (60%) نصيباً" للمغرب و(30%) نصيبا" لاسبانيا و(10%) نصيبا" لموريتانيا تنظر : ليلى بديع عيتاني، البوليساريو قائد وثورة، دار المسيرة، بيروت، 1978، ص61 ؛ نبيل الملحم، المرجع السابق، ص238 .

[43] لم يكن هذا الجيش عند بداية الحرب يتجاوز (5000) رجل، مسلحين بأسلحة خفيفة كلاشنيكوف(Kalachnikov) وبضع عشرات من سيارات اللاندروفر(Land-Rover) ومدافع الهاون (Mortier)، ومدافع الميدان (Canon)، وقاذفات الصواريخ (Lance-roquettes) وبعض الصواريخ قصيرة المدى من نوع سام 6 (Sam-6)، وسام 7 (Sam-7) ؛

Attilio Gaudio , Op. Cit., P 294.

[44] كان حينها يتجاوز (25000) رجل، مع غطاء جوي وأسلحة حديثة فرنسية وأمريكية الصنع، يراجع : أبراهيم ولد الشريف الطاهر، العلاقات السياسية المغربية - الجزائرية 1956-1988، رسالة ماجستير غير منشورة، الجامعة المستنصرية، 1998، ص104 .

[45] Attilio Gaudio , Le Dossier de la Mauritanie , Op. Cit., P 289

[46] Diallo Saidou , Op. Cit., P 63 .

[47] Balans , " Chronique mauritanienne " , Annuaire de L'Afrique du nord , Paris , 1976 , P. 580 .

[48] Attilio Gaudio , Le Dossier de la Mauritanie , Op. Cit., P 289 .

[49] خسرت موريتانيا خلال معركة آوسرد (39) جنديا"، كما بلغ عدد الجرحى (47) آخرين، ينظر :

Weexsteen , Op. Cit., P 258 .

[50] Ibid.

[51] خلفا" للسيد عبد الله ولد الشيخ الذي مثل موريتانيا في الإدارة الثلاثية المؤقتة للإقليم بموجب معاهدة مدريد .

[52] Balans , " Chronique Mauritanienne " , 1976 , P. 568 .

[53] Ibid., P 581 .

[54] Ibid.

[55] Ibid., P 565

[56] طاهر مسعود، المرجع السابق، ص70 .

[57] مناضل صحراوي بارز ولد سنة 1948 قرب منطقة بئر الحلو، وقد تعرضت عائلته لمضايقة الأسبان فنزحت سنة 1960 إلى جنوب المغرب، تلقى دراسته الثانوية في الرباط ثم ألتحق سنة 1970 بجامعة محمد الخامس لدراسة الحقوق، ومنذ مطلع السبعينيات من القرن الماضي بدأ نشاطه السياسي لتحرير إقليم الصحراء، وكانت له مراسلات واتصالات مباشرة مع موريتانيا وجبهة التحرير الجزائرية والقيادة الليبية ومع الأسبان، وهو عضو مؤسس لجبهة البوليساريو سنة 1973 حيث شغل أمانتها العامة، وأول رئيس للجمهورية العربية الصحراوية الديمقراطية التي تم الإعلان عنها في السابع والعشرين من شباط 1976 . لمزيد من التفاصيل تنظر : ليلى بديع عيتاني مرجع سابق، ص ص127-172 .

[58] طاهر مسعود، مرجع سابق، ص70 .

[59] من أهم الحلفاء العسكريين للبوليساريو ليبيا وكوبا، للتفاصيل ينظر :

Weexsteen , Op. Cit., P 261 et Suivantes .

[60] Ibid., P. 268 ; Ahmed Baba Miske , front Polisario L'âme d'un Peuple , Ed Rupture , Paris , 1978 .

[61] Balans , " Chronique Mauritanienne " , 1976 , Op. Cit., P 589 .

[62] Jeune afrique , No. 807 du 25 Juin 1976 , P 28 .

[63] Ibid

[64] Ibid.

[65] Ibid.

[66] أحد القادة العسكريين الكبار في موريتانيا، ينحدر من عائلة متنفذة في ولاية العصابة، قاد الكثير من المعارك في حرب الصحراء ضمن الجبهة الشمالية، وأشترك في الانقلاب العسكري الذي أطاح بنظام الرئيس المختار في العاشر من تموز 1978، وأستشهد في حادث جوي في الثامن والعشرين من مايو 1979 وكان حينها وزيرا" أول في الحكومة الموريتانية، ينظر :

Marchesin , Tribus , Op. Cit., P169 .

[67] قائد عسكري بارز، ينحدر من قبيلة العروسيين التي توجد مضاربها في الصحراء وشمال موريتانيا، قاد العديد من المعارك في حرب الصحراء، واشترك في انقلاب العاشر من تموز، قبل أن يصبح رئيسا" للجمهورية الإسلامية الموريتانية خلال المدة من الرابع من كانون الثاني 1980 إلى الثاني عشر من كانون الأول-دجمبر 1984م .

[68] Jeune Afrique , No. 807 , Op. Cit., P28 .

[69] Ibid.

[70] Ibid.

[71] Ibid.

[72] ردت الجبهة على ذلك بمحاولة اغتياله في باريس في السابع من تموز 1977م .

[73] طاهر مسعود، مرجع سابق، ص70 .

[74] Jeune Afrique , No. 807 , Op. Cit., P 28 .

[75] Weexsteen , Op. Cit., P. 272 .

[76] Jeune afrique , No. 807 , Op. Cit., P 28 .

[77] A. M. I. M. Serie D. D. T., Dossiers Polisario , Note de Renseignements , le 18 /7 / 1974

[78] فقد قام شخصيا" بمقابلة الرئيس المختار في أواخر سنة 1975، وأرسل إليه عدة رسائل بعد ذلك عن طريق بعض القيادات العشائرية، وأخيرا" عن طريق الرئيس المالي.

[79] هاجم الصحراويون هذه المدينة في العشرين من حزيران 1977، واحتلوها مدة يومين، يراجع :
Weexsteen, Op. Cit., P 442 .

[80] توجد بها خامات النحاس، ومشاريع تقطير المياه وتصفيتها.

[81] Attilio Gaudio , Le Dossier de la Mauritanie , Op. Cit., P293-294 .

[82] Weexsteen , Op. Cit., P 442 .

[83] Attilio Gaudio , Le Dossier de la Mauritanie , Op. Cit., P 297 .

[84] Marchesin , Tribus , Op. Cit., P 152 .

[85] Attilio Gaudio, Le Dossier de la Mauritanie , Op. Cit., PP. 298-299.

[86] Weexsteen , Op. Cit., P. 449 ; Marchesin , Tribus , Op. Cit., P 153.

[87] مقابلة شخصية مع أحمد ولد محمد صالح، وزير السيادة الوطنية الموريتانية الأسبق، نواكشوط 3 / 9 / 1998 .

[88] مصطفى الكتاب ومحمد بادي، النزاع على الصحراء الغربية بين حق القوة وقوة الحق، دار المختار للطباعة والتحضير الطباعي، دمشق، 1998، ص103 .

[89] توقف قطار الحديد الموريتاني خلال شهري نيسان-ابريل وكانون الأول-دجمبر من سنة 1976، وكذلك في تشرين الأول والثاني وكانون الأول-دجمبر من سنة 1977، وفي كانون الثاني وشباط ومايو وحزيران من سنة 1978 .

[90] لم يقتصر التعاون المغربي الموريتاني على المجال العسكري، بل شمل مجالات أخرى أهمها : مشاريع المواصلات والتبادل الثقافي، وإعداد بعض الكفاءات الإدارية في المؤسسات المهنية المغربية، في إطار نشاط الوكالة الموريتانية المغربية للتعاون التي أنشأت في شباط 1975، يراجع :
Balans Chronique mauritanienne " , 1976 , P 571 .

[91] Marchesin , Trubis , Op. Cit., P 151 .

[92] Attilio Gaudio , le Dossier de la Mauritanie , Op. Cit., P 394 .

[93] لم تتجاوز معدلات الأمطار خلال سنوات 1977-1978 قرابة (2) م م في مدينة ولدينج، و(7.6) م م في سيلبابي، و(1.5) م م في غابو، ينظر :
و. و. د. أ. س. أ. ت، الحالة الرعوية للسنوات 1977-1789، أوراق متفرقة، انواكشوط، 1978 .

[94] الحصبة والأمراض الصدرية، وغيرها.

[95] Vergara , Economie de la Mauritanie , Op. Cit ., P 203.

[96] مناطق زراعية في الجنوب الغربي للبلاد .

[97] Ver gara , Economie de la Mauritanie , Op. Cit ., P190-213 .

[98] Vergara , Economie de la Mauritanie , Op. Cit ., P 190-213 .

[99] marchesin, Trubis, Op. Cit., P. 153 ; Vergara , Op. Cit., P 222.

[100] و. و. د. م، س. إ. ت. ت، ملفات تيرس الغربية، استعلامات اقتصادية (سرية) بتاريخ 26 مارس 1979، ص2 .

[101] المصدر نفسه، ص2 .

[102] المصدر نفسه، ص1 .

[103] و. و. د. م، س. إ. ت. ت، ملفات تيرس الغربية، كشف ميزانية 1976، انواكشوط، 1976.

[104] Balans , Chronique Mauritanienne , 1976 , Op. Cit., P576-577.

[105] Marchesin , Tribus , Op. Cit., P 153 .

[106] Balans , Chronique , Mauritanienne , 1976 , Op. Cit., P 579 .

[107] Ibid., PP. 576-579 .

[108] Balans , 1976-1978 , Op. Cit., P692-596 .

[109] Serfaty Christiane Daure , La Mauritanie , Ed., L' Harmattan , Paris , 1993 , P142 .

[110] Serfaty Christiane Daure , Op. Cit., P 145 .

[111] Ibid., P. 145.

[112] Balans , Chronique Mauritanienne , 1978 , Op. Cit., P 595 .

[113] VERGARA , Economie de la Mauritanie , Op. Cit., P. 203 .

[114] Ibid., P. 203 .

[115] Jeune Afrique , No. 786 , Le 30 / 1. 76 , P. 20 .
[116] Serfaty , Op. Cit., P 143 .
[117] Ibid., P. 143 .
[118] Attlilio Gaudio, le Dossier de la Mauritanie , Op. Cit., P 322 .
[119] Ibid ., P 322 .
[120] دافع عن هذا الموقف كل من الناصريين والبعثيين من خلال تنظيماتهما السرية في موريتانيا، ومن خلال نقابات العمال والطلاب في الخارج .
[121] A. N. M. MIM, Dossiers MND-PKM, Lettre Ouverte du 19 mai , 1976 .
[122] Balans , Chronique Mauritanienne , 1976 , Op. Cit., P 572 .
[123] Politique africaine , No. 55 , Paris , 1994 , P. 114 .
[124] Marrchesin , Trubis , Op. Cit., P 159 .
[125] Balans , Chronique Mouritanienne , 1976 , Op. Cit., P 581 .
[126] Ibid., P 581 .
[127] Ibid., P 581 .
[128] مقتبس من : المختار ولد داداه، ج3، ص17 .
[129] المصدر نفسه، ص17 .
[130] المصدر نفسه، ص17 .
[131] A. N. M, Série M. I. M, Dossiers BPN , Communique , No. 07 , le 7 mars 1976 .
[132] A. N. M, Série M. I. M, Dossiers BPN , Communique , No. 07 , le 7 mars 1976 .
[133] والواقع أن مفهوم المرتزقة لا ينطبق على الصحراويين، ذلك أن المرتزق هو " الشخص الذي يجند لخوض حرب مسلحة، وهو لا ينتمي لأحد أطرافها المتنازعة، مقابل أجر يتقاضاه " كما جاء في تعريف المكتب القانوني للمنظمة الدولية لحقوق الإنسان في جنيف، ينظر :
Attilio Gaudio , Le Dossier de la Mauritanie , Op. Cit., P 295 .
[134] Ibid., P. 407 .
[135] طرح القذافي مبادرات لحل القضية منذ مطلع السبعينيات من القرن العشرين منها شراء بعض المناطق من موريتانيا، أو إقامة وحدة فيدرالية بين الصحراء وموريتانيا .
[136] المختار ولد داداه، المذكرات .
[137] Attilio Gaudio , Le Dossier de la maurtanie , Op. Cit., P 403 .
[138] Ibid ., P. 403 .
[139] Abelaziz Dahmani (et autres) , Dossier Secrets du Maghreb et du Moyen , Orient , T 4 , P 110 .
[140] مقابلة شخصية مع المصطفى ولد محمد السالك (رئيس موريتانيا الأسبق)، آمرجل في 13 / 10 / 1998 .
[141] عولجت بإسهاب في الفصل الثالث من هذه الرسالة .
[142] حزب الشعب الموريتاني، محاضر جلسات المؤتمر العادي الثالث، منشورات المقر الدائم، نواكشوط، 1971، ص ص15-16 .
[143] و. و. د. م، س. إ. ت. ت، ملفات الجيش الوطني، محضر ملتقى إطارات الجيش الوطني، نواكشوط، (د. ت)، ص2 .
[144] Attilio Gaudio , Le Dossier de la Mauritanie , Op. Cit., P393-394.
[145] Serfaty , Op. Cit., P. 87 .
[146] Ibid., P. 147 .
[147] Attilio Gaudio , Le Dossier de la Mauritanie , Op. Cit., P 299 .
[148] مقابلة شخصية مع المصطفى ولد محمد السالك في آمرجل في 1998/10/13 .
[149] لمزيد من التفاصيل، ينظر :
Weexsteen , 1976 , 1977 , 1978 , Op. Cit.
[150] ينظر الهامش ( ) من هذا العمل

رحلات الحج وآثارها الثقافية في بلاد الشناقطة خلال القرنين 12 و 13 هـ
(رحلة سيدي عبد الله ولد الحاج ابراهيم نموذجا)

أ. محمد الراضي ولد صدفن أستاذ التاريخ المعاصر، جامعة نواكشوط

يسعى هذا البحث إلى استبيان الملامح العامة لرحلات الحج وآثارها الثقافية في بلاد الشناقطة من خلال تناول رحلة سيد عبد الله ولد الحاج ابراهيم إلى الديار المقدسة "نموذجا".

وبالرغم من أهمية المصادر المختلفة التي تركها علماء هذه البلاد من مؤلفات عديدة، شملت جميع ميادين المعرفة، فإن الحج بالنسبة للمنطقة لا يزال بحاجة إلى دراسات رصينة تقدم نظرة شمولية حول تاريخه ومساراته، وآليات تنظيمه، و آثاره الاقتصادية والثقافية على المجتمع.

وأمام شح المعلومات المتعلقة بتاريخ الحج عموما في بلاد شنقيط، فإننا ارتأينا أن نتناول هذا الموضوع من خلال أبعاد ثلاثة.

أولا: البعد التاريخي للحج بالنسبة لمنطقة الصحراء عموما.

ثانيا: رحلات الحج الشنقيطية وانتظامها إلى مكة خلال القرن 12هـ.

ثالثا: رحلة سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم وتأثيراتها الثقافية في بلاد شنقيط خلال القرنين 12 – 13هـ.

I – لمحة تاريخية موجزة عن البدايات الأولى للحج بالنسبة لسكان الصحراء

تشير أغلب المصادر الخاصة بالفترة الوسيطة التي اهتمت بتسجيل حج الأمراء الصنهاجيين إلى أبي عبد الله محمد بن تيفاوت اللمتوني الملقب تاشرت الذي وحد القبائل الصنهاجية بالمنطقة في القرن الرابع الهجري. وقد ذكرت تلك المصادر أنه من أهل الدين والفضل والجهاد، وأول من حج من أمراء صنهاجة الجنوب[1].

كما تسهب هذه المصادر في الحديث عن حجة الأمير يحيى بن إبراهيم الكدالي سنة 429هـ الذي التقى أثناء عودته من الحج بالفقيه أبي عمران الفاسي بالقيروان وطلب منه أن يرسل معه مرشدا إلى الصحراء، ليفقه سكانها في الدين الإسلامي.

ثم إن الفقيه أحال الأمير يحيى بن ابراهيم الكدالي برسالة إلى تلميذ له كان يعيش في الحدود الشمالية للصحراء بالمغرب ، يعرف ب " وكاك" بن زلو اللمطي، يطلب فيها منه أن يوفد مع يحي من يثق في دينه وحسن تدبيره ، فوقع اختيار "وكاك" على عبد الله بن ياسين الجزولي الذي اصطحبه الأمير إلى الصحراء[2]. وعندما وصلا إلى "بني كدالة " اجتمع حول هذا الفقيه جمع غفير من الناس، يتعلمون على يده ويتفقهون في الدين بواسطته[3].

وقد أسس ابن ياسين مع رفاقه الصنهاجيين رباطا في جزيرة بالبحر تدعي: "التيدرة" 30 كلم شمال مدينة انواكشوط الحالية، وظلت جماعات التائبين تتوارد عليه طيلة ثلاثة أشهر إلى أن اجتمع حوله ألف رجل، فحولوا ملجأهم إلى رباط انطلق منه المجاهدون الذين أخذوا اسم المرابطين من هذا الرباط، وأخضعوا قبائل الصحراء التي دخلت كلها في الإسلام.

ويعتبر ابن ياسين المعلم الأبرز والمرشد الروحي والسياسي بالنسبة لمنطقة الصحراء، حتى وفاته سنة (451 هـ/1059م).

ودون أن نخوض في إشكالات مسار المرابطين ومذهبهم واهتمامات مؤسسيهم ومشروع دولتهم، فإنهم استكملوا سيطرتهم على الصحراء بعد أن فتحوا المدينتين الواقعتين على حدودهما شمالا وجنوبا سجلماسة المسماة أوداكوش سنة 446 هـ /1054م، ثم وسعوا نفوذهم شمالا وجنوبا إلى أن شملت امبراطوريتهم معظم أجزاء المغرب الإسلامي. وقد قامت الدولة المرابطية في بلاد الشناقطة على أساس دعوة دينية إصلاحية، اتسع نطاقها فيما بعد، ليشمل مناطق هامة من المغرب والسودان الغربي، وذلك من خلال السعي إلى نشر الإسلام السني في المنطقة، كما أصبحت للإسلام مكانة مهمة عند أمرائها، إذ هو المحدد الأساس للسياسة العامة لهذه الدولة، وهو ما مكن الفقهاء والعلماء من القيام بمهمات رئيسية في مجال اتخاذ القرارات، حيث يتم التشاور معهم في كل القضايا الدينية والدنيوية[4].

وعلى الرغم من الفراغ السياسي الذي خلفته وفاة أمير صنهاجة أبي بكر بن عمر اللمتوني سنة 480هـ / 1087م في الصحراء[5]، فإن ذلك لم يحد من أهمية العلم ومكانة العلماء في بلاد الشناقطة.

فقد عرفت المنطقة هجرات بشرية مكثفة من الحواضر المغربية إلى الصحراء، استمرت إلى حدود القرن التاسع الهجري (14م) بوصول القبائل المعقلية تباعا إلى مستقرها الشنقيطي.

لقد كان لهذه الحركة البشرية وما صاحبها من تحولات، تأثيرات مهمة على المدن الصحراوية الشنقيطية خاصة ولاتة على التخوم الصحراوية السودانية (3هـ / 8م)، وتشيت الواقعة إلى الغرب منها (536هـ) ثم وادان في نفس السنة وشنقيط (660هـ)، الواقعتين على الهضبة الشمالية.

وظلت هذه المدن تستقبل التجار والرحالة ورجال الدين والفكر القادمين من المغرب والمشرق، وقد قام العلماء في هذه الحواضر بشأن عظيم في نشر العلم وتعميق مضامينه. ونتيجة لذلك فقد اضطلعت بدور كبير في النهضة العلمية والثقافية التي عرفتها البلاد خلال القرنين 12 و 13 الهجريين (17 و 18م)، وعملت على ترسيخ ثقافة عربية إسلامية ذائعة الصيت في المغرب والمشرق الإسلاميين.

ولاشك أن حركة الحجيج قد ساهمت مساهمة فاعلة في تلك النهضة الفكرية من خلال ربط الصلات بين سكان المغرب والمشرق من جهة، وأفريقيا جنوب الصحراء من جهة ثانية، وهو ما يستشف مما وصل إلينا من أخبار رحلات العلماء الشناقطة الذين قصدوا بيت الله الحرام لأجل تأدية مناسك الحج.

II– رحلات الحج الشنقيطية إلى الديار المقدسة:

تعتبر فريضة الحج في الإسلام من أهم الدوافع الأساسية التي دفعت آلاف الحجاج الشنافطة للسفر كل سنة إلى ديار الحجاز لتأدية هذه الفريضة.

والحج في الاصطلاح الشرعي أداء فريضة هي أحد الأركان التي بني عليها الإسلام، في زمان معلوم ومكان مخصوص وعلى وجه مضبوط، وحكمه الوجوب مرة على القادر عليه لقوله تعالى: " ولله على الناس حج البيت من استطاع إليه سبيلا". ويرجع بعض الباحثين أقدم نشاط لركب الحجيج الشنقيطي، حسب ما هو موثق لدى أهالي مدينة شنقيط إلى النصف الثاني من القرن الحادي عشر الهجري (11هـ)، تاريخ حجة الفقيه الشنقيطي أحمد بن أحمد الملقب "اقد الحاج"[6] (ت 1086هـ) والذي كان جده أول من حج من أهل المدينة.

وقد عرفت مدينة شنقيط ازدهارا اقتصاديا وثقافيا لافتا خلال القرن 12هـ، 17م، وأصبحت بداية من هذا التاريخ مركزا لانطلاق ركب الحجيج الرئيس بالنسبة لغرب الصحراء عموما، وذلك بشكل منتظم كل سنة.

وفي هذا السياق، فقد أورد الفقيه سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم في رسالته "صحيحة النقل في علوية إدوعل وبكرية محمد غل" المكتوبة سنة **1205**هـ/ **1790**م، ما نصه: " وكان الركب يمشي من شنجيط إلى مكة كل عام، ويحج معهم من أراد الحج من سائر الآفاق حتى أن أهل البلاد، أعني من الساقية الحمراء إلى السودان إلى أروان يعرفون عند أهل المشرق إلى الآن بالشناجطة.... [7].

ومن مدينة شنقيط يلتحق ركب الحجيج بالركب الفاسي للتوجه إلى توات، فغدامس، ففزان، فالقاهرة، فالحجاز. وقد أدت عملية انتظام الحجيج وتكتله في ركب واحد إلى بلورة حيز ثقافي واجتماعي خاص بشنقيط من خلال زيها الموحد الذي ميزها عن غيرها من سائر حجاج الأقطار الأخرى.

ومن الجدير بالذكر هنا أنه من أهم مميزات الحجاج الشناقطة على المستوى الثقافي هو تحدثهم بالعربية العامية أي "الحسانية"، ومن حيث الأزياء التزام النساء بتغطية الرأس، وتخلي الرجال عن واجب التلثم، وفي غير ذلك من مظاهر الحياة العملية (مثل طريقة الركوب على الجمال ...الخ).

ولاشك أن سكان المشرق قد لاحظوا بروز هذه المميزات الجديدة عند الحجاج القادمين من مدينة شنقيط وأحوازها قبل غيرهم، ولذلك أصبحوا يطلقون على كل من يتصف بها لقب الشنقيطي، حتى ولو كان قادما من مدينة أو منطقة أخرى[8].

وعلى ما يبدو فإن الشأن الاقتصادي الكبير الذي قامت به شنقيط من خلال تعاطي سكانها النشط في التجارة الصحراوية، جعل منها إحدى أهم الحواضر الصحراوية المنظمة لقوافل الحجيج كل سنة.

ولئن كانت المعلومات المتعلقة بتاريخ رحلات الحج في بلاد شنقيط شحيحة وخصوصا قبل بدايات الدولة الحديثة لعدم وجود سلطة مركزية منظمة لحركة الحجيج وغياب إحصائيات دقيقة لأعدادهم ، فإن مدينة شنقيط شكلت منذ القرن **12**هـ، **17**م محطة رئيسة لانطلاق قوافل الحجيج إلى الديار المقدسة كل سنة.

ويشكل انطلاق قافلة الحج لحظة مهمة في حياة هذه المدينة، وهو ما يتم في الغالب خلال فصل الشتاء، الذي تنخفض فيه درجة الحرارة، كما يقوم سكان المدينة بقرع الطبول إيذانا ببدء الانطلاقة الفعلية للقافلة[9].

وكثيرا ما يأخذ الاستعداد للرحلة وجمع التجهيزات والمؤونة الضرورية للسفر عدة أشهر، وقد شبه أحد الباحثين الغربيين قوافل الحجيج العابرة لبحور الرمال، بالسفينة التي تعب أمواج البحر، واصفا الإبل بسفينة الصحراء ورجال القافلة بطاقم السفينة[10].

وتعتبر الإبل التي شكلت خلال هذا التاريخ وسيلة النقل الأساسية، العنصر الأهم في تجهيز القوافل لعبور الصحراء، بحكم أهمية هذا الحيوان الصبور في حمل الأثقال وتكيفه مع الظروف الطبيعية القاسية. ويتم اختيار الإبل المكونة للقافلة من الجمال القوية السليمة وتجهيزها بالرواحل الشنقيطية التي تعتبر من أجمل رواحل المدن الصحراوية[11].

ويتولى رئيس القافلة مهمة قيادتها حيث يتمتع بكل الصلاحيات المتعلقة بحلها وترحالها، واتخاذ كل الإجراءات المتعلقة بسلامة الركب عموما. ويعاون رئيس القافلة رجال أقوياء يأتمرون بأوامره ويقومون بحراسة القافلة وإنزال الحمولة عن ظهور العيس، وكذلك أدلاء عارفين بالطرق والمسالك.

وكثيرا ما كان يتعرض الحجاج في الطريق إلى الحج لصعوبات جمة، من أبسطها غارات اللصوص المتكررة عليهم، وهذا ما جعل بعض الفقهاء الشناقطة يجيزون ضرورة مداراة قطاع الطرق واللصوص حفاظا على المال والأنفس وذلك نتيجة انعدام الأمن في الصحراء.

وفي هذا الإطار فقد أفتى الفقيه التيشيتي الشريف محمد بن فاضل الشريف بأن المتوجه من أهل قرية في رفاق قرية أخرى سائر بسيرهم، داخل في جملتهم لا يعمل إلا بما صدر عنهم، لا مخلص له مما لزمهم في حال سفره معهم من المداراة التي تعرض لرفاقهم، والمغارم التي لا بد لها منها، على أن ذلك لازم له بمقتضى الشرع العزيز[12].

هذا في حين ذهب الفقيه الشنقيطي محنض باب ولد اعبيد إلى حد الإفتاء بسقوط الحج نظرا لصعوباته بالنسبة لسكان المنطقة وذلك لقوله: "والأظهر حرمته على أهل المغرب لما فيه من التغرير بالنفس والمال ووجوب حفظهما"[13]. وتحتفظ الذاكرة الجمعية الشنقيطية بأحداث مؤلمة تعرض لها الحجاج إما في الذهاب أو الإياب، لعل أبرزها ما تعرض له ركب حجاج أهل تجكجة سنة **1157** هـ/**1742**م من خسائر في الأرواح أثناء عودتهم من الحج بسبب الوباء. ففي هذه السنة توفي الفقيه العلوي الحاج ابراهيم وأخوه الحاج محمد ضمن هذا الركب[14].

وهذا ما يفسر بأن السفر إلى الديار المقدسة لما فيه من المشقة، كان مرتبطا عند الشناقطة بقوة الإسلام والعزم على تأدية أركانه.

لذلك ظلوا دوما يحنون إلى تلك الديار ويتوقون إلى الذهاب إليها والتمتع بمزارتها. وكان لهذا التوق وهذا الحنين دواع لعل من أكثرها إلحاحا الرغبة في تأدية الحج، والتماس الأسانيد والبحث عن الإجازات وجمع المتون والكتب. وفي هذا السياق تتنزل رحلة الفقيه الشنقيطي سيدي عبد الله ولد الحاج إبراهيم العلوي إلى الديار المقدسة.

III– رحلة سيدي عبدالله ولد الحاج ابراهيم لتأدية المناسك وتأثيرها الثقافي في بلاد شنقيط:

1) نبذة تاريخة عن حياة سيدي عبدالله

هو سيدي عبدالله بن الحاج ابراهيم بن الإمام عبد الرحمن بن الإمام محمد أحمد (ولد سنة **1153** هـ / **1738**م) بمدينة تجكجة الواقعة في وسط موريتانيا الحالية [15]، وقد امتاز الرجل منذ صغره ببعد النظر وسعة الخيال وسلامة التفكير، وقد تردد على أشهر محاظر البلاد لتلقي العلم من كبار شيوخها حتى استكمل العلوم والمعارف التي كانت المحاظر الشنقيطية تتعاطاها في زمنه. حيث أخذ العلم عن مشاهير الدرس في قطره، سيدي عبد الله بن الفاضل بن بارك الله اليعقوبي والمختار ابن سعيد الشهير بإبن بونا الجكني.

وبعد تحصيله لعلم البلد أدرك ابن الحاج ابراهيم أهمية السفر إلى ديار الإسلام بالحجاز من أجل أداء الفريضة المترتبة عليه، فأعد العدة، وركب العزم وذلك طلبا للعلم ومصادره وأسباب التأهل للإصلاح وآلياته.

يقول في هذا السياق: "والمصر لازم متقنيه تسعد: وارحل إذا حصلت علم البلد" أي أنه يقر بأهميه وضرورة الارتحال سعيا إلى تحصيل العلوم من العلماء والشيوخ الثقاة، بعد تحصيل علم البلد[16].

2– الرحلة

لقد خرج سيدي عبد الله ولد الحاج ابراهيم من بلاد شنقيط قاصدا الحجاز وهو ابن الثانية والعشرين من عمره. وقد استغرقت رحلته للحج والعلم اثنتي عشرة سنة. ويرجح أن التاريخ الفعلي لخروجه هو سنة **1182**هـ /**1768**م، وهي السنة التي وصل فيها إلى المغرب، حيث مكث هناك ست سنوات خاصة في فاس ومراكش. وتشير بعض المصادر إلى أنه لازم خلال هذه الفترة العلامة سيد محمد بن حسن البناني والشيخ محمد التاودي بن سودة وعمر الفاسي وأمثالهما من علماء فاس ومكناس ومراكش.

وقد نال هذا الفقيه الشنقيطي حظوة كبيرة لدى السلطان المغربي سيدي محمد بن عبدالله وحظي عنده بمكانة عالية، كما كان هو يحترم السلطان ويرى فيه الإمام العادل. وقد اختاره الملك محاضرا يلقي الدروس أمامه في بعض الحلقات المسائية

التي كان هذا الملك يحضرها في مجالسه العلمية، وقد أهداه مكتبة كبيرة. وكان خروجه من المغرب سنة **1187**هـ/ **1773**م إلى الحجاز ضمن البعثة الرسمية للمملكة، وهو ما كان يشكل وقتها جسرا مهما للتواصل الثقافي بين المغرب والمشرق.

وفي هذا الإطار أورد أحمد الأمين العمراني ما نصه: "ومن أواصر التبادل الثقافي مع المشرق ركب الحجاج الذي يتوجه سنويا بإشراف وفد رسمي ضمنه عدد من العلماء، فيمر عبر عدة أقطار، ويقيم بها مدة، وخاصة في مصر في الذهاب والإياب[17].

وأثناء إقامته بمصر التقى سيدي عبدالله بمن يشار إليه من العلماء وذاكرهم وأفادهم واستفاد منهم[18].

وفي طريقه من مصر إلى الحجاز عبر البر لخص سيدي عبدالله هذه الرحلة البرية من خلال القصيدة الشعرية التالية التي يقول في مطلعها:

أصب نأى والشوق لما نأى صبا عليه أتدري ما النسيم الذي صبا؟

وتعتبر الانطلاقة من شاطئ نيل مصر والنهاية مكة المكرمة، وصف فيها الطريق، واستعرض أركان الحج وواجباته، سننه ومستحباته، واختتمها بالحديث عن زيارة قبر الرسول صلى الله عليه وسلم.

وفي الحجاز كان سيدي عبد الله باحثا عن الكتب والمعارف متصلا بالعلماء ومجالس المذاكرات، مهتما بوصف أماكن الزيارة والعبادة في الأماكن المقدسة، ودراسة أحوال المجتمع وطبيعة البلاد وغير ذلك. فقد أورد في كتابه " نيل النجاح على غرة الصباح" أنه استقى معلوماته بالرجوع إلى العلماء والمشايخ ممن يقتدى بهم[19]. كما أشار ضمن هذا المؤلف إلى أهمية المجتمع الحجازي من خلال ذكره لبني عترة بن وائل ، الذين ذكر أنهم من أكثر عرب الحجاز يعمرون من خيبر إلى نجد، ويليهم في الكثرة حرب وهم سبعون ألفا، ومثلهم أو أكثر عتيبة الذين هم عرب مكة، وحرب عرب المدينة.

كما ذكر من خلال بعض وثائقه أنه دخل الدار المعروفة عند أهل مكة بدار الخيزران التي قال: إنها قريبة من الصفا فإذا بها لوح من رخام معلق ، مكتوب فيه ما نصه: "دار الأرقم المخزومي" وهي الدار المعروفة بدار الخيزران، و ذكر أن المقصود بزيارتها هو زيارة المسجد الذي يوجد فيها وهو من المساجد التي ذكرها الأزرقي، وذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم كان متخفيا فيها، وفيها أسلم سيدنا عمر ابن الخطاب رضي الله تعالى عنه، ولعل هذا المكان على حد تعبيره أفضل الأماكن بعد دار خديجة بنت خويلد لمكث النبي صلى الله عليه وسلم فيه يدعو الناس متخفيا.

وأشار أن طول هذا المسجد ثمانية أذرع إلا قيراطين وعرضه سبعة اذرع وثلث الجميع بذراع الحديد، وفيه مكتوب "في بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه، يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال" .... هذا مختبؤ رسول الله صلي الله عليه وسلم، دار الخيزران، وفيه مبتدأ الإسلام... [20].

وفي وسط محرم من سنة **1188**هـ / **1774**م أتم سيدي عبدالله زيارته للديار المقدسة بعد إكماله المناسك ثم ودع النبي صلى الله عليه وسلم بالأبيات التالية:

يا مودع القلب عند المصطفى الهادي	ودع مقطع أحشائي وأكبادي
ودع رفيقيه ثم الليث في أحد	ليث الإله ومن بالأشرف النادي
ودع نبي الهدى وابك البقيع دما	ودعه توديع أرواح لأجساد
ودع بنيه وعباسا فقد رحلت	عنك الركاب بلى وغرد الحادي
ودع مساقط وحي كان يصحبه	جبريل إما بموعد أو بإيعادي

وهذا الارتباط الكبير للشناقطة بالمزارات الدينية بالحجاز هو الذي يفسر تعلق معظم علمائهم بالروضة المشرفة. قال هذا الفقيه الشنقيطي في كتابه "يسر الناظرين في روضة النسرين" وأقصد بتعظيم جانبه صلى الله عليه وسلم، والشوق إليه والحب والتصديق له، فإذا فعلت ذلك سلكت طريق المحققين...[21].

وقد سار على هذا النهج الكثير من الفقهاء والشعراء الشناقطة[22]. فقد قال عبد الله بن سيد محمود الحاجي أثناء حجه عندما زار القبة المشرفة:

ما كنت مذ زمن ترجوه هذاؤه هذا شفيع الورى بشرا هذاؤه

هذا العتيق وذا أبو الفتوح وذي أهل البقيع أحباؤه وأبناؤه

كما أنشد محمد بن محمدي العلوي(ت **1272**) عندما تاقت نفسه للحج يقول:

تجلد جهد نفسك للفراق وكفكف غرب سافحة المآق

وجرد من عزيمك ما يوازي مثارات المهندة الرقاق

وبناء على كل ما تقدم، فإنه يمكن القول بأن رحلات الحج، وإن كان الهدف المعلن منها هو تأدية المناسك ، فإنها لا تخلو من أبعاد تعليمية وتثقيفية بارزة للعيان. فالحج فرصة لتبادل الزاد المعرفي بين العلماء والفقهاء من سائر الأقطار الإسلامية، وفرصة لتصحيح وتعميق المعارف اعتمادا على الأمهات والمتون من الكتب الإسلامية النادرة. وهذا ما يجرنا للحديث عن التأثير الثقافي لهذه الرحلة في بلاد شنقيط.

3) الآثار العلمية والثقافية لرحلة سيدي عبدالله في بلاد الشناقطة:

لقد أثرت رحلة سيدي عبدالله بن الحاج ابراهيم إلى الحج وغيرها من رحلات العلماء الشناقطة تأثيرا كبيرا على الحياة الثقافية في بلاد شنقيط.

ففي سنة **1190**هـ، جلب سيد عبدالله إلى بلاد شنقيط أثناء عودته من الحج ، مكتبة كبيرة زاخرة بالمتون النادرة قدرت بمئات الكتب.

وقد أهدى جزءا من هذه المكتبة إلى مساجد شنقيط وتشيت. وما إن وصل هذا الفقيه مدينة تجكجة مسقط رأسه، حتى شرع في تعليم الناس أمور دينهم ودنياهم وأنكب على التأليف والدعوة والإصلاح.

لقد شرع في تأليف أول متن له في علم البلاغة سنة **1191**هـ سماه " نور الأقاح" وبدأ شرحه سنة **1194**هـ، وسماه فيض الفتاح على نور الاقاح وانتهى من شرحه **1198** هـ، اعتبره المدخل الذي تعرف من خلاله دقائق العربية أسرارها ، ويكشف عن وجوه إعجاز القرآن أستارها. وقد تناول المؤلف في هذا لكتاب العلوم الثلاثة: علم المعاني، علم البيان، وعلم البديع)، وذلك بقوله في مقدمة الكتاب:

وأستعين الله في نيل النجاح في رجز سميته نور الأقاح

نظمت فيه الدر في سلك منيع من المعاني والبيان والبديع

على طريق لازب وجامع للحشو والتعقيد دأبا مانع

إذ عندها يظهر سر القرآن ويكمل الدين ويبدو البرهان[23].

وقد كان هذا الكتاب واسع الانتشار في معظم المكتبات الشنقيطية، حيث كان يدرس في جميع المحاظر، نظرا لأهمية علم البلاغة ودوره في فهم القرآن وإعجازه، والعربية وآدابها.

في هذا المضمار، يقول سيدي عبد الله " بل علوم الأدب أولى من علوم الطب لأنها لإصلاح الدين إذ لا يفهم كـــلام الله تعالى وكلام رسوله إلا بها، وعلى قدر رسوخ المرء فيها ورسوخه في الفقه"[24].

وخلال سنة**1192**، الف سيدي عبدالله ولد الحاج ابراهيم كتابه المسمى: "طرد الضوال والهمل عن الكروع في حياض مسائل العمل"، الذي ضمنه رؤيته للإصلاح وهي في الواقع تعتبر ثورة صريحة على العلماء في القطر الشنقيطي، نظـــرا لاعتمادهم التقليد الأعمى وعدم اهتمامهم بالتجديد والاجتهاد. ولهذا يقول في مطلع هذا الكتاب: "هذا وإني لما رأيـــت بلاد المغافرة معطلة الرسوم يتجاوب في عرساتها الصدى والبوم، كما تناوح يوم الريح عيشوم، لبعد أطرافها من أطراف العمارة ومجاري ينابيع الحكم والإمارة وطلبتها في المرتبة الثانية، وهي الإقتداء... ولم تتقيد الفتوى، والحكم بعدد محصور، ولم يكترثوا بالميز بين المردود والعمل المنصور نهضت همتي – مع قلة البضاعة – ناسخا ما يروج في أيدي الباعة لأبين جهة الهدف، والغرض ، فيصب من رمي الوجه المفترض" [25].

هذا علاوة على كتابه" مراقي السعود الذي ألفه وفق مقتضيات الأحوال في البلد، حيث يقول في مطلعه:

هذا وحين قد رأيت المذهبـــــــــــا رجحانه له الكثير ذهبـــــــــا

وما سواه مثل عنقا مغـــــــــــرب في كل قطر من نواحي المغرب

أردت أن اجمع من أصـــــــــــوله ما فيه بغية لذي فصـــــــــوله.

وقد شرحه بشرح أسماه "نشر البنود " الذي انتهي منه سنة **1207** هـــ. وهو عبارة عن خلاصة الخلاصة في مجال علم الأصول كذلك. يقول في خاتمة كتابه نشر البنود على مراقي السعود:

انهيت ما جمعه اجتهـــــــــــادي وضربي لأغوار مع الأنجـــادي

مما أفادنيه درس البـــــــــــرره مما انطوت عليه كتب المهـــــرة[26].

وهذا دليل واضح بأن الرجل قد أتى بزبدة اجتهاده وبذل كل طاقاته في تحصيل علم الأصول من خلال تـــرددده علـــى العلماء البارزين ومطالعته كتب الفقهاء الماهرين في شتى المعارف، وقد بين مذهب مالك في الأصول بما فيه الكفاية مـــن أجل أن ينتفع به أهل المالكية خصوصا، وغيرهم عموما. وذلك باعتماده على كتاب التنقيح للقرافي المالكي وشرحه له المسمى تنقيح الفصول في علم الأصول، وقد جمع فيه مسائل المحصول للإمام فخر الدين الرازي ومسائل كتاب الإفادة للقاضي عبد الوهاب المالكي، وكتاب الإشارات للباجي وكلام ابن القصار في الأصول وهما مالكيان. كما أحاط بجمع الجوامع لتاج الدين السبكي وزبدة ما في شرحه على مختصر ابن الحاجب ومنهاج البيضاوي مع زيادات كـــثيرة علـــى ذلك[27].

ولقد لقي هذا التأليف مراقي السعود وشرحه نشر البنود صدى كبيرا على الساحة الثقافية الشنقيطية حيث اهتم بهمـــا العلماء الشناقطة منذ أن ألفهما صاحبهما. فلقد فاقت شهرتهما شهرة معظم ما ألفه علماء المنطقة في هذا المجال، وأقبـــل العلماء والطلاب على دراستهما باهتمام كبير، لأن الكتاب يعالج بصفة شمولية كيفية الاستدلال على الأحكام.

وفي مجال الحديث ألف سيدي عبد الله كتابين: أحدهما سماه هدى الأبرار على طلعة الأنوار سنة (**1201**هـــ) وهـــو يكتسي أهمية كبيرة بحكم أن علم الحديث هو المصدر الثاني لأصول الشريعة بعد كتاب الله العزيز، وقد كانت الســـاحة العلمية والثقافية في بلاد شنقيط بحاجة إلى مثل هذا الكتاب الذي اتسم بالشمولية من حيث تناوله لجميع المصـــطلحات والأقسام المتعلقة بالحديث، وقد أتم المؤلف هذا الشرح سنة **1205** هـــ، وقد استهله بما يلي:

(لما كان علم الحديث أصلا من الأصول، ولا يكون لأكثر الأحكام دونه حصول، إذ عليه مدار الحديث الذي جعله الله للقرآن سلما يخصص عامه ويبين ما كان منه مجملا، وكان في هذه البلاد كالكبريت الأحمر، أقوى منه كل بلد وأقفر، ندبني إلى منظومة فيها زوال تلك الهوة رجاء الفوز منه تعالى بالقربة، والأمن في القبر والحشر والجسر من الكربة. ثم لما من الله تعالى بتلخيصها وتهذيبها بعد تخليصها، ندبني إكمال المرام إلى شرح سهل يشفي الغرام يسمى "هدي الأبرار على طلعة الأنوار"....)[28].

يقول في هذا السياق :

أسأل الله نظما مختصرا يناسب المقام خال من كدر

يسمى لذا بطلعة الأنوار في علم آثار النبي المختار[29].

يعني أني لما رأيت قصر الهمم عن الألفية سألت الله تعالى أن يعينني على نظم مختصر للألفية، حاو زيادات كثيرة ليست فيها، يناسب المقام أي حال أهل الزمان، لتوسطه بين طرفي الإفراط والتفريط من صفة ذلك المختصر أي خال من كل ما يكدره على قارئه كالحشو المفسد والتعقيد اللفظي والمعنوي والإخلال والتطويل.

أما الكتاب الثاني فقد أسماه غرة الصباح وشرحها نيل النجاح" وهو عبارة عن اختصار لألفية العراقي في الحديث ألفه سنة **1203** هـ.

ولم تقتصر مؤلفات الرجل عند هذا الحد، بل شملت مجالات متعددة، كالفقه والعبادات والوعظ والإرشاد والتوحيد والفتوى والقراءات والتصوف والأنساب والسير والشعر والنثر....الخ.

ولهذه الأسباب، فقد امتازت مدرسة سيدي عبد الله ولد الحاج ابراهيم التي أسسها في بلاد الشناقطة، بنزعتها التجديدية، التي شملت أكثر من اختصاص وخاصة في مجال أصول الفقه وأصول الحديث ومصطلحه، وقد جمعت في اهتماماتها بين العلوم الشرعية ووسائلها المختلفة.

وقد درست هذه المدرسة جميع الفنون وأقبل عليها الطلاب من جميع نواحي بلاد شنقيط وخارجها. وقد كان هذا الفقيه يدرس في الفقه مختصر خليل، وتحفة ابن عاصم ورسالة ابن أبي زيد القيرواني، وابن عاشر والأخضري، كما كان مطلعا على أمهات الكتب كلها، ويفسر في الأصول ابن السبكي، ويفسر في القواعد المنهج والتكميل، وفي مصطلح الحديث ألفية العراقي، وفي الروايات الشاطبية والدر اللوامع والتفصيل لابن غازي في العشر الصغير، وفي الحديث البخاري ومسلم، والموطأ والجامع الصغير، وفي العروض الخزرجية، ونظم ابن غازي على المتدارك، وفي التصوف الحكم لابن عطاء الله، وفي الوعظ العلوم الفاخرة في علوم الآخرة. وكان يعتمد في التوحيد على مصنفات السنوسي الكبرى والوسطى والصغرى وشروحها.

هذا إضافة إلى تدريس القرآن وتفسيره في كل الأوقات[30]. وقد خرجت هذه المدرسة ضمن رعيلها الأول كوكبة من العلماء الأجلاء طار ذكرهم في الآفاق وانتفع بعلمهم خلق كثير من جميع مناطق البلاد. وقد ذكر مؤلف كتاب الدر لخالد في حديثه عن الإقبال الكبير على هذه المدرسة ما نصه: "أنتفع به رحمه الله خلق كثير بالمباشرة والوسائط ولاسيما من ولاته إلى مرسى السفن على جهة الغرب، فإنه كان عمدة أهل مالكي المذهب حاضرهم، وباديهم "[31]. وهكذا فقد عم تأثير هذه المدرسة على كل القطر الشنقيطي من خلال فطاحلة العلماء التي خرجت، والذين نشروا العلم في جميع مناطق البلاد. ومن بين هؤلاء نذكر على سبيل المثال لا للحصر:

- الشيخ محمد الحافظ بن المختار بن حبيب العلوي (ت **1247**هـ/**1831**م).

- **عبد الحميد بن الفاضل بن محمد بن سيدي الحاج بن المختار الجكني، (كان حيا سنة 1220 هـ/ 1804م).**
- **الطالب أحمد بن اطوير الجنة الحاجي الوادانى (ت 1265هـ/1849م)**
- **سيد محمد بن اعل بن المختار العلوشي الداودي (ت 1274هـ/ 1857م)**
- **صالح بن عبد الوهاب الناصري (ت 1271هـ/ 1854م)**
- **أعمر بن الفاضل بن احمد بن بد الإبيري البركني (ت 1284هـ/1867م)**
- **غالي ولد المختار فال بن أحمد تلمود البصادي (ت 1240هـ/1824م)، وغيرهم كثير [32].**

وخلاصة القول فإن التأثيرات الثقافية لحركة الحجيج في بلاد الشناقطة هي تأثيرات متنوعة، وتتعدد بتعدد البيئات التي تنتمي إليها الروافد الثقافية. كما أن تداخل هذه الروافد ترك بصماته واضحة في الحياة الثقافية للشناقطة، حيث كان إمامهم في الفقه مالك ابن أنس وهو مدني، وإمامهم في القرآن هو نافع ابن عبد الرحمن الليثي وهو مدني، أما إمامهم في العقيدة هو أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري وهو عراقي بصري، وفي النحو إمامهم الخليل ابن أحمد وتلميذه سيبويه وهما بصريان.

ولا شك أن هذا التواصل الثقافي بين المشرق والمغرب من جهة وسكان الصحراء من جهة أخرى، من خلال حركة الحج والقوافل، كان له الفضل الكبير في تمكين الشناقطة من استجلاب الكتب والمتون العلمية وتدعيم جسور التواصل الثقافي والاجتماعي والاقتصادي بين جميع شعوب المنطقة.

الهوامش

1- راجع ابن خلدون، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، 6 مجلدات، منشورات دار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت لبنان، 1968، ص 372.
2- أبو عبيد البكري، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، المطبعة الحكومية، الجزائر، 1857، ص 165.
3- النانى ولد الحسين، موريتانيا من عهد غانا إلى المرابطين، تاريخ موريتانيا (فصول ومعالجات)، انواكشوط، 1999، ص 25.
4- ددود بن عبدالله، الثقافة والفكر ببلاد شنقيط الاطر العامة وسياق الإنتاج، ضمن تاريخ موريتانيا (فصول ومعالجات)، جامعة انواكشوط ومختبر الدراسات التاريخية، نواكشوط، 1999، ص 90.
5- النانى ولد الحسين، المرجع السابق، ص 32.
6- حماه الله ولد السالم، مظاهر الصلات العربية- الإفريقية من خلال ركاب الحاج والأوقاف في الفترة الحديثة، مجلة مصادر التاريخ الموريتاني، العدد 4، مختبر الدراسات التاريخية، انواكشوط، 2004، ص 63.
7- سيدي عبد الله ولد الحاج ابراهيم، "صحيحة النقل في علوية ادوعل وبكرية محمد غلي" مخطوط بحوزتنا.
8- ددود بن عبدالله، الثقافة والفكر ببلاد شنقيط، المرجع السابق، ص 90.
9- المقري أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب في غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، بيروت، ج 5، ص 205.
10 -Monod Théodore, Meharées, paris 1937, PP 25,29
11- أحمد مولود ولد أيده، الصحراء الكبرى مدن وقصور، دار المعرفة، الجزائر ، 2009، ج2، ص ص 15 – 16.
12- راجع نوازل الفقيه التيشيتي محمد فاضل الشريف، مخطوط، دار الثقافة، انواكشوط.
13- راجع محنض باب ولد اعبيد، مخطوط، دار الثقافة انواكشوط.
14- الرحالة الطالب أحمد بن اطوير الجنة، تاريخ بن طوير الجنة، تحقيق سيد أحمد بن أحمد سالم، ط 1، مركز الدراسات الإفريقية، الرباط 1990، ص 64.
15- التيجاني ولد عبد الحميد، سيدي عبد الله بن الحاج ابراهيم العلوي بين مقتضيات الأحوال في المجال ودوافع الرغبة في التجديد وسد الفراغ، المطبعة الجديدة، نواكشوط، 2010، ص 100.
16- التيجاني ولد عبد الحميد: المرجع السابق، ص 109.
17- أحمد الأمين العمراني، الحركة الفقهية في عهد السلطان سيدي محمد عبد الله العلوي، المغرب، 1996، ج1، ص 406.
18- محمد محمود ولد سيد عبد الله، الدر الخالد في معرفة الوالد، مخطوط بحوزتنا، ص 16.
19- سيدي عبد الله ولد الحاج ابراهيم، نيل النجاح على غرة الصباح، مخطوط، دار الثقافة، نواكشوط، ص 13.
20- التيجاني ولد عبد الحميد، المرجع السابق، ص ص 121-122.
21- سيدي عبد الله ولد الحاج ابراهيم " يسر الناظرين في روضة النسرين" مخطوط بحوزتنا، ص 31.
22- أب حيدة بن الشيخ يربان الإدريسي، أعلام الشناقطة في الحجاز والمشرق، دار النشر الدولي، ط1 ، 2009، ص ص 286، 417.
23- سيدي عبدالله ولد الحاج ابراهيم، فيض الفتاح على نور الأقاح، الإمارات العربية المتحدة، 1999، ج1، ص 13.

24- راجع التيجاني بن عبد الحميد، البعد الثقافي الشنقيطي وجسور تواصله مع الرافد المغربي، المركز الثقافي المغربي، نواكشوط، العدد 4، ص 14.
25- سيدي عبد الله ولد الحاج ابراهيم، طرد الضوال والهمل عن الكروع في حياض مسالك العمل، ط1، انواكشوط 1995، ص 4.
26- سيدي عبدالله ولد الحاد ابراهيم، نشر البنود شرح مراقي السعود، ج 2، تحقيق محمد الأمين ولد محمد بيب، ط1، الإمارات العربية المتحدة، 2005، ص 666.
27- سيدي عبد الله ولد الحاج ابراهيم ، نشر البنود شرح مراقي السعود، مصدر سبق ذكره، ص 667.
28- سيدي عبدالله ولد الحاج ابراهيم، هدى الأبرار على طلعة الأنوار، ط 2، مطبعة الكرامة، الرباط 2003، ص 9.
29- المصدر نفسه، ص 16.
30- محمد محمود ولد سيدي عبدالله، الدر الخالد في معرفة الوالد، مخطوط بحوزتنا.
31- المصدر انفسه.
32- راجع التيجاني بن عبد الحميد، سيدي عبدالله بن الحاج ابراهيم العلوي بين مقتضيات الأحوال في المجال والرغبة في التحديد وسد الفراغ، المرجع السابق، ص ص 182 – 194.

بعض الخصائص الحضارية لمدينة صحراوية في وسط بدوي: ولاتة نموذجا

أ. أمهادي ولد جقدان

أستاذ التاريخ المعاصر، جامعة نواكشوط

تمهيد: عرفت مدنية ولاتة بوصفها مركزا صحراويا تجاريا وعلميا شهيرا. فكانت ملتقى للطرق التجارية القديمة حيث كانت تمر بها القوافل المتجهة من وإلى بلاد السودان، وقد اكتسبت أهمية اقتصادية لكونها أول مركز لاستراحة القوافل القادمة من شمال إفريقيا باتجاه بلاد السودان.

استفادت ولاتة من كونها ممرا للقوافل حيث اشتهرت بالرخاء الاقتصادي وذلك بفضل موقعها مما انعكس إيجابا على النشاط العلمي بما عرفته من استقرار للعلماء الذين وفدوا إليها من كل الجهات.

نتناول من خلال هذه الدراسة إشكالية مدينة صحراوية في وسط بدوي مع التركيز على دور الفاعلين الاجتماعيين والسياسيين والدينيين في هذا الوسط الصحراوي، إذ كانت المدينة عبارة عن كائن غريب عليها أن تقاوم وتثبت وجودها، ليس فقط في مواجهة الظروف الطبيعية الغير ملائمة، ولكن كذلك في مواجهة محيط اجتماعي طالما نظرت مكوناته إليها بدونية وتعال واعتبرتها غنيمة سهلة المنال.

لقد انطلقنا من نموذج مدينة ولاتة الواقعة إلى الشمال من مدينة النعمة عاصمة الحوض الشرقي من أجل اختبار مقاربتنا المنهجية.

نشأت هذه المدينة في مجتمع بدوي ذي بنيات اجتماعية وتنظيم سياسي يتجاوز صراعاته القبلية الانقسامية في سبيل تأسيس سلطة سياسية مركزية تضمن حدا من الأمن والاستقرار والخروج النسبي عن التسيب السياسي، وإذا كان في مناطق موريتانيا قد ظهرت نظم سياسية استطاعت تشييد سلطة مركزية في إطار ما يسمى بالإمارة فإنه لم يقم في الحوض نظام سياسي مماثل بل كانت البنيات السياسية خاضعة ومحددة أساسا بمنطق القرابة والعلاقات القبلية.

1– نشأة مدينة ولاتة:

تعتقد بعض الروايات التقليدية أن مدينة ولاتة تأسست في القرن الهجري الأول على يد القائد الإسلامي عقبة بن نافع، حيث يشير بول مارتي أنه ترك (أحد أبنائه وهو العاقب في بيرو[1] وهي مدينة قديمة قامت ولاتة على أطلالها... وقد تابع الرجل فتوحاته في إقليم الساحل السوداني وأخضع التكرور، ثم انطلق نحو الشمال تاركا ابنه العاقب زعيما للبلاد ونائبا، وقد شيد العاقب مسجدا في بيرو –ولاتة– ودفن فيه ولا يزال ضريحه ماثلا إلى الآن)[2]. فيما يرى المؤرخ المختار ابن حامد أن المدينة تأسست من طرف زنوج سونونكيين نزحوا إليها من غانه[3]. وقد تصدعت أركان مملكة غانا حينها تحت ضغط أمراء صوصو في القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي وهاجر علماؤها إلى ولاتة في إطار هجرة مشهورة[4].

وتكاد الرواية الشفوية المحلية تثبت أن المدينة أسست قبل قدوم قبيلة المحاجيب، ذلك أن جدهم الأعلى يحي الكامل وصل ولاتة في القرن الثاني الهجري/ الثامن الميلادي.

2– العمارة في ولاتة:

كانت ولاتة في أول الأمر على حافة منحدر "أظهر" فالجانب الأكثر ارتفاعا هو الأكثر قدما، وتبدو أحياء مهجورة باستثناء منازل قليلة مازال أهلها يحرصون على صيانتها وإعمارها لكنها قليلة ومتناثرة في الحي. ويفسر امتداد

المدينة إلى الأسفل بأنه لما زال الهاجس الأمني تمددت بنايات ولاتة إلى أسفل المرتفع "البطحاء" حيث تسهل الحياة ويقرب التموين من الماء خصوصا، وهذا المكان هو المعمور في الوقت الحالي من المدينة.

آ– مخطط البناء:

تتميز البنايات في ولاتة بمخطط خاص يأخذ في الحسبان الحاجات الملحة للساكنة. ويختلف عمران المساكن الحديثة قليلا عن المساكن القديمة، إذ تتميز بجدران وأسوار مستقيمة خالية من الطابع الدفاعي للمباني القديمة[5]. فالبنايات السكنية القديمة كانت تنقسم إلى: بهو"ساحة" للسكن وبهو للخدمات، ولكل من الجانبين مدخله حيث يتصلان عبر ممر معد لهذا الغرض. يحتوي بهو السكن على مقعد جدراني في المدخل. وفي نفس الجانب مصعد وهو عبارة عن سلم يمكن من الوصول إلى غرف في الأعلى أو إلى سطح المنزل. بالإضافة إلى غرف السكن كان بهو الجانب السكني يضم أسرة من الخشب المصنوع للتمدد والاسترخاء، حيث تبسط عليها الحصائر والوسائد لتكون أكثر متعة، أما الغرف فقد تكون متقابلة أو تكون غرفة كبيرة على شكل مستطيل تلصق بها خزينة أو عدة خزائن.

ب– مواد البناء:

تتكون الأبنية في ولاتة من لبن ذي أبعاد مختلفة مصنوع من خليط من أتربة طينية معروفة محليا، كما تستخدم الحجارة والصخور المحلية. ويلاحظ أن الحائط عادة ما يفقد الاستقامة فزواياه غير قائمة، وعرض الحائط يكون في المتوسط **0.75**م إلى **0.80**م، وخلافا لخارج المنزل فإن داخله يطلى في جنباته بألوان حمراء[6]. وتتكون السقوف من أعمدة خشبية وحصائر من الجريد تغطى بالطين، وعادة ما تكون الأبنية طابقا إلى طابقين في السواد الأعظم.

ج– الزخرفة:

تبدو الأبنية في ولاتة مزخرفة زخرفة خاصة سواء داخل المنزل أو خارجه، وتعود هذه الزخرفة إلى رجل إسمه "عالي" اكتشف تربة الطلاء بألوانها المختلفة وأخذت فيما بعد إسمه. وتظهر الزخرفة على شكل رسوم منتظمة تحيل إلى إيحاءات جمالية فريدة[7].

تعرف عينات هذه الزخرفة محليا ب"الكطعة" و "التخطاط" وكذلك "لحفول"، والكلمة الأخيرة هي مرادفة للزخرفة التي تأخذ عدة مظاهر حسب الموقع الذي تتخذه من المنزل، إذ تتخذ إطارا عاما أبيض تظهر عليه أشكال هندسية منتظمة بلون أحمر، وتكون الرسوم في الوسط أكبر من الأطراف التي تكون الرسوم فيها أصغر حجما.

والرسم الأكثر شيوعا في الزخرفة الولاتية يسمى محليا "الخماسية" وهي عبارة عن رسم له نواة وأربعة أجنحة، كما أن له أشكالا أخرى مثل "القوس" إلى غير ذلك من الأشكال الهندسية البديعة[8]. وهذه الأشكال المستخدمة في الزخرفة تعبر عن ذوق واع للجمال والحرص على تمثله في الفن المعماري.

كما أن الباب قد يوجد مزخرفا بتشكلة من النحاس الأحمر والأصفر على خلفية حديدية. وتتكون زخرفة باب المنزل – المصنوع من صفائح خشبية– من قطع معدنية على شكل نجوم بعدة قطع الواحدة فوق الأخرى مثبتة بمسمار رئيسي. ومن زخرفة الباب أيضا "السرسارة" وهي عبارة عن حلقة متحركة توضع على الباب للزينة وتكون مثبتة على مسمار يأخذ شكل نجمة بها عدة معادن، ومازال استخدامها قائما إلى اليوم.

2– الأوضاع السياسية للمدينة:

تقع مدينة ولاتة في منطقة الحوض الشرقي بموريتانيا حاليا، وكانت في السابق تتبع لسلطان إمبراطورية مالي، وقد ذكر ابن بطوطة الذي زار المدينة في القرن الرابع عشر الميلادي أنها أول عمالة السودان، ونائب السلطان فيها يسمى فربا حسين، وفربا في لغة السونغاي هي النائب[9].

وتتحدث المصادر عن أن ملك السونغاي سني علي قام بشن حملة على هذه المدينة وفر على إثرها أميرها لكن سني علي (أمنه ... مقابل دفع إتاوة)[10]، وستظل ولاتة تابعة لدولة السونغاي إلى أن يستولي جيش الدولة السعدية على هذه المملكة[11]. بعد هذه الحادثة عرفت منطقة الحوض بصفة عامة وولاتة كمدينة ضمن هذا الفضاء بصفة خاصة فترة من السيبة نظرا لفقدان سلطة مركزية تضع حدا للصراعات بين المجموعات الحسانية، والتي وفدت إلى المنطقة ضمن الهجرات البشرية التي شهدتها البلاد على شكل موجات متتالية من الغرب نحو الشرق، وهكذا وقعت ولاتة تحت نفوذ عدة قبائل حسانية هي أولاد يونس بن أعروك وأولاد زيد وأولاد بوفايده وأولاد عقبة وأولاد أمبارك ومشظوف.

ويمكن إرجاع تلك الوضعية السياسية المضطربة والتي عرفتها المنطقة دون غيرها إلى كون السلطة السياسية الحسانية لم تملك من المقومات الإقتصادية ما يخولها البقاء والاستمرار([12])، لذلك كانت مواردها عبارة عن أتاوات تفرضها تلك السلط على المجموعات المنتجة في هذه المنطقة.

وعلى ضوء ذلك عاشت المدينة بعض الاضطرابات نظرا لتصاعد الفوضى السياسية وتعاقب سلط الإمارات فيها، وحروبها فيما بينها بالإضافة إلى جماعة المحاربين الذين اتخذوا الغزو والنهب وسيلة للعيش فيها خاصة في عهد أولاد أمبارك. وترتب على هذا الوضع حالة من عدم الاستقرار، ولم يكن للمجتمع الولاتي من وسائل الدفاع حينها سوى ما توفره طبيعة المدينة من أسوار ومخابئ لا يعرف الغزاة البدويون لاقتحامها أي سبيل ، وهذا ما جعل بعض الغزاة يلجأ إلى فرض حصار على مصادر المياه حتى تؤدى لهم مبالغ من المال ترضي جشعهم[13]، الأمر الذي دفع أنبوي بن باب أحمد المحجوبي الولاتي إلى حد حفر بئر وسط الديار لسد عطش أهالي المدينة وذلك بواسطة عمال أهداهم إياه الحاج عمر الفوتي[14].

وقد تعرضت المدينة كذلك لهجوم عصابات من أركيبات الشمالية التي تحبذ الهجوم على حين غفلة كلما كانت الفرصة مواتية لنهب الممتلكات، وقد ضاق بهم الأهالي ذرعا حتى ظهرت إمارة آل امحيميد المشظوفية سنة **1283**هـ، وعند ذاك ساد الأمن والاستقرار لأن آل امحيميد كانوا معروفين بحرصهم على إشاعة الأمن والعدل في أول عهدهم. وأعطت هذه الإمارة عناية خاصة لمدينة ولاتة وخصصت لها حامية عسكرية وأسست بها قلعة حصينة للسهر على حمايتها[15]، كما قرب القائمون على الإمارة علماء المدينة وذلك بتعيينهم الفقيه محمد يحي الولاتي قاضيا للقضاة سنة **1284**هـ/ **1867**م.

3- الأوضاع الإقتصادية:

مكن موقع ولاتة الجغرافي بين شمال إفريقيا وبلاد السودان من الاستفادة بشكل كبير من التجارة التي ربطت بين المنطقتين خلال القرون الماضية، وترتبط ولاتة بخطين للقوافل التجارية هما:

- مراكش – الجل – شنقيط – تيشيت – ولاتة.
- سجلماسة – تغازة – تاودني – ولاتة.

وينبهنا الرحالة ابن بطوطة خلال زيارته لولاتة سنة **1352**م إلى اتساع المدينة ونشاطها التجاري ومكانة السلطة بها، كما نستشف من وصفه لها ازدهار البريد إلى جانب الإيجار وقطاع الخدمات كالترجمة والحراسة[16].

وبعد غزو تنبكتو من طرف الصوصو في القرن الثامن عشر الميلادي بدأت هجرة أخرى لسكان هذه النواحي باتجاه ولاتة مما جعلها مركزا دينيا وتجاريا ونقطة مهمة بالنسبة للطرق التجارية الصحراوية الغربية.

وقد ارتبطت ولاتة بعلاقات تجارية مع فضائها كمدينة تنبكتو وكاله وانيور في مالي الحالية، وتيشيت إلى الشمال منها على بعد عشرة أيام للقافلة من ولاتة، وهذا ما جعل التجارة تزدهر فيها ازدهارا لم يعرف له مثيل في المنطقة.

كما ازدهرت فيها الصناعات اليدوية المختلفة إلى جانب الزراعة بمختلف أنواعها وخاصة زراعة البطيخ في موسم الأمطار، واشتهرت المدينة كذلك بزراعة مادة التبغ ذات المردودية الكبيرة في إطار التجارة الصحراوية. وكان للمدينة منجمان للملح هما: تكورارت وتنيولك. ولعب هذان المنجمان قديما وحتى الآن دورا هاما في اقتصاد المنطقة برواج موادهما.

وكانت تنطلق من المدينة رحلتان سنويتان إلى كل من مالي حاليا والسينغال والمغرب، وقد بقي هذا التواصل قائما حتى دخول الاستعمار الفرنسي للمنطقة[17].

4- ولاتة كحاضرة علمية:

عرفت ولاتة عبر التاريخ بمدينة العلم والعلماء، ولعبت دورا هاما في هذا المجال. فقد تجلى دورها العلمي حسب المصادر التاريخية التي تحدثت عن نشأة هذه المدينة وعلاقاتها مع محيطها الخارجي ونهضتها الداخلية، فابن بطوطة في القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي تحدث عنها بوصفها إحدى أهم الحواضر الصحراوية إشعاعا علميا وثقافيا، وذكر في هذا السياق إبان وجوده بها لقاءه لقاض للمدينة عرفه باسم محمد بن عبد الله بن ينومر وأخوه الفقيه المدرس يحيى[18].

ولم تكن روابط ولاتة مع محيطها الخارجي مقتصرة على الروابط التجارية فحسب بل إن الروابط العلمية والثقافية والدينية كانت قائمة مع جميع أنحاء دول الإسلام. ولعل أهم مظهر من ذلك هو الركب السنوي الذي ينطلق من المدينة باتجاه الحج وهذا الركب كان قدم معه ابن بطوطة أثناء عودته إلى ولاتة.

واستفادت ولاتة في هذا السياق من الدمار الذي أصاب تمبكتو إثر الحملة السعدية سنة **1591**م، حيث هاجر إليها الكثير من العلماء الذين ساهموا في إثراء الحياة العلمية بها.

كما استفادت المدينة أيضا من رحلات الحج التي شكلت فرصة يتم فيها التبادل العلمي بين علماء المدينة وعلماء الحواضر المزورة، فقد كان الحجاج يمرون في طريقهم بجميع الحواضر العلمية والثقافية والدينية بالمغرب وتونس ومصر. ومن أهم العلماء الذين لهم رحلات مدونة نذكر على سبيل المثال –لا الحصر– رحلة محمد يحي الولاتي إلى الحج وقد استغرقت هذه الرحلة ستة سنوات إذ خرج من مسقط رأسه ولاتة يوم **07** رجب **1311**هـ/ **14** يناير **1894**، ولم يرجع إلى الصحراء ويلقي عصى الترحال بقرية أروان إلا يوم **06** شوال **1317**هـ/ **07** يناير**1900**م[19]. وقد طبعت رحلة محمد يحي الولاتي وصارت مرجعا بما تضمنته من معلومات.

كما اشتهر الفقيه محمدي ولد سيد عثمان(المتوفى سنة **1336**هـ)، الذي حج ولديه رحلة ما زالت مخطوطة[20]. وقد كان الحج مناسبة للعلماء لاستقدام المؤلفات في مختلف ميادين المعرفة.

اشتهرت ولاتة بمحاضرها المتعددة التي كانت محجة لطلاب العلم من جميع الآفاق، وقد وفد إليها الكثير من الطلاب وخاصة في فترات الهدوء والاستقرار. وفي بعض الفترات يقل الإقبال بسبب الاضطرابات الأمنية والحروب، ففي فترة أولاد أمبارك على سبيل المثال حرمت المدينة من أهم رافد يمثل أعظم عنصر منشط للحركة الثقافية في المدينة ألا

وهو إقبال طلبة العلم عليها رغم ما يترتب على ذلك من المخاطر. ويلاحظ أن هذه الفترة خلقت لدى شباب المدينة إقبالا شديدا على الدرس والتحصيل وانكبابا أكثر وكانوا يقولون (هذه ثروتنا الوحيدة التي لا يستطيع الغزاة نهبها)[21].

أما الفترة التي صاحبت عهد آل امحيميد فإن أصدق ما يمكن أن توصف به هو أنها مثلت خاتمة العهود الذهبية في تاريخ المدينة الثقافي، حيث عاد تدفق طلبة العلم إلى محاضر المدينة من كل حدب وصوب، ونشطت حركة التأليف إلى أعلى مستوى لها، فلا غرابة في هذا الجو إذا من صمود المدينة الخالدة أمام العواصف التي عصفت بها مادام قوام وجود سر بقائها هو نشاطها الثقافي الدؤوب الذي يستفيد من فترات البؤس كما يستفيد من فترات الرخاء[22]. وتشهد لذلك ذخائر المعرفة في شتى المجالات من الفقه واللغة والبيان والنوازل والتاريخ الموزعة بين المكتبات الأهلية في المدينة.

وهكذا تكون دراسة حاضرة صحراوية هامة مثل ولاتة مكنت من إعطاء فكرة عن الحواضر العلمية الصحراوية بشكل عام. وقد سعينا من خلال هذا العمل إلى إبراز مدينة ولاتة الواقعة في أعماق الصحراء مع التركيز على الأوضاع التي طبعت الحياة بتلك الحاضرة البعيدة، ومدى تأثيرها على حياة السكان في تلك المنطقة. استفادت ولاتة من مرور القوافل التجارية على المستوى الاقتصادي بما تحمله من مواد تجارية، وكذلك على المستوى العلمي بقدوم الكثير من العلماء إلى المدينة واستقرارهم بها.

كما بينا كيف استطاعت المدينة مقاومة ظروف أمنية قاسية وليس أقلها هجمات المجموعات المحاربة التي اتخذت الغزو والنهب وسيلة للعيش. وكانت تحسد المدينة على ما تزخر به من ازدهار اقتصادي وعلمي قل نظيرهما في المنطقة.

كانت مدينة ولاتة عبر تاريخها منارة للعلم والثقافة في الصحراء وبلاد السودان، وقد شكلت امتدادا لنهضة علمية واسعة عرفتها الحواضر المنتشرة في الصحراء.

الهوامش

1- تحدث عنها بعض المؤرخين بهذا الاسم بيرو، عبد الرحمن السعدي، تاريخ السودان، ترجمة وتحقيق هوداس وبنوه، باريس 1981 ، ص21/ الشيخ سيدي محمد الكنتي: الطرائف والتلائد، مخطوط بالمعهد الموريتاني للبحث العلمي، ص27.

2- بول مارتي، كنتة الشرقيون تعريب محمد محمود بن ودادي، د.ت، مطبعة زيد بن ثابت، ص15.

3 - المختار بن حامد، موسوعة حياة موريتانيا، التاريخ الساسي، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2000، ص140.

4 - المختار بن أباه، الشعر والشعراء في موريتانيا، ط1، الشركة التونسية للتوزيع، تونس، 1987، ص20.

[5]- MARTY P. Etudes sur l'islam et les Trubus du Soudan,t3:les Trubus du Sahel et du Hodh,Leroux,Paris,1920-1921, p369.

[6]- HAMIDOUN Mokhtar Ould, Précis sur la Mauritanie,Etudes Mauritaniennes n4,IFAN-Mauritanie,Saint Louis(Sénégal), 1952,p13.

[7]- MEUNIE J.D, op-cit, p80.

[8]- Ibid, p82.

9 - ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، دار الكتب العلمية، د.ت، بيروت، ص687.

10 - مارمول إفريقيا (ترجمة مجموعة من الباحثين)، 1988، الرباط، ج3، ص198.

11 - محمد الأغظف بن الداه، الأوضاع البشرية في الحوض من سنة 1691 إلى سنة 1712، المدرسة العليا للتعليم 83-84، ص77.

12 - المرجع نفسه، ص79.

[13] - سيداتي بن بابي، المرجع السابق، ص 65.

[14] - محمد الأمين ولد أن، نظرة تاريخية على مجموع النوازل لأنبوي ولد باب احمد المحجوبي الولاتي، رسالة متريز، قسم التاريخ، جامعة نواكشوط، السنة الجامعية 1998-1999، ص14.

[15] - سيداتي بن بابي، المرجع السابق، ص 66.

[16] - ابن بطوطة، المصدر نفسه، ص 687.

17 - سيداتي بن بابي، المرجع السابق، ص 66.

18 - ابن بطوطة، المصدر السابق، ص 687.

19- للمزيد بهذا الخصوص ينظر محمد يحيى الولاتي، الرحلة الحجازية، تخريج وتعليق محمد حجي ، بيروت 1990، دار الغرب الإسلامي.

20- محمدي ولد سيد عثمان، رحلة إلى الحج، (مخطوط بمكتبة أهل سيد عثمان بولاتة).

21 - سيادتي بن بابي، المرجع السابق، ص67.

22 - المرجع نفسه، ص67.

الأعياد الدينية عند نصارى الأندلس

(نموذج التسامح الديني والتلاقي الحضاري)

د. محمد الأمين ولد أن

أستاذ تاريخ المغرب الإسلامي بجامعة نواكشوط

المقدمة

تمدنا بعض مصادر التاريخ الأندلسي بكم وافر من المعلومات والوثائق تفسح المجال أحيانا للقول بأن نصارى الأندلس تمتعوا بالاحتفال بأعيادهم ومناسباتهم الدينية في كنف السكينة والشعور بالرضا، بل وفي جو من التفاعل الإيجابي بينهم وإخوانهم المسلمين.

فقد أضفى التسامح الديني الذي تحلت به الدولة الإسلامية جوا من البهجة على الاحتفالات المقامة التي تأتي غالبا مفعمة بروح السعادة ومعبرة عن وشائج الأخوة المتمثلة في تلبية المسلمين دعوات النصارى لهم وقبولهم للهدايا بهذه المناسبات السعيدة.

ويتجلى في حرص شعراء الأندلس على تخليد تلك المظاهر الاحتفالية في قصائدهم؛ فكان لأعياد «النيروز» و«الفصح» و«العنصرة» حضور مشهود في ثنايا قصائد ومقطوعات قرضها الشعراء المسلمون في تلك المناسبة.

ويسعى هذا العمل إلى الإجابة على سؤال مهم هو: هل كانت الدولة الإسلامية في الأندلس تسمح لنصارى الأندلس بالاحتفال بأعيادهم الدينية وممارسة طقوسهم التعبدية؟ أم أنها كانت تفرض عليهم نوعا من التضييق؟ وكيف كان موقف المرجعية الدينية ممثلة في الفقهاء من الحريات الدينية الممنوحة لأقلية النصارى؟ ذلك ما نحاول الجواب عنه في هذه المقاربة المتواضعة.

كان نصارى الأندلس يحتفلون بأعيادهم ومناسباتهم دون تدخل من الدولة الإسلامية في شيء من أمورهم بل سمحت لهم بممارسة الشعائر والطقوس أثناء تلك الاحتفالات التي كانت تجري في جو من الحرية والتسامح. ويكفي أن نستدل على ذلك بحضور المسلمين لها؛ إذ كانت هذه المناسبات تظلهم مع إخوانهم النصارى؛ فكانوا يترقبون مجيئها، ويحرصون على مشاركة النصارى الاحتفال بها، مما يبعد أي شكل من أشكال التعصب والمضايقة عن حومة المسلمين والإسلام على مر التاريخ الإسلامي.

ويعترف دوفورك ببهجة الاحتفالات لدى النصارى، وذلك بقيامهم بتزيين الجدران الخارجية بأشكال جميلة، ويأتي المسلمون لمشاركتهم تلك الاحتفالات والتفرج عليها، حيث يتلقون الهدايا من النصارى في مثل تلك الأيام، بل وأكثر من ذلك يلبون دعوات النصارى لهم إلى الموائد والوجبات الخفيفة[1].

وفي هذا السياق اهتم النصارى في الأندلس بالاحتفال بعدة أعياد[2] حاولوا من خلالها إبراز مظاهر الفرح والسعادة، وقد ارتبطت أعياد النصارى في الأندلس بأحداث وقعت للمسيح عيسى بن مريم عليه السلام، ومن هذه الأعياد:

1– عيد النيروز أو رأس السنة الشمسية: كان من عادات النصارى فيه أنهم يشترون بعض اللوازم للاحتفال به كالحناء واللحم[3]، كما كانوا يضعون بهذه المناسبة حلوى وفواكه ذات أشكال وأصناف يتباهون في إعدادها وتوزيعها على الأطفال؛ لإدخال السرور عليهم وتوسيعا في الترفيه عن أنفسهم[4].

وكانت لهذا العيد مكانة كبيرة عند نصارى الأندلس حيث يتبادلون فيه الهدايا من الأطعمة وأنواع التحف، ويقومون بترك أعمالهم[5].

ولم يكن لهذا العيد أن يمر دون اهتمام المسلمين به وذلك بتمثله واستشعاره؛ فقد خلد الشاعر ابن عمار عند ما أهدى إلى المعتمد بن عباد ثوب صوف بحري يوم نيروز وكتب معه:

لما رأيتُ الناسَ يحتشدونَ في إتحافِ يومِكَ جئتُه من بابـــه
فبعثت الشمسَ شبة آياتهـــا وكسوتُ متنَ البحرِ بعضَ ثيابه[6].

لم يكن المسلمون يشاركون النصارى أعيادهم فحسب، بل كانوا يستعدون قبل قدوم العيد من أجل الاحتفال؛ وذلك بشرائهم لبعض الحاجيات اللازمة لذلك، ونورد في هذا الإطار أبياتا للشاعر أبي عبد الله محمد بن مسعود تحدث فيها عن مدى الاستعداد للاحتفال بعيد النيروز بالأندلس؛ إذ يقول:

أبا القاسمِ اسمع من عبيدكَ طرفـــــةً أبُثُّكَهَـا فأذِّن لهَـا تلِـجِ الأذُنَـــــا
دنَت ليلةُ النيروزِ منَا ولـــم تكـــن لترضى لنا فيها من العيشِ بالأدنـــى
وقالت خجولي سر إلى السوقِ واحتفل ولا تُبقِ فيهـا من جراديقـــها فنـــا
وقف بابنِ نصرٍ واحشونَّ ثمَّ قُفَّـــةً من أطرفِ ما يحويهِ كي تُذهبَ الشجنا
وجز بالفتى الجزارِ واخترهُ هابـــلاً بقد ابن فتوي أبـــي بكـــرٍ المضنـــى
ولا بُدَّ من أترجـــةٍ صَعتريـــــةٍ وإياكَ أن تنسى التوابـلَ والحنـــــا[7].

2– عيد الفصح: يعتبر من أهم الأعياد لدى النصارى الذين يسمونه بعيد خميس أبريل أو خميس العهد، وفيه يشترون المجبنات والإسفنج[8].

كان النصارى يجتمعون في الكنائس بمناسبة قدوم الفصح حيث يؤدون مراسمهم الدينية بالصلوات وتلاوة الأناجيل، ومن المفيد هنا إيراد نموذج من قصيدة طويلة للشاعر أبي عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد «توفي بألمرية سنة **480**هـ/**1087**م» صور لنا فيها مظاهر احتفالات النصارى بعيد الفصح ومشاهدة المسلمين لذلك؛ إذ يقول:

أُفصحُ وحدي يومَ فصحٍ لهم بينَ الأريطي والدويـــحـات
وقد أتوا منه إلى موعـــدٍ واجتمعوا فيـه لميـقـــاتِ
بموقفٍ بين يدي أُسقُـــفٍ ممسكِ مصبـــاحٍ ومـنسـاةِ
وكلِ قسٍ مظهرٍ للتُقَـــى بآي إنصـــاتٍ وإخبـــاتٍ
وعينُهُ تسرحُ في عينهِـــم كالذئبِ يبغِي فرسَ نعجاتِ[9].

3– عيد العنصرة: ويسميه الأندلسيون المهرجان، ويكون في الرابع والعشرين من يونيو[10]، ويوافق بداية الصيف في الأندلس، وقد خلدته أشعار كثيرة؛ إذ يقول فيه حسان بن مالك بن أبي عبدة «توفي سنة **416**هـ/**1025**م»:

أَرىَ الْمَهْرَجَانَ قَدْ اسْتَبْشَرَا غَدَاةَ بَكىَ الْمُزْنُ وَاسْتَعْبَرَا
وَسُرْبِلَتْ الأَرْضُ أَمْوَاهَهـــا وَجَلَلَت السُّندُسَ الأَخْضرا
وَهَزَّ الرِّيحُ صَنَابِيرَهـــــاَ فَضَوَّعَت الْمِسْكَ وَالْعَنْبرا
تَهَادىَ بِهِ النَّاسُ ألطـــاَفَـــهُ وَسَامَ الْمُقِـــلُّ بِهِ الْمُكْثِرَا[11].

كما تغنى أيضا بعيد العنصرة أو المهرجان الشاعر الأندلسي أبو بكر ابن اللبانة حيث وصف ما كان يقام به من أعمال احتفالية مثل لعب الأسطول المميز لذلك العيد ويقول:

بُشرى بيومِ المهرجانِ فإنَّـــــهُ يومٌ عليهِ من احتفائِـــكَ رونَـــــق

طارَت بناتُ الماءِ فيها وريشُها ريشُ الغرابِ وغيرُ ذلكَ شـــوذق[12].

كما خلدته أيضا الأمثال الشعبية الأندلسية، مثلما يتجلى في قول الزجالي: « خروجك من يناير أخير من خروجك من العنصرة »[13].

4– عيد البشارة: يحتفل به النصارى يوم الخامس والعشرين من شهر مارس لاعتقادهم أن جبريل عليه السلام بشر فيه مريم بميلاد المسيح عيسى عليه السلام، حيث يمارسون في هذا اليوم بعض العادات كالامتناع عن إقامة مراسيم الزواج[14].

5– عيد ميلاد المسيح عليه السلام: يحتفل به النصارى في الأندلس ليلة الخامس والعشرين من شهر ديسمبر، وهو من الأعياد المعظمة عندهم حيث يتبادلون فيه الهدايا وبخاصة المأكولات والحلوى[15].

6– عيد العصير: وهو من الأعياد الموسمية التي يحتفل بها النصارى، وكان وقته في الخريف عند جني العنب حيث يخرج الناس مع أولادهم وعائلاتهم إلى الحقول والبساتين القريبة، وقد ارتدوا أحسن وأجمل ما عندهم من الملابس والحلي، ويصحبون معهم أصناف المأكولات[16].

كما كانت للنصارى أعياد أخرى يحتفلون بمناسبتها ببعض القديسين وذلك تيمنا وطلبا لبركتهم، وذلك على الرغم من أنها أقل شأنا عندهم من الأعياد السابقة ومنها:

– عيد القديسة كريستينا في السادس والعشرين يوليو Santa Cristina

– عيد القديسة سيسيليا في الثاني والعشرين نوفمبر Santa Cecilia

– عيد القديس بطرس في التاسع والعشرين يونيو[17] San Pedro

لقد تمتع النصارى بالحرية في الاحتفال بأعيادهم من دون مراقبة ولا تضييق من السلطة الإسلامية، بل تم التساهل في حضور المسلمين وتفرجهم على مظاهر الاحتفال؛ إذ تؤكد المصادر الإسلامية مشاركة المسلمين الاحتفال بالأعياد الدينية، ونلمس ذلك من خلال تصوير الشعراء عبر قصائدهم لمظاهر الاستعداد والاحتفال، وتلبية الدعوات وتبادل الهدايا بين المسلمين والنصارى.

ويؤكد آنخل جنثالث بلنثيا أن المسلمين كانوا يحتفلون بأعياد غير إسلامية كعيد يناير وعيد القديس يوحنا في عصر المرابطين[18]، وهو ما يؤكد تقبل المسلمين لمبدأ الاختلاف، على الرغم من المعارضة التي أظهرها الفقهاء لذلك، حيث نظروا لهذا التساهل بانزعاج لما فيه من البدع؛ فقد تصدى الفقيه أبوبكر محمد بن الوليد الطرطوشي لذلك بقوله: « ومن البدع ..إقامة ينير بابتياع الفواكه كالعجم وإقامة العنصرة وخميس أبريل بشراء الجبنات والإسفنج، وهي من الأطعمة المبتدعة وخروج الرجال جميعا أو أشتاتا مع النساء مختلطين للتفرج »[19].

ويبدي ابن عبدون انزعاجه وغضبه الشديد من ذهاب المسلمات إلى الكنائس حيث حذر من العواقب الأخلاقية التي قد تنتج عن الاختلاط بالقساوسة داخل الكنائس، ولهذا حث على منع ذلك بقوله: « يجب أن يمنع النساء المسلمات من دخول الكنائس المشنوعة فإن القسيسين فسقة زناة لوطة »[20].

كما نجد إشارة في فتاوي ابن رشد تحدث فيها عن تحريم ما يصنع في عيد النيروز؛ فقد « سئل رضي الله عنه هل يحل عمل شيء من هذه الملاعب التي تصنع في النيروز من الزرافات والكمادين وما يشبهها، وهل ثمنها حلال ولصانعها

أم لا؟ فأجاب عن ذلك بأن قال: لا يحل عمل شيء من هذه الصور، ولا يجوز بيعها ولا التجارة بها، والواجب أن يمنعوا من ذلك »[21].

وقد ذهب الطرطوشي إلى أبعد من ذلك عند ما رأى الناس في الأندلس يقلدون ويتشبهون بالنصارى في أعيادهم؛ فقد اعتبر اجتماع الناس بالأندلس على ابتياع الحلوى ليلة سبع وعشرين من رمضان بأنه نوع من البدع المحرمة[22].

كما يشير دوفورك إلى رفض الفقهاء ومن وصفهم بالمسلمين المتزمتين لتلك الممارسات المتمثلة في مشاركة المسلمين للنصارى في أعيادهم، وتقبل الدعوات والهدايا منهم في تلك المناسبات[23].

الخاتمة:

تضعنا هذه الرحلة القصيرة بين رفوف بعض التراث الأندلسي أمام صور من التسامح الديني والتعايش السلمي بين مسلمي الأندلس والنصارى في كنف حكم إسلامي اتسع صدره للآخر للمخالف في الدين؛ فقبل احتفالات النصارى بأعيادهم ومناسباتهم الدينية. ولم يجد عامة مسلميه غضاضة في مشاطرة « مواطنيهم» النصارى سعادتهم؛ فترقبوا مناسباتهم وانضموا إلى مواكبهم وشاركوهم موائدهم وخلد شعراؤهم ذكرياتها.

ولم يكن تحريم بعض الفقهاء التفرج على احتفالات النصارى تعبيرا عن التعصب الأعمى أو رفضا للآخر، بل كان ردة فعل طبيعية ناشئة عن حساب العواقب ومناوءة للبدع ودرء للفساد والانحراف الذي يمكن أن ينتج عن الاختلاط بالقساوسة داخل الكنيسة؛ لذلك فإن التسامح والانفتاح ظل يشكل السمة المميزة للعلاقات الدينية بين المسلمين والنصارى خلال هذه المناسبات. وهو ما يسمح باستنتاجات تكرس حقيقة جوهرية رغم مظاهر الغلو والتطرف الناتجة عن سوء الفهم؛ هي أن الإسلام دين يقوم على الاعتدال والقبول بالآخر. فهل يمكن أن نتلمس على ضوء هذه الومضات مخرجا من ما يعيشه المسلمون والنصارى واليهود اليوم من تجاذب وتعصب وتنافر وتناحر أحيانا في هذا العالم المتغير والمضطرب. ولنا أسوة وقدوة في في ما كان يعامل به الرسول رسول الله صلى الله عليه وسلم النصارى واليهود، وكذلك الصحابة وتابعيهم بإحسان في المدينة المنورة ومكة وعواصم الخلافة في دمشق وبغداد وقرطبة.

الهوامش

1 -DUFOURCQ C.E, La vie quotidienne dans l'Europe médiévale sous domination arabe, Biarrizt, 1981, p75-76.

2- كان للنصارى في الأندلس أعياد مختلفة وقد حددها حفص بن البر بقوله: فإن الذي أردته من الأعياد السبعة التي أمر القانون بصيانتها فهي معروفة؛ فأول يوم منها إذ بشر جبريل الملك مريم بميلاد المسيح، واليوم الثاني إذ ولد المسيح، والثالث إذ ختن إلى ثمانية أيام، والرابع إذ ظهر للهجين، وأهدوا إليه ذهبا ولوبانا ومرا، وهو يوم النجم، والخامس يوم الفصح إذ قام عند القبر، والسادس إذ تخطفته السحابة، ورقى إلى السماء بمحضر الحواريين، والسابع إذ نزل روح القدس على الحواريين، وتكلموا بجميع الألسن، القرطبي =شمس الدين محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري، الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام وإثبات نبوة نبينا عليه الصلاة والسلام، تحقيق أحمد حجازي السقا، دار التراث العربي، القاهرة، 1980م، ص 424-425.

3- الزجالي أبو يحي عبد الله بن أحمد القرطبي، أمثال العوام في الأندلس، تحقيق وشرح ومقارنة محمد بن شريفة، منشورات وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي، الرباط، د.ت، ق2، ص328.

4- عصمت عبد اللطيف دندش، دراسات أندلسية في السياسة والاجتماع، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 1430هـ/2009م ، ص184-185.

5- الونشريسي أبو العباس أحمد بن يحيى، المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي إفريقية والأندلس والمغرب، إشراف محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1401هـ/1981، ج11، ص150.

6- ابن الأبار أبو عبد الله بن محمد القضاعي، الحلة السيراء، تحقيق حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1985م، ج2، ص162.

7- ابن بسام أبو الحسن علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق سالم مصطفى البدري، دار الكتب العلمية، بيروت، ط1، 1419هـ/1995م، ج1، ص351.

8- الطرطوشي أبو بكر محمد بن الوليد الفهري، الحوادث والبدع، إشراف لجنة التحقيق بدار الفتح، الشارقة، ط1، 1415هـ/1995م، ص117 / سحر السيد عبد العزيز سالم، المرجع السابق، ص73.
9- ابن بسام الشنتريني، المصدر السابق، ج1، ص439.
10- المقري شهاب الدين أحمد بن محمد التلمساني، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، طبعة جديدة، بيروت، 1997، ج3، ص128.
11- ابن خاقان أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله بن خاقان القيسي، مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، دراسة وتحقيق محمد علي شوابكة، دار عمار، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1403هـ/1983م ، ص214.
12- عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة، 1963، ص 215-216.
13- الزجالي، المصدر السابق، ق2، ص205.
14- محي الدين صفي الدين، المستعربون ودورهم في تاريخ الأندلس، مذكرة ماجستير، إشراف عبد القادر بوباية، قسم التاريخ، جامعة وهران، السنة الجامعية: 2007-2008، (غير منشورة)، ص55.
15- DUFOURCQ., op-cit, p75.
16- عصمت عبد اللطيف دندش، المرجع السابق، ص189.
17 -SIMONET francisco javier - historia de los mozarabes de espana- madrid 1897- 1903; p616.
18- بالنثيا آنخل جنثالث، تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 1955م، ص21.
19- الطرطوشي أبو بكر محمد بن الوليد الفهري، الحوادث والبدع، إشراف لجنة التحقيق بدار الفتح، الشارقة، ط1، 1415هـ/1995م، ص117.
20- ابن عبدون محمد بن أحمد بن عبدون التجيبي وآخرون، ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، نشرها إ. ليفي بروفنسال، مطبعة المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، 1995، ص55، ص49.
21- ابن رشدأبو الوليد محمد بن أحمد، فتاوي ابن رشد، تقديم وتحقيق المختار الطاهر التليلي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط1، 1407هـ/ 1987م ، ج2، ص940.
22- الطرطوشي، الحوادث والبدع، ص117.
23 -DUFOURCQ., op-cit , p76.

الخلافات والمنازعات في المجتمع الجزائري
خلال العهد العثماني(10-13هـ/16-19م)

د.بوشنافي محمد
جامعة الجيلالي ليابس- سيدي بلعباس- الجزائر

تجمع معظم المصادر على أن الأوضاع الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع الجزائري أثناء العهد العثماني عرفت نشاطا حثيثا، برز في كثرة المعاملات التجارية و المصاهرات و الطلاق وغيرها، كما تدعم وثائق المحاكم الشرعية وسجلات البايليك وبيت المال هذا الرأي، من خلال ما كان يسجله القضاة، سواء الأحناف والمالكية، الذين ساهموا في تنظيم هذا الحراك الاقتصادي والاجتماعي، غير أن ذلك النشاط لم يخلو من مشاكل عرقلت سيره الحسن، وخاصة من خلال ما كان ينشب من خلافات ونزاعات بين أفراد المجتمع، سواء داخل العائلة كقضايا الطلاق أو الميراث، أو ما كان ينجر عن المعاملات الاقتصادية من خلافات بسبب الديون أو البيع والشراء، أو تلك المنازعات التي كانت تنشب من حين لآخر بسبب مشاكل العمران وغيرها، وسنحاول من خلال هذه الدراسة أن تبرز الأسباب التي كانت تؤدي إلى الخلاف وكيف استطاع القضاء معالجتها، معتمدين في ذلك على ما تقدمه لنا وثائق المحاكم الشرعية من معلومات في هذا المجال.

أ- الخلافات حول الميراث:

كان تقسيم تركة المتوفين كثيرا ما يؤدي إلى مشاحنات وخلافات بين الورثة، مما يتطلب طرح القضية أمام السلطة القضائية، كالقاضي الحنفي أو المالكي أو من يقوم مقامهما حتى يتحصل كل ذي حق على حقه من الإرث.

وكان يسبق تقسيم التركة إجراءات يقوم بها أهل الميت للحصول على إذن رسمي يتيح لهم دفن فقيدهم، حيث من المعروف أنه كان يمنع منعا باتا دفن أي شخص دون الحصول على ترخيص لذلك. أما الموظف المكلف بمنحه فكان يدعى بيت الماجي، والذي تسميه الوثائق الشرعية بـــ " الناظر وقت تاريخه على شغل المواريث المخزنية وبيع ما هو على ملك بيت المال عمّره الله تعالى من دور وأراضي وجنات داخل البلد المذكور وخارجه بإذن من له ذلك شرعا ومفوض إليه فيما ذكر التفويض التام".[1]

كان بيت الماجي من الموظفين السامين في الإدارة العثمانية، يشرف على الممتلكات والثروات التي تصبح ملكا لخزينة الإيالة بعد وفاة أصحابها أو مغادرتهم دون عودة أو فقدانهم دون أن يُعثر لهم على أثر بشرط ألا يكون لهم ورثة يرثونهم، و يشترط في متوليه أن يكون تركيا بالأصل [2]، ومن أفراد الجيش الانكشاري، بحيث كان في بداية عهده يُختار من الضباط برتبة آغا، ولكن مع نهاية النصف الأول من القرن الثامن عشر أصبح يُختار من الضباط من صف البلوكباشي.[3]

يخبرنا حمدان خوجة أنه بمجرد حصول الوفاة، يتوجه أهل الميت إلى هذا الموظف لتقديم معلومات مفصلة عن ممتلكاته وأسماء ورثته حتى يتسنى تحديد حقوقهم ولو كانوا غائبين، وبناء على ذلك يعين قاضي المواريث رفقة أحد المسؤولين السامين وكيلا ينوب على الورثة، كما يعين وصيا على الأطفال القصر إن وجدوا، ثم ينفذ وصية الميت إن وجدت بعدما يوثقها ويتأكد من صحتها.[4]

بعد استكمال إجراءات تحديد الورثة الشرعيين وقيمة التركة من قبل بيت المالجي وقاضي المواريث، يمنح إذن رسمي بحمل الميت إلى مثواه الأخير، وهنا يجب التأكيد على أن مقابر مدينة الجزائر كانت موجودة خارج الأسوار، وهكذا فإن كل جنازة كانت مضطرة للخروج عبر أحد الأبواب الخمسة للمدينة[5]، وبالتالي خضوعها لمراقبة أحد الموظفين التابعين لبيت المالجي للتأكد من وجود تسريح بالدفن[6]، وأثناء ذلك يتوجه موثقان إلى بيت المتوفى لجرد الممتلكات الموجودة هناك، أما الأشياء الثمينة كالأموال والذهب وغيرها فتوضع في مكان أمين خوفا عليها من الضياع أو السرقة ريثما يحضر الورثة أمام القاضي ليوزعها عليهم.[7]

وإذا كان تقسيم الميراث يتم في كثير من الأوقات في ظروف عادية وبرضا كل الأطراف، فإن وثائق المحاكم الشرعية تطلعنا على حالات من سوء التفاهم بين الورثة حول أصحاب الحق في الحصول على الإرث أو نصيب كل واحد فيه، وبالتالي اللجوء إلى القضاء لحل الخلاف وفق نصوص الشرع، وإذا استعصى ذلك على القاضي، تطرح القضية على أهل الإفتاء أو المجلس العلمي ليبث فيها ويجد لها مخرجا شرعيا[8] ،وفي هذا المجال عالج قايد وطن الخشنة خلافا بين ورثة المتوفى محمد بن علي، والمتمثلين في عصبه وهما محمد بن سالم وسالم بن محمد، وبين المدعو محمد شاوش بن مصطفى وكيل الولية فاطمة بنت شعبان زوجة المتوفى. أما موضوع النزاع فكان عقارا يقع "بزمام جواب من وطن الخشنة نظر محروسة الجزائر"، فكان أن ادعى محمد وسالم أن المتوفى خلَف إلى جانبهما زوجتين، الأولى كانت فاطمة الموكلة، أما الثانية فتدعى مريم بنت أشكير، وبالتالي فإن لكل واحدة منهما ثُمُن العقار، كما ادعيا أن على المتوفى دين قدره مائة وأربعة وستين دينارا، منها تسعة دنانير لزوجته فاطمة، وكان ذلك من خلال وثيقة محررة بخط القاضي المدعو علي. قرر القايد وبحضور عدد من الشهود تقسيم قيمة الدَين على الورثة، فكان نصيب الزوجة فاطمة واحد وعشرون دينارا، أُسقطت منها تسعة دنانير التي كانت دينا على زوجها، فبقي لها أن تدفع اثني عشرة دينارا وتحصل على نصيبها من الإرث، وقد دفعها عنها وكيلها من ماله الخاص[9]

ومن الحالات التي كانت تؤدي إلى وقوع خلافات بين الورثة، حسبما تبرزه الوثائق، مطالبة زوجة المتوفى بحقها في الميراث إلى جانب مؤخر صداقها الذي تم الاتفاق عليه في عقد الزواج، وفي هذه الحالة يلجأ الجميع إلى القاضي ليمنح كل ذي حق حقه، وهو ما حدث بين عائلة أحد المتوفين وزوجته التي طالبت بقيمة مؤخر صداقها ونصيبها من التركة التي اشتملت على مبلغ من المال وأثاث منزلي وفراش.[10]

وإذا أمكن إيجاد حل لكثير من قضايا الميراث من قبل القاضي وفي وقت وجيز، فإن الوثائق تطلعنا على قضايا أكثر تعقيدا وتداخلا، مما كان يدفع القاضي إلى التريث في إصدار حكم بشأنها، ريثما يطَلع على كتب الفقه [11] وآراء المذاهب الفقهية، فيكون حكمه مستندا على نص شرعي، ومن نماذج هذه القضايا المعقَدة تلك القضية التي طرحت أمام القاضي الحنفي لمدينة الجزائر الشيخ عبد الله السيد محمد أفندي، وكانت عبارة عن دعوى رفعها ابن بنت عم متوفية تدعى سلطانة، يدَعي فيها بأنه الوريث الوحيد والشرعي لها، وأن أولاد خالها محمد ومصطفى لا نصيب لهما في الإرث، فما كان من القاضي إلا أن درس القضية من كل جوانبها، ثم أصدر حكمه فيها معتمدا على مذهب أبي حنيفة النعمان، ومضمونه أن الأحق في ميراث سلطانة هما أبناء خالها بالرحم لأنهما أقرب إليها من ابن بنت عمها " ولا حق له معهم فيه أصلا بوجه ولا حال"[12]

كما صادفنا حالات أخرى من أسباب الخلاف حول تقسيم الميراث، وتتمثل في رفض أحد الأطراف الحضور إلى المحكمة لتسوية الخلاف مع خصومه، مما كان يضطر القاضي إلى استدعائه للحضور فورا أمامه مهددا إياه باستعمال القوة

لإحضاره إلى المحكمة، وهذا ما يبرز الجدية التي انتهجتها السلطة القضائية للمحافظة على حقوق الناس، وخاصة في شأن الميراث، فقد أرسل قاضي المواريث لتلمسان إعذارا إلى المدعوان محمد بن مزيان وآمنة بنت سعيد يأمرهما بالحضور إلى المحكمة مرفقان بتركة المرحوم محمد بن المختار حتى يتسنى له توزيعها بين الورثة الشرعيين للمتوفى، كما منحهما آجالا لا تتعدى ثلاثة أيام، وبعد ذلك سيحضر إليهما بنفسه صحبة قوة من المخزن لتنفيذ الحكم.[13]

وكان نفس القاضي قد أرسل إلى المدعو البشير وأبيه مقران أمرا قضائيا يطالبهما فيه بإنهاء الخلاف مع أقربائهما حول الميراث، مؤكدا أن حكم القاضي الذي تحصلا عليه، والذي ارتكزا عليه لإثبات أحقيتهما في الميراث باطل ولا أساس له من الصحة [14]. ونظر نفس القاضي في قضية ميراث أخرى تضمنت اتهاما وجهه بعض الورثة إلى خصومهم، يتهمونهم فيه بالاستحواذ على بعض تركة أحد المتوفين، واشتملت على " يطقان (سيف) وكابوس (مسدس) ومكحلة (بندقية) ". غير أن هؤلاء اعتبروا هذه الدعوى باطلة، وأنكروا كل هذه التهم مؤكدين استعدادهم للوقوف بين يدي القاضي لإثبات براءتهم.[15]

ب– الخلافات حول الأوقاف:

تزخر وثائق المحاكم الشرعية بعدد معتبر من القضايا التي كان يعالجها القضاة في شأن الخلافات حول تسيير الأوقاف واستغلالها، أو في محاولة بعض الأشخاص إلغاء عقد الوقف وإرجاع العقار الموقوف ملكا كما كان في بداية أمره، وقد يكون الخلاف حول طبيعة العقار، أي هل هو محبس أم العكس، وكثيرا ما يكون أحد طرفي النزاع الوكيل المكلف بالإشراف على الأوقاف، أي ناظر المواريث المخزنية، ويكون الفاصل في هذا النوع من القضايا في أغلب الأحيان المجلس العلمي، الذي ينظر في كل جوانب القضية ويقارن بين أقوال وبراهين الأطراف المتنازعة، وبناء على ذلك يصدر حكمه.

ومن أمثلة هذا النوع من القضايا، قضية طرحت أمام السيد مصطفى باي التيطري –أحد البايليكات الثلاثة للجزائر إلى جانب دار السلطان–، وكان المتخاصمان فيها كل من "الزكي السيد العربي بن المرحوم السيد الخلادي نجل الشيخ البركة سيدي بن طيبة الحاج" الذي ناب عن نفسه، والمكرم مبارك بن محمد الذي ناب عن ورثة المرحوم السيد محمد بن الحاج بن السيد الخلادي، أما موضوع الخلاف فكان أرض زراعية تقع بوطن القبة القريبة من مقبرة سيدي بن يحيى، حيث ادَعى السيد العربي أنها محبسة، غير أن السيد مبارك أنكر عليه ذلك، فما كان من الباي إلا أن وجههما إلى القاضي طالبا منه عقد مجلس علمي لينظر في القضية. وبانعقاده قدم كل طرف حجته، فقدم السيد العربي وثيقة مسجلة بمحكمة المدية عليها ختم قاضيها، تبين بشهادة شخص يدعى أحمد بن الكرد أن الأرض موقوفة، أما الوكيل فأظهر وثيقة أخرى بيّن من خلالها تراجع أحمد بن الكرد عن شهادته، وبعد قراءة أعضاء المجلس للوثائق والتأكد من صحتها، حكموا ببطلان الوقف[16]

وتخبرنا قضية أخرى عن خصام وقع بين أخوين من الأب، يدعيان عاشور وأحمد، وسبب الخلاف قطعتي أرض زراعيتين مورثتين عن الأب، فقد ادَعى عاشور أن والدهما أوقفهما عليه وعلى ذريته من بعده، أما أحمد فأنكر عليه ذلك وادعى أنهما ملك، وأن والدهما لم يحبسهما في حياته، وبالتالي فإن له نصيب فيهما. وبعد طرح القضية على المجلس العلمي المنعقد بالجامع الأعظم في مدينة الجزائر، أظهر عاشور عقدي القطعتين " فقرأوهما قراءة تمعن وتدبر فألفوا مضمنها أن والدهما... حبسهما أولا على نفسه وبعده على ابنه عاشور المذكور وذريته وذرية ذريته كما ذكر"، فاستقر رأي العلماء

على أن الحبس المذكور على عاشور صحيح، وأن دعوى أحمد باطلة، وأشاروا على القاضي الحنفي بإصدار حكمه بناء على رأيهم[17]

غير أن الخصام في هذا النوع من القضايا قد يتوسع لينتقل من خلاف بين الأفراد إلى نزاع بين جماعات، وهذا ما تطلعنا عليه وثيقة قضائية حررها القاضي الحنفي أبو الفرج السيد الحاج مفتاح أفندي، ومضمونها نزاع نشب بين جماعتين هما: الأشراف من أولاد سيدي يحي وجماعة اللبابدة حول أرض تقع في وطن بني جعد، فادعى الأشراف أن الأرض موضوع النزاع وقف عليهم، ودعموا موقفهم بعقد يثبت ذلك إلى جانب عدد من الشهود، غير أن اللبابدة ادعوا أنه توجد ضمنها أجزاء لا تدرج ضمن الوقف، وهي ملك لهم تحصلوا عليها عن طريق الشراء، كما أنه طعنوا في مصداقية العقد الذي أظهره الأشراف بحجة أنه"زور وافتراء وعمل باليد فقط"[18]

وسعيا منه لإنهاء الخلاف أرسل القاضي جماعة من الشهود مع العقد الذي أحضره الأشراف إلى الأرض المتنازع عليها، ورافقهم إليها شاهدان عدلان من المحكمة إلى جانب ضابط من الجيش الإنكشاري برتبة " أصباحي". وهناك أدلى الشهود بأن الأجزاء التي يدَعي اللبابدة ملكيتها تندرج ضمن الأرض الموقوفة على الأشراف، وعلى أساس هذه الشهادة حكم القاضي بأن الأحق بملكية الأرض هم الأشراف، وذلك اعتمادا على العقد المبيَن وشهادة الشهود.[19]

تبرز لنا هذه القضايا وغيرها أن ظاهرة الوقف عرفت انتشارا واسعا خلال العهد العثماني، فكان من الطبيعي أن ينتج عن ذلك خلافات وخصومات بين المنتفعين من الأوقاف، كما أن رغبة بعض الأطراف في الاستحواذ عليها أو استغلالها لصالحهم الخاص، كان يؤدَي إلى تدخل السلطة المشرفة على تسيير هذه الأوقاف من خلال ناظر المواريث المخزنية، الذي كان يلجأ إلى السلطة القضائية حتى يتمكن من إبقاء الوقف للغرض المخصص له.

2– الخلافات الزوجية[20]

نالت الخصومات الزوجية نصيبا هاما من القضايا التي كان يعالجها القضاة يوميا، سواء منهم الأحناف أو المالكيين، وكانت أسبابها متعددة ومتنوعة. وإذا كان بعضها يؤدي إلى الطلاق، فإن بعضها الآخر كان يتم تسويته من قبل القضاة من خلال حلول شرعية ترضي كل الأطراف.

وكان توكيل الزوجة لزوجها بغرض تسيير واستغلال أملاكها وأموالها، كثيرا ما يؤدي إلى وقوع خلاف بين الزوجين، إذا أحست الزوجة بأن زوجها لم يكن أمينا على ما كلف بالإشراف عليه، وهذا ما تخبرنا به وثيقة صادرة عن المجلس العلمي لمدينة الجزائر، ومضمونها أن امرأة تدعى الزهرة بنت إبراهيم البليدي ادعت أنها وكَلت زوجها المدعو عمر (معزول آغا) منذ خمسة وعشرين عاما ليقبض عنها كراء الأماكن و الممتلكات التي أوقفها عليها أسلافها، والتي اشتملت على أراضي وأبقار وأغنام وخيول ومحاصيل زراعية وعمّال وغيرها، غير أنه يظهر أنها لم تحصل على المبلغ كاملا، فحاول الزوج أن يبرز ذلك بأنه قبل سفره لأداء فريضة الحج، دفع لزوجته بحضور عدد من الشهود، مبلغا قدره مائة دينار كلها ذهبا سلطانية لكي تنفق على نفسها وعلى ابنها، أما ما هو موجود معه من أموال فهي ملكه الخاص[21] .

طرحت القضية أمام المجلس العلمي المنعقد بالجامع الأعظم في مدينة الجزائر، غير أن أي طرف لم يستطع أن يقدم بيَنة تدعم قوله، فاقترح أعضاء المجلس "أن الأفيد والأصلح بين من ذكر الصلح الذي سماه الله خيرا، ووعد النبي – صلى الله عليه و سلم– أجرا، لعدم ثبوت ما ذكر من الجانبين"، أما محتوى الصلح فتضمن " أن المائة دينار الواحدة المسطورة الموضوعة تحت يد الزهرة المذكورة... الباقية الآن هي لها ومن مالها الخاص بها مع جميع شطر العمارة الكائنة الآن بالحوش

المشار إليه المشتملة على ما ذكر قبل ذلك كل منهما، ورضي به وجعلوه صلحا قاطعا لجميع الدعاوى كلها وحاسما لمادته ولا مزيد على ذلك".[22]

د– المنازعات المالية:

لم تخل المعاملات التجارية مثل البيع والشراء والإقراض من المشاكل، فكثيرا ما كانت تؤدي إلى حدوث خلافات بين المتعاملين تستدعي تدخل السلطة القضائية لإيجاد حل لها، ومن نماذج هذا النوع من القضايا قضية طرحت أمام المجلس العلمي "لقرية البليدة" حول مبلغ مالي ناتج عن بيع دار، حيث ادعى المدعو عبد القادر أن له بذمة المدعو دالي علي وكيل الحرج خمسين ريالا ناتجة عن بيع الدار، غير أن دالي علي أنكر عليه ذلك مدعيا بأنه تخالص معه في الثمن المذكور، وأظهر أمام أعضاء المجلس عقدا قضائيا يثبت قوله، وبعد التأكد من صحته حكموا بأن لا حق لعبد القادر في ثمن الدار، ورغَبوا المتخاصمين في الصلح، حيث صالحوا بينهما صلحا صيغته "أن دالي علي يعطي لعبد القادر ريالا واحدا ويسقط عنه دعواه، فرضي القائم بذلك والتزم قبض الريال المذكور القبض التام" [23]

وفي قضية أخرى مشابهة طرحت أمام القاضي المالكي لمدينة الجزائر تخاصم المدعو محمد البجائي بن عبد العزيز القاطن بالبليدة مع الولية فاطمة في ثمن جنة –بستان–، اشتراها محمد من فاطمة وابنها قويدر بثمن قدره عشرون دينارا ذهبا سلطانية، وادعى أنه سلمها المبلغ كاملا، غير أنها أنكرت عليه ذلك وادعت بأنها لم تقبضه منه، وإنما سلمه لشخص يدعى محمد نعمان الذي دفعه إلى حاكم البليدة كغرامة على مخالفة ارتكبها مطلق فاطمة بغير إذن منها ولا رضاها. ولتبرير قوله قدَم للقاضي عقدا مسجلا بمحكمة البليدة، غير أنه لم يتضمن اسم فاطمة ولا أسماء الشهود الذين حضروا عملية التسليم، ولما سأله القاضي عن كيفية الدفع، اعترف أنه دفعه للشيخ نعمان الذي دفعه بدوره لحاكم البليدة للغرض الذي سبق ذكره، وعلى ضوء ذلك حكم القاضي على محمد برد الجنة –البستان– إلى فاطمة وابنها دون مطالبتها بالمبلغ المذكور، بل يطالب به من قبضه منه، أما فاطمة فأرجعت إلى محمد اثني عشرة دينارا ذهبا سلطانية كانت قد قبضتها منه على وجه البيع.[24]

تبرز لنا الخلافات ذات الصلة بالجوانب المالية أن الاقتصاد الجزائري عرف آنذاك نشاطا ملحوظا، وأن السلطة القضائية ساهمت في ضمان حقوق كل الأطراف، فانتشر التداين داخل المجتمع، وحتى مع أهل الذمة كما تبرز الوثائق، وإذا كانت بعض المشاكل الناجمة في تأخر التسديد تطرح أمام القضاء، فإن بعض المستدينين كانوا يلجأون إلى التفاهم مع المقرضين للتوصل إلى حل يرضي الطرفين، وهذا ما حدث للسيد محمد بن جلبي الذي اقترض مبلغا ماليا قدره ثلاثة آلاف دينار جزائرية خمسينية من المدعوة حسني بنت عبد الله، ولما عجز عن تسديد المبلغ في آجاله المحددة، اتفق معها على رهن فرن مخصص لطهي الخبز، تستغله لمدة عشرين عاما، وبعد وفاته اضطر ورثته إلى التنازل لها عن الفرن نهائيا.[25]

هـــ– المنازعات العقارية:

لم يقتصر نظر القضاء في قضايا الأحوال الشخصية كالميراث والزواج والطلاق وقضايا المعاملات من بيع وشراء وغيرها، بل امتد إلى الجوانب العمرانية والمدينة، فنجده يتدخل في قضايا البناء من خلال التأكد بأن ذلك لن يعيق حركة المرور مثلا، بحيث يشترط أن يترك مجال لمرور السكان و الدواب محملة بالبضائع، كما يجب ألا يسبب هذا البناء مشاكلا للجيران، كأن يمنع عنهم أشعة الشمس، أو يمكَن صاحبه من الاطلاع على حرماتهم من خلال فتح باب أو نافذة في أحد جدرانه.

كما كان القاضي يتأكد من أن ورشات الحرف كالخياطة والدباغة والحدادة والخزف، أي الحرف الوضيعة، لا تشكل إزعاجا للسكان القريبين منها بسبب ما ينبعث عنها من أصوات مزعجة وروائح كريهة، وإذا طرحت عليه قضية من هذا النوع، فإنه كثيرا ما كان يستعين بأهل الخبرة من أمناء الحرف والبنائين، وبناء على شهادتهم يصدر حكمه.(26)

ومن الأسباب التي كانت تؤدي إلى طرح هذا النوع من القضايا، ادعاء كل طرف ملكيته لعقار معين، مما يتطلب تدخل السلطة القضائية التي تفصل في القضية وفق تقرير الخبرة الذي ينجزه المكلفون بذلك، فقد ترافع كل من المدعو إسماعيل التركي بن قارة الإنكشاري، رقم أوجاقه مائة وثمانين، والسيد محمد باش شاوش وكيل أوقاف الحرمين الشريفين أمام القاضي الحنفي لمدينة الجزائر. وكان سبب الخصام حائط يصل بين دار إسماعيل وفندق محبس على فقراء الحرمين الشريفين، حيث ادعى كل طرف ملكيته لهذا الحائط، فما كان من القاضي إلا أن كلف بعض أمناء البنائين الذين توجهوا إلى المكان محل الخلاف "وأمعنوا نظرهم فيه إمعانا قايما، فوجدوا أن الحائط خاص لإسماعيل المذكور ولا دخل لصاحب الحبس المذكور". وبناءا على هذا التقرير حكم القاضي لصالح إسماعيل الذي قام بترميم الحائط، مما دفع الوكيل إلى رفع دعوى قضائية أخرى ضده، مدعيا فيها بأنه تعدى على حرمة الفندق، ولهذا ترافعا للمرة الثانية أمام نفس القاضي، الذي توجه بنفسه إلى مكان الخلاف رفقة أهل الخبرة، وهناك حكم مرة أخرى لصالح إسماعيل.(27)

وكان استغلال المرافق العمومية المشتركة بين السكان، كالمزابل والممرات، كثيرا ما يسبب خلافات بين الجيران نتيجة منع أحد الأطراف من حقه في استعمال هذا المرفق، وقد يصل الخلاف إلى حد تدخل القاضي أو أهل الرأي للفصل بين المتخاصمين، وتطلعنا وثيقة قضائية أن خلافا وقع بين أخوين يدعيان الحاج أحمد بن محمد بن التواتي ومحمد بن يسر بن حمزة من جهة وجارتهما فاطمة بنت محمد من جهة أخرى، التي مُنعت من استغلال مزبلة تقع على يسار دارها وملاصقة لها، وكانت قد احتجت على الأخوين بأن من سكن الدار قبلها كان ينتفع بهذه المزبلة. طرحت القضية على القضاء لمرات عديدة دون صدور حكم نهائي فيها، حتى تدخل بعض أهل الصلح والشهود وصالحوا بين المتخاصمين، فسُمح لفاطمة باستغلال المزبلة.(28)

وكان الطراز المعماري لمدينة الجزائر المتميز بضيق الأزقة وتداخل المباني، كثيرا ما يسبب خلافات وخصومات بين الجيران، وخاصة إذا تضرر أحد الجيران من أشغال البناء التي يقوم بها جاره، كتعاليه في البنيان مما يمنع أشعة الشمس من الوصول إلى داره، أو تمكن جاره من الاطلاع على حرمة بيته، وفي هذا الإطار ترافع جاران، أحدهما يدعى أحمد والآخر أبو العباس أمام القضاء، ومضمون القضية أن أحمد اشتكى من تضرر جدار بيته نتيجة أعمال البناء التي كان ينجزها أبو العباس في دار مهدمة تقع قرب مسجد خضر باشا بجهة باب عزون في طريق غير نافذة، أما سبب الضرر فكان "مرور بغال مالك الخربة بالأحمال من الجير والآجر لكون السكة لا تسمح مرور البغال بالأحمال الكبار لضيقها، وإنما تسع مرور الحمير بما خف من الأعمال"(29)، ولذلك قرر منع مالك الخربة–أي الدار المهدمة– من المرور خوفا من سقوط الجدار، إلا أن هذا الأخير أكد أنه لا ضرر على جدار جاره من مرور البغال بالأحمال.

طرحت القضية أمام القاضي الذي قرر الاستعانة بأهل الخبرة، فاستدعى لهذا الغرض أمين الأمناء وأمين البنائين اللذين أرسلهما مع المتخاصمين إلى المكان موضوع الخلاف، وبمجرد وصولهما إلى هناك قاما بقياس عرض الممر "فألفيا عرضهما –أي السكة– ستة أشبار إلا ثلاثة أصابع بشبر الرجل الوسط وذلك من غار بالبيت القائم المذكور للحائط المقابل له"، ووفقا لذلك أعلنا أن الممر يتسع لمرور البغال، وبالتالي لا خوف على حائط المشتكي، غير أنهما نصحا مالك

الخربة بالتقليل من أحمال البغال وإصلاح ما تضرر من جدار جاره. وهكذا تصالح المتخاصمان أمام القاضي بناء على هذا التقرير.[30]

ومن المشاكل ذات الصلة بموضوع المنازعات العقارية التي كانت تطرح أمام القضاء، تذكر الوثائق الشرعية قضية حقوق المرور عبر أراضي ملك للغير، فلقد كان كثير من السكان يضطرون إلى عبور أرض ملك لشخص آخر حتى يتمكنوا من الوصول إلى أراضيهم، غير أن بعضهم كان يُمنع من ذلك، مما يضطره إلى رفع دعوى قضائية حتى يبطل هذا المنع، وقد عالجت المحكمة الحنفية لمدينة الجزائر قضية من هذا النوع، كان أطرافها المدعو إبراهيم بن الطيب وشركائه أولاد قاسم ضد الولية آمنة بنت مخلوف التي وكلت أخاها محمد بن مخلوف، وكانت قد منعت من الوصول إلى أرضها التي أوقفها عليها زوجها. وأمام القاضي الحنفي السيد أحمد أفاندي أظهر الوكيل محمد عقد الحبس، فوجده القاضي متضمنا للممر موضوع النزاع، ولذلك أمر الجميع بالتوجه إلى مكان الخلاف، وهناك قام كاتبه بقراءة العقد أمام عدد من الشهود الذين اتفقوا على حق آمنة في المرور عبر تلك الطريق.[31]

وهناك قضية أخرى مشابهة تخاصم فيها المدعو شعبان بن ناصف مع المدعو محمد بن الحاج حول حق المرور عبر طريق تقع في أرض ملك للمدعو شعبان، فادعى محمد أن الطريق موضوع الخلاف قديمة كان يمر عبرها منذ زمن طويل، غير أن شعبان أنكر عليه ذلك مدعيا أنها مستحدثة، وأمام القاضي أثبت محمد بالدليل القاطع والبرهان الثابت أن الطريق قديمة، ولهذا حكم له القاضي بحقه في المرور عبر الطريق موضوع النزاع.[32]

وخلاصة، فإن اطلاعنا على وثائق المحاكم الشرعية أمكننا من معرفة الأسباب التي كانت تؤدي إلى الخلافات والمنازعات داخل المجتمع الجزائري خلال العهد العثماني، وهي أسباب لا تختلف عن تلك التي تطرح على المحاكم في الوقت الحاضر، كما أن القضاء، سواء الحنفي أو الملكي ساهم بدور فعال في حل هذه الخلافات، بحيث إذا كانت القضية بسيطة، فإن القاضي يحكم فيها مباشرة، أما إذا كانت معقدة فإنه يلجأ إلى أهل الإفتاء أو كتب الفقه، في حين إذا كانت قضية تقنية كقضايا العمران فإنه يستعين بأهل الخبرة من بنائين وغيرهم، إلا أن دورهم لم يكن إلا استشاريا فقط.

الهوامش

(1) أنظر مثلا سجلات المحاكم الشرعية، علبة 2/26، وثيقة 40.
(2) خوجة حمدان بن عثمان، **المرآة**، تقديم وتعريب وتحقيق دودو أبو العيد، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1982، ص134.
(3) غطاس عائشة، **الحرف والحرفيون بمدينة الجزائر 1700- 1830، مقاربة اجتماعية اقتصادية**، رسالة دكتوراه، جامعة الجزائر، 2000-2001، ص ص 126-127.
(4) خوجة حمدان، **المصدر السابق**، ص 134.
(5) وهي: باب الجزيرة –باب البحر- باب عزون- باب الجديد- باب الواد.
(6) Laugier, de Tassy. **Histoire du Royaume d'Alger**, édition Loysol, Paris, 1992, P.142.
(7) خوجة حمدان، **المصدر السابق**، ص 135.
(8) كان المجلس العلمي يتشكل من المفتي والقاضي الحنفيين ونظيريهما المالكيين، وعدد من الموثقين (باش عدل) وضابط عسكري برتبة " باش يايا باشي". كان يجتمع كل يوم خميس بالجامع الأعظم لمدينة الجزائر، غير أن دوره كان استشاريا فقط.
(9) م ش، ع 141، و54.
(10) المكتبة الوطنية الجزائرية، قسم المخطوطات، مجموعة 2316، وثيقة 3.
(11) يشكل كتابا "الموطأ" و "المدونة الكبرى" المصدرين الأساسيين بالنسبة لأتباع المذهب المالكي، في حين يشكل كتاب "مختصر خليل" أهم مصدر لأتباع المذهب الحنفي، إلى جانب كتاب أبا يوسف وآراء علماء بلخ حسبما تذكره الوثائق "... معتمدا في ذلك على مذهب الإمام أبي يوسف ومشايخ بلخ..." أنظر: م ش، ع 34، و3.
(12) م ش، ع 34، و23.
(13) المكتبة الوطنية الجزائرية، قسم المخطوطات، مجموعة 2316، وثيقة 35.
(14) المكتبة الوطنية الجزائرية قسم المخطوطات، مجموعة 2316، وثيقة 45.

(15) نفس المجموعة، وثيقة 46.
(16) م ش، ع34، و85.
(17) م ش، ع 2/26، و11.
(18) م ش، ع34، و5.
(19) نفسه.
(20) لمزيد من التوضيح حول هذا الموضوع راجع: حماش، خليفة،" مضرات الزوجة من الزوج في مدينة الجزائر في العهد العثماني"، **المجلة التاريخية العربية للدراسات العثمانية**، العددان 37-38، ديسمبر 2008، تونس، ص ص 57-73.
(21) م ش، ع 28، و6.
(22) نفسه.
(23) م ش، ع 104-105، و 59.
(24) م ش، ع58، و52.
(25) غطاس، عائشة، **المرجع السابق**، ص319، 320.
(26) كان دور أهل الخبرة استشاريا فقط، وهذا ما تبينه العقود القضائية من خلال عبارة "... ونص شهادتهم-أي أهل الخبرة- أن القيمة المبذولة في عناء ساحة الدويرة قيمة عدل وسداد لا غبن فيها" أنظر: م ش، ع 141، و48.
(27) م ش، ع 51، و44.
(28) م ش، ع 95، و20.
(29) م ش، ع 109-110، و116.
(30) نفسه.
(31) م ش، ع1/26، و6.
(32) م ش، ع141،و97.

ليفي بروفنسال ومِنْهَجُه في تحقيق كتاب أعمال الأعلام

د. بوشريط أمحمد، جامعة معسكر – الجزائر

مقدمة: لا يخامرنا الشّك أنّ الاستشراق كان له دور فاعل في إحياء تراثنا الإسلامي، وبخاصّة في ميدان التّاريخ، إذ كان للمستشرقين إسهامات جليلة فيه ، وهذا ما يظهر لنا جليّا من خلال تحقيقهم لعدد لا بأس به من المخطوطات التي كانت حبيسة دُورِ المكتبات والأرشيف، وهي لازالت تشهد على تفوّقهم في هذا الميدان. منهم من أنصف التراث الإسلامي، ومنهم من تعصّب ووقف موقف العداء. وعلى الرّغم ما قيل حول الاستشراق والمستشرقين، فهذا لا يمنعنا من الاطلاع على إنتاجهم وإعادة صياغته بأقلام بني جِلدتنا، وإعادة تحقيقه والتحقّق مما جاء به هؤلاء المستشرقين. من هذه الأسماء اللاّمعة التي نودّ الوقوف عندها، الباحث المحقّق ليفي بروفنسال.

1) التّعريف به: وُلِدَ بروفنسال بمدينة الجزائر العاصمة سنة **1894**م من أسرة يهودية. زاول دراسته الثانوية بقسنطينة، ثم التحق بجامعة الجزائر وتعلّم على يدي رينيه باسيه (René Basset) وغيره من الأساتذة الذين تلقى عنهم العلم، إلى أن أصبح أستاذا سنة **1920**م في "معهد الدّراسات العليا المراكشية" بالرّباط، وفي سنة **1922**م تحصّل على الدّكتوراه.

انتدب في سنة **1928**م كأستاذ بكلية الآداب بالجزائر عني فيها بتاريخ العرب والحضارة الإسلامية، فقسّم وقته بين الرّباط والجزائر، ثمّ بينها وبين التّدريس في معهد الدّراسات الإسلامية في السّوربون بباريس، حيث كان يدرّس تاريخ العرب وكتاباتهم، وفي سنة **1935**م استعفى من إدارة معهد الرّباط، ليتفرّغ للتّدريس والتأليف، فأُعْفِيَ وعُيِّنَ مديرَ شرفٍ له. ولم يقتصر جهده على التّدريس، فقد كان حتّى سنة **1939**م مدير المطبعة الفرنسية لدائرة المعارف الإسلامية، وأنشأ مجلّة أرابيكا (**Arabica**) للدّراسات العربية، وبذلك أعتبر ليفي بروفنسال المرجع الأوّل في الغرب لتاريخ الأندلس، وبقي كذلك إلى غاية وفاته سنة **1956**م.[1]

2) مجهوداته في التّحقيق: لقد بذل ليفي بروفنسال مجهودات كبيرة في تحقيق التراث الإسلامي، ويجدر بنا في هذه الورقة أن نتعرّض لبعضٍ منها لاطلاع القارئ على ما جادت به قريحة هذا المستشرق، من هذه الآثار التي خلّفها لنا في هذا الميدان نخصّ بالذكر منها:

– مذكرات الأمير عبد اللّه آخر ملوك بني زيري في غرناطة - صلة الصّلة لابن الزبير وهو عبارة عن تراجم أندلسية – كتاب نسب قريش لمصعب بن عبد اللّه الزبيري، نشرة نقدية – جمهرة أنساب العرب لابن حزم الأندلسي، نشرة نقدية – تاريخ قضاة الأندلس المسمّى كتاب "المرقبة العليا" للنّباهي – كتاب أعمال الأعلام لابن الخطيب، تاريخ إسبانيا الإسلامية، وهو محور الدّراسة،[2] وغيرها من الأعمال.

3) مِنْهَجُهُ في التّحقيق: إنّ المِنْهَاجَ المتّبع في التّحقيق يتطلّب منّا عدّة محطّات يجب الوقوف عندها لكلّ من أراد أن يُخْرِجَ هذا المخطوط أو ذاك على أحسن صورة يرتضيها صاحب المخطوط نفسه. عندما بدأ المحقّقون بتحقيق المخطوطات ونَشْرِهَا ظهر رأيان: الأوّل: يرى الاقتصار على إخراج النّص مصحّحا مجرّدا من كل تعليق، والثاني: يرى أنّه من الأفضل توضيح النّص بالتّعليق على كلّ صغيرة وكبيرة.[3]

ما هي الطريقة التي اتبعها ليفي بروفنسال في تحقيقه لمخطوطة "أعمال الأعمال ؟ للإجابة على مثل هذا السّؤال، يستحسن بنا تتبّع تلك الخطوات التي اتبعها هذا المحقّق في تحقيقه هذا.

أ– المرحلة الأولى: إنّ الخطوة الأولى التي يُفْتَرَضُ أن يتّبعها المُحَقّق، هو البحث عن نسخ للمخطوطات المراد تحقيقها في مكتبات العالم، إذ يمكن لنا معرفة بعض عناوينها بالاستعانة ببعض المراجع مثل: تاريخ التراث العربي لفؤاد سزكين، وفهرس المخطوطات المصوّرة ومعجم المخطوطات، وغيرها من الموسوعات.[4] ومن حسن حظّ ليفي بروفنسال أنّه عثر على عدّة نسخ لهذه المخطوطة منها: مخطوطات مكتبة جامع القرويين ومجمع التّاريخ بمجريط، واثنتان بجامع الزيتونة.[5]

إنّ تعدّد النّسخ يسهّل للمحقّق قراءتها والمقارنة بينها، فالحصول عليها ضرورة حتمية لأيّ محقّق حتّى يُنهي عمله هذا على أحسن وجه، وبخاصّة إذا وُجِدَ من بينها مخطوطات واضحة الخطّ والحروف.[6]

وتشمل هذه المرحلة محطتين:

الأولى: التّحقيق: لقد توفّرت للمحقّق بروفنسال عدّة نسخ للمخطوطة، ونحن نعلم مدى صعوبة الحصول على أكثر من نسخة، ولا يزال المحقّقون يعانون لحدّ الآن من صعوبة الحصول على عدد أكبر من النّسخ الخطّية القديمة، فتعدّدها تسهّل هذه العملية، كمعرفة الفوارق الموجودة بين النّسخة الأصلية ونسخة أخرى نُسِخَت عنها، وإكمال ما نَقُصَ منها من الكلمات أو الفقرات وفي بعض الأحيان تتعدّاها إلى أوراق قد تكون سقطت من هذه النّسخة والتي يمكن الحصول عليها من نُسَخٍ أخرى،[7]

من الخطوات التي يمكن اتباعها في التّحقيق، تقطيع النّص وتوزيعه إلى فقرات، والفقرات إلى جمل، ووضع ما يحتاجه النّص من علامات التّرقيم الحديثة المعروفة تَبَعًا للحاجة والموقع[8] مع المحافظة على تقسيم المؤلّف وترتيبه.[9] هذا ما سنحاول التعرّف عليه من خلال المِنْهَاجِ الذي اتبعه المُحَقِّق بروفنسال، وذلك بمقارنة مِنْهَجِه بمنهاج المحقّق حسن سيد كسروي.

فيما يتعلّق بتقسيم النّص إلى فقرات، نلاحظ التزام المحقّق بهذا المِنْهَج، وهذا ما نستشفّه من خلال تصفّحنا للنّص المحقّق، من أمثلة ذلك.

صص **3 – 4**. قسّمها إلى فقرتين. ص **205 – 206**. قسّمها إلى أربع فقرات.

لقد أحسن بروفنسال حين قام بتقطيع النّص إلى فقرات كما فعل ذلك بنفس المخطوط المحقّق: حسن سيّد كسروي إذ جعل منه ثلاث فقرات [10] فكان إخراجه للنّص إخراجا جيّدا، ونفس الملاحظة تنطبق على المثال الثاني إذ قسّمه هذا الأخير إلى تسع فقرات، فكانت أكثر تنظيما ووضوحا.[11]

أما فيما يخصّ النقطة والفاصلة، والفاصلة المنقوطة والنقطتين. التزم بها بروفنسال طيلة تحقيقه للنّص، كما التزم بوضع المزدوجتين عند اقتباسه لنصٍ من النّصوص.[12]

أما بالنسبة لآي القرآن الكريم، فقد حصرها بين مزدوجتين، وكان من الأفضل وضعها بين قوسين مزهرتين.[13] وهذا ما قام به سيد كسروي[14] [15]

أما فيما يتعلّق بالخط المائل (/) والذي يستعمله بعض المحقّقين، يكون موقعه إمّا قبل أوّل كلمة من كلّ صفحة من المخطوط، وإمّا على يمين الصّفحة أو يسارها، مع وضع الرّقم الذي يمثل صفحة المخطوط، فحسب المدرسة التي ينتمي إليها المحقّق بروفنسال، لا نجد لهذه العلامة وجود في النّص المحقّق، ولذا فضّل أصحاب المدرسة الحديثة وضع مثل هذه العلامة، حتّى تسهّل على قارئ النّص المُحَقّق تمييز صفحات المخطوط.

من أمثلة ذلك، عند ذكره لدولة هشام بن عبد الرّحمن بن معاوية (172هـ – 180هـ / 789م – 796م)[16] كان من الأفضل أن يقوم المحقّق بترقيم هذه الفقرات تبعا لورقة المخطوط، فتصبح الصّفحة على هذا النحو: قامت هكذا شأن النّاس مع أرباب الدول/ أن بنى القنطرة ولازمها على كريهة [122أ].[17]

أما الخطّان العموديان أو ما يعرف في بعض المراجع بالقوسين المركّبين [ ]، فيوضعان عند اضطرار المحقّق إلى وضع كلمة أو عبارة لاستكمال النّقص في النّص المحقّق.[18]

لم نعثر على ذلك في مِنْهَجِ بروفنسال طيلة تحقيقه للمخطوط، وإنّما اكتفى باستعمالها في القصائد الشّعرية عند ذكر البحر الذي تنتمي إليه هذه القصيدة أو تلك، مثل: [البحر الطويل].[19]

ولكن، عند مطالعتي لأوّل صفحة من المخطوط، يذكر المحقّق بروفنسال عنوان الكتاب، ويضعه بين قوسين، ثمّ يذكره على هذا النّحو، وبهذا الشكل:

قال لسان الدّين بن الخطيب:

(مفتتحًا القسم الثاني من كتابه المسمّى بأعمال الأعلام)

(فيمن بويع قبل الاحتلام، من ملوك الإسلام)

(وهو قسم يتعلّق بأخبار الجزيرة الأندلسية).[20]

لقد استعمل المحقّق ثلاثة أقواس، في حين كان من الأفضل استعمال الخطّين العموديين [ ]، لأنّهما يعبّران عن وجود فراغ أو نقص أو كلمات مطموسة بالمخطوط، فيكملها المحقّق من بعض المخطوطات أو المصادر التي اعتمدها في تحقيقه، ثمّ ينبّه إلى ذلك في هامش الصّفحة.

وباعتبار المحقّق حسن كسروي ينتمي إلى مدرسة تختلف عن المدرسة التي ينتمي إليها بروفنسال، فعند تحقيقه لنفس العنوان، قام بوضعه بين الخطين العموديين [ ] وأشار بهامش الصّفحة ما مفاده " ما بين المعقّفين جاء موضعه بيان بالمخطوط، قدره خمسة أسطر، أرجّح أن تكون مكتوبة بالمداد، والله أعلم".[21]

ولإخراج هذا المخطوط في صورته النّهائية، يبدو أنّ ليفي بروفنسال قد اجتهد في وضع عناوين للمخطوط، إذ كانت هذه الأخيرة لا تحتوي على عناوين مستقلّة، فالنّاسخ يسرد الكلام سردا، ويورده متتاليا مع إبقاء العناوين ضمن سياق الكلام.[22]

من أمثلة ذلك: ص 4. "وتزيين الكتاب بالآداب، وحسبنا الله ميسّر الآراب لا إله إلاّ هو. فصل في الإلمام بشيء من إطراء الأندلس، ليعلم أنّ وطن الأندلس حظّ من المعمور كبير وإنّما سُمِيَ جزيرة..."[23]

إلاّ أنّ المخطوط كان يحتوي على فقرات يمكن أن نستخرج منها عناوين فرعية ممّا تزيد النّص جمالا ورونقا مثل ذلك ما ورد في ص 3. " لكنّا راعينا في ذلك غرضين: أحدهما المناسبة في الأموية، فإنّ ملوك الأندلس منهم إنّما هم بقايا الدّولة بالمشرق..."

كان من الممكن وضع فقرة مُعَنْوَنَةٍ، فتكون على هذا النحو:

" لكنّا راعينا في ذلك غرضين:

أحدهما: المناسبة في الأموية، فإنّ ملوك الأندلس منهم إنّما هم بقايا الدّولة بالمشرق..."[24]

وبذلك يصبح النّص أسهل قراءة وفَهْمًا لمن يطالعه. وهذا ما نلحظه عند بعض المحقّقين المحدثين مع الأخذ بعين الاعتبار اختلاف المدارس التي ينتمي إليها كلّ محقّق.[25]

الثانية: التّعليق: يعتبر التّعليق مُتَمِّمًا للتّحقيق، إذ يأتي كخطوة ثانية بعد إتمام المحقّق من ضبط النّص، ولذا اعتبره البعض عملا نقديا وعلميا يتطلّب مهارة وعلما، ففي الحواشي يقوم بعض المحقّقين بشرح مفصّل لبعض الأماكن[26] والأعلام، وتعريف مبهم مغمور، وشرح لبعض المصطلحات والألفاظ الغريبة، ومقارنة الأحداث التاريخية بنظيرتها مستعينا في ذلك بمصادر أخرى، تعالج نفس الفترة، وتخريج الآيات القرآنية والأحاديث النبوية الشّريفة[27]، فالمحقّق في تعليقاته يصبو إلى تحرّي الدّقة والأمانة.[28] وذلك عملا بهذه المقولة: بأنّ "إفادتين لا يمكن أن تكون كلتاهما صادقتين".[29]

إنّ الهوامش التي نجدها في تّعاليق بعض المحقّقين تُضْفِي على عمل المحقّق قيمة كبيرة تدلّ على ما بدله من جهد في الاستعانة بالمصادر الأصلية والثانوية والإفادة منها.[30]

وحتّى يمكن التّعرّف على المِنْهَجِ المُتَّبَعِ من طرف ليفي بروفنسال في تعليقاته، سنعتمد على قراءة بعض النِّسَبِ التي توضّح بشكل جليّ أهم الخطوات التي اتبعها في مِنْهَجِهِ هذا.

10.75% تمثل نسبة التّعليقات الواردة في هوامش صفحات الكتاب، فالمخطوط يحتوي على كمّ هائل من المعلومات والتي يمكن التعليق عليها.

89,25% وهي نسبة أعلى من الأولى، وقد شملت عددا كبيرا من صفحات الكتاب، إذ خلت من أيّ تعليق.

66,66% وفيها اهتمّ المحقّق بالإحالة إلى بعض المصادر والتي استعان فيها لتوجيه قارئ النّص إلى القصائد الموجودة بهذه الأخيرة، وبخاصّة تلك التي لاحظ فيها نقصا من حيث تعداد أبياتها، وتارة أخرى يصحّح بعض الأخطاء.

23,80% تعبّر عن تلك المقارنات التي أجراها بروفنسال بين نسختي المخطوط.

09,52% وهي عبارة عن إحالات لآي القرآن الكريم.

من خلال ما تقدّم ذكره، يبدو أنّ التّعليق على ما ورد في متن المخطوط كان قليلا، وقد يعزى ذلك إلى ضخامة المخطوط وكثرة المعلومات التي احتواها، فلو قام بالتّعليق عليها لَتَضَاعَفَ حجم المخطوط المُحَقّق، وهذا ما يوضّحه يحيى بوعزيز عند تحقيقه لكتاب – طلوع سَعْد السّعود – فقد ذكر سبب عدم اثقال الهوامش بالتعليق بقوله: " أنّ التّعليقات والهوامش التي وضعناها... أثبتت أنّ المواصلة على ذلك النّهج سيؤدي إلى مضاعفة المخطوط مرّة وأكثر " ثمّ يضيف قائلا: " ولذلك خفّفنا منها كثيرا..."[31]

أ- تراجم الأعلام: قام بروفنسال في هذه الخطوة بتصحيح اسم ورد في المخطوط، وهذا ما نستشفّه من خلال هذا النّص. ص 243 هامش رقم 01/ يذكر المحقّق: في الأصل: "أدفونش بن شانجة بن فردناند" وهو خطأ من المؤلّف، لأنّ أدفونش السّادس كان ولد فرذلند، وشانجة كان أخاه شقيقه، فصحّحنا النّص الأصلي للضرورة.

لقد أحسن بروفنسال عند قيامه بتصحيح ما ورد في المخطوط من الأخطاء، وحتّى تعمّ الفائدة كان من الممكن الإشارة إلى بعض المصادر التي اعتمدها في تصحيحه هذا.

من المصادر التي يمكن الاعتماد عليها في هذا التّصحيح كتاب "البيان المغرب" منه هذا النّص " وفيها[32] كان مهلك الطاغية فرذلند صاحب قشتيلية[33] وترك ولديه، شانجة وأدفونش".[34]

ومن الأعلام الذين كان من الممكن على بروفنسال التّرجمة لهم في الهوامش، نذكر على سبيل المثال:

ص 48 وما يليها:

- ✓ **محمّد بن يحيى بن زكريا التّميمي: المكنّى بأبي عبد الله، سمع بقرطبة على عدّة شيوخ منهم: أحمد بن خالد وقاسم بن أصبغ وغيرهما. كانت له رحلة إلى المشرق، فسمع من شيوخها منهم: عبد الله بن محمّد بن يوسف وعبد الله بن جعفر**

بن الورد وغيرهم، من الخطط التي تولاّها خطة قضاء الجماعة بقرطبة والصّلاة، كما ولي الوزارة. ولد سنة 299هـ/911م وتوفي سنة 394هـ/1003م ثم يحيل المحقّق إلى مصادر ترجمته[35].

وهذا ينطبق على باقي الأعلام الواردة في المخطوط، ولكثرتها، كان من الأفضل الإشارة إليها في الهامش، ثمّ نحيل إلى مصادر ترجمتها فقط، مثل:

ص 175– عبد الملك بن أحمد المستعين: تنظر ترجمته عند ابن الأبار: الحلّة السّيراء – ج 2– ص 248.

ب– تراجم الأماكن الجغرافية: احتوى المخطوط على عدد كبير من المدن الأندلسية والتي كانت في حاجة للتّعريف بموقعها وما تحتويه من خيرات، فكان من المستحسن على بروفنسال التّعرض لبعضها حتّى تَعُمَّ الفائدة. من أمثلة هذه المواقع الجغرافية:

– الزّاهرة ص 93 – شنتبريّة ص 177 – وادي آش ص 292 – كان من الممكن الإشارة إليها والتّعريف بها على النّحو التالي:

شنتبريّة: وهي كورة شرق قرطبة، لها حصون كثيرة تجمع بين طيب الأرض وكثرة الزّرع وبها جبال، وهي على سهل منبسط به أشجار الجوز واللّوز.." ثمّ الإحالة إلى مصادر ترجمتها.[36]

ج– تفسير ما غمض من ألفاظ ومفردات: لم يتعرّض المحقّق إلى هذه الخطوة في مِنْهَجِه، فالمخطوط احتوى على عدد لا بأس به من هذه المفردات والتي تحتاج إلى شرح، أو الإحالة إلى مصادر ترجمتها، فمن أمثلة ذلك:

الميرة: وهي الطعام أو المواد التموينية. خلقانه: وهي الثياب الرّثة. المدية: هي السّكين أو ما يقطع به و نحوها.

د– ضبط الأنساب: لقد مرّ معنا في المخطوط عدد لا يُحْصَى من الأعلام الذين ينسبون إلى قبائل عدّة أو إلى أماكن، كان من الأفضل الوقوف عندها لشرح بعضها. من أمثلة ذلك:

ص 50: عبد الله بن محمّد بن عبد البرّ النّمري.

النّمري: هذه النسبة إلى بني نمير، وهو نمير بن عامر بن صعصعة[37]

ص 54: عبد الله بن أحمد بن محمّد التُّجيبي.

التُّجيبي: منسوب إلى ولد عدّي وسعد بن أشرس بن شبيب، وأمّهما تُجيب بنت ثوبان، نُسِبُوا إليها.[38]

ص 51: عبد الله بن محمّد بن سريعة.

سريعة: يذكر القاضي عياض أنّها ضبطت بهذا الشّكل – سريعة – على وزن مدينة بالشين المثلثة، إلاّ أنّ أبا عبد الله ابن عتّاب يرى أنّ صوابه "سريعة بسين مهملة على وزن هبيرة، والمشهور الأوّل.[39]

ص 55: يحي بن محمّد بن الحذاء.

الحذاء: نسبة إلى سكناهم بربض الحذائين بقرطبة، إلاّ أنّ هذه الأسرة ترفض هذه النّسبة، وتقول: بالدال المهملة من "حدّ الإبل" وأنّ جدّهم الذي يُنْسَبُونَ إليه هو حادي رسول الله (صلى الله عليه وسلّم).[40]

هـ – تخريج الآيات والأحاديث وضبط القصائد الشّعرية: قام ليفي بروفنسال بتخريج الآيات الواردة في المخطوط، وتشكيلها، فمن أمثلة ذلك:

ص 13: قوله تعالى: { رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَ مِنَ الخَاسِرِينَ }

ص 111: قوله تعالى: { فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًا }

فأثناء تخريج المحقّق للآيات الكريمات يوردها على النّحو التالي: سورة الأعراف، **23**/ سورة الأعراف، **134**. وكان من الأفضل ذكر السّورة، ثمّ الآية.

أمّا بالنسبة للأحاديث النبوية الشّريفة، لم يقم المحقّق بتخريجها، منها: الحديث الذي أسنده أبو هريرة – رضي الله عنه – إلى النبيّ (صلّى الله عليه وسلّم) (أن لا تقوم السّاعة حتّى يخرج رجل من قحطان يسوق العرب بعصاه).

و– اعتماده على مصدرين والإحالة إلى أحدهما في ذكر الجزء والصفحة: وهذا ما يتوضّح لنا جليّا من خلال هذين المثالين:

هامش رقم **1** ص **41**/ ذكر المَقْرِي في هذا الوصف في "نفح الطيب" و "أزهار الرّياض" (ج**1**، ص **61**)

هامش رقم**1** ص **6**/ راجع هذا الكلام منسوبا إلى ابن الخطيب في "النّفح" و "أزهار الرّياض" (ج**1**، ص **61**).

كان من الممكن أن يحيل بروفنسال إلى النّفح مع ذكر الجزء والصفحة، وهذا ينطبق كذلك على المصدر الثاني الذي اعتمده، وهو كتاب أزهار الرّياض، حتّى يمكن الاستفادة من هذه الإحالة.

ي– القصائد الشّعرية: أمّا عن القصائد الواردة في المخطوط، اعتمد في مِنْهَجِهِ هذا على:

* ضبط كلمات القصائد عن طريق تشكيلها.[41]

* الإحالة إلى المصادر الموجودة بها الأبيات الشّعرية، كقوله في:

هامش رقم**1** ص **165**/ أورد الفتح أوّل هذه القصيدة في "قلائد العقيان" ثمّ يذكر الصفحات.[42]

هامش رقم**1** ص **301**/ أورد ابن الخطيب هذا الشّعر في اللّمحة البدرية، ثمّ يشير إلى الصفحات.[43]

هامش رقم**1** ص **186**/ وفيه ينبّه المحقّق إلى أنّ القصيدة ناقصة في أبياتها الشّعرية، ثمّ يحيل إلى المصادر التي تتمّم ما نقص منها. من هذه المصادر ابن خاقان[44] والمراكشي.[45]

أمّا فيما يتعلّق بمقارنة القصائد الشّعرية الواردة في المخطوط واعتمادا على المصادر المذكورة في الهوامش، كان من الممكن اتباع الخطوات التالية:

* ذكر الاختلافات الواردة في رسم بعض الكلمات * ذكر التغيير الحاصل في عجز أو صدر البيت، إذ كثيرا ما نلاحظ أنّ عجز هذا البيت يختلف تمام الاختلاف بما ورد في المصادر المعتمدة من طرف المحقّق * الإشارة إلى الكلمات النّاقصة في القصيدة، ومحاولة إتمامها اعتمادا على مصادر أخرى.

من أمثلة ذلك القصيدة التي نظمها أبو بكر بن شيرين

وَمَضَى حُكْمُ إلَه مَا لَهُ فِي الحُكْمِ (1) ثَانِ

مَاتَ يَومَ السّلم قعصًا مِدْرَه (2) الحَرْب العوَانِ[46]

1– الملك: في اللّمحة البدرية. **2**– مدده: في اللّمحة البدرية.[47]

الثانية: **1**) المقدمة. وفيها يبرز أهمية المخطوط، وما تناوله من مادة علمية تغطي الفترة المعالجة، وقد استطاع المحقّق عبرها إبراز عدّة نقاط منها: * أهمية القسم الثاني المتعلّق بتاريخ الأندلس * اعتبره أهم الأقسام الثلاثة * وضّح فيه أنّ المؤلّف مرّ مرورا سريعا على أحداث ما قبل القرن الرّابع الهجري (**10**م)، وإطنابه في الأحداث التي تلي هذا القرن.[48] اعتمادا على بعض المصادر السّالفة الذكر، مثل: النّفح وأزهار الرّياض للمقري.

2) قسم الدّراسة.

أ– التّعريف بالمخطوط: قام ليفي بروفنسال بذكر المخطوطات التي اعتمدها، فأشار إلى: مخطوط المكتبة القومية بالجزائر – مخطوط مكتبة مجريط – مخطوط مكتبة جامع الزيتونة، ثمّ بعدها أشار إلى الأقسام المنشورة والمترجمة.[49]

أمّا وصف المخطوط، فقد أشار إليه بالمقدمة ونبّها فيها إلى وجود نقص في عدد أوراقه ممّا أدى إلى وجود انقطاع مفاجئ لسياق التاريخ.[50]

أمّا بخصوص عدد الأسطر أو الصفحات الذي شملها هذا النّقص، كان من الممكن التنبيه إلى عددها. هذا ما قام به سيد كسروي في النّسخة التي حقّقها، فيذكر ما مفاده: "جاء بعد هذا البياض في أصل المخطوط قدره نصف صفحة".[51]

ثمّ يضيف بروفنسال في وصفه للمخطوط قوله: أنّ النّسخة التي كانت بين يديه هي من أحسن المخطوطات المعروفة لتاريخ ابن الخطيب.[52]

وهذا صحيح، فعند قيامي بمقارنة النّسختين المحقّقتين من طرف كلّ من بروفنسال وسيد كسروي، وجدت هذا الأخير اعتمد على نسخة بها بتر بقدر ثلاث صفحات، وأظنّ أنّ هذه الصفحات هي التي أشار إليها برقمي **221**/ أ. ب/ **222**/ أ. ب، ومن حسن الحظ أنّ هذا البتر يمكن استدراكه من خلال النّسخة التي اعتمدها ليفي بروفنسال.[53]

ونفس الكلام ينطبق على بعض صفحات المخطوط الواردة في تحقيق سيد كسروي إذ يشير هذا الأخير إلى أنّ هناك بتر في صفحات المخطوط تقدّر بـــ: – صفحتين – وهذا ما يفهم من كلامه حين قال: "موضع النقط يمثل ص **135**/ أ. ب التي سقطت من المخطوط".[54]

من حسن حظّ تراثنا الإسلامي أنّ هذا النّقص هو محفوظ في النّسخة التي حقّقها ليفي بروفنسال، وعن طريقها يمكن إعادة بناء النّص المبتور عند سيد كسروي.[55]

ب– التّعريف بالمؤلّف: إنّ التّعريف بالمؤلّف يتطلّب من المحقّق معرفة ولادته ووفاته وأسرته وشيوخه، ومؤلّفاته والتّعريف بالعصر الذي عاش فيه، والمناصب التي تولاّها.[56]

في هذا المقام اكتفى بروفنسال بإبراز دوره في بلاط النّاصري بغرناطة، إذ عمل كوزير للسّلطان محمّد الخامس الغني بالله،[57] ثمّ يتطرّق بعدها إلى تلك الوشايات التي سعى بها، ممّا اضطرّه للخروج من الأندلس نحو المغرب إلى غاية سجنه بفاس، وقتله سنة **776**هـــ / **1374**م.[58]

تعتبر ترجمة بروفنسال التي وافانا بها عن هذا المؤلّف ترجمة مختصرة، فكان من الممكن أن يشمل هذا التّعريف جوانب عدّة من حياته الثقافية والسياسية والاجتماعية، حتّى يضع أمام القارئ نبذة ولو موجزة عن مسيرة هذا الرّجل التي تعدّدت مناحيه في ميادين شتّى.[59]

ج– أسباب التأليف: تعرّض بروفنسال إلى السّبب الرّئيس الذي أدى بابن الخطيب إلى تأليف هذا الكتاب، فقال: إنّ عنوانه يدلّ على الغاية التي رام إليها المؤلّف ابن الخطيب بتأليفه، فقد أراد أن يهديه إلى حامييه السّلطان أبي زيان محمّد السّعيد، ولم يبلغ الرّابعة من عمره ووزيره ووصيه أبي بكر غازي، فأحبّ أن يخصّص كتابا لذكر ولاية جميع ملوك المسلمين الذين بويعوا قبل سنّ الاحتلام.[60]

د– عنوانه: لقد حافظ بروفنسال على نفس العنوان الوارد بالمخطوط دون أن يعلّق عليه من حيث تطابقه مع المادة المعالجة، في حين نجد المحقّق سيد كسروي تدخّل في إبداء رأيه فيما يتعلّق بهذا العنوان، فقال عن الشّطر الأوّل منه وهو:

أعمال الأعلام: يظن النّاظر إلى العنوان، وكأنّه يتناول ما قام به هؤلاء الأعلام أو الملوك من أعمال، كإنشاء القناطر والقلاع والقصور والمدارس والمساجد والتّرع وغيرها، وفي الحقيقة أنّ الكتاب خلو من هذا تماما، وأنّ موضوعه غير ذلك، حيث يتناول أهم الأعلام في المشرق والأندلس والمغرب، ولذا يرجّح سيد كسروي العنوان التالي: "أعلام الأعلام".[61]

ثمّ قوله: فيمن بويع قبل الاحتلام: هذه العبارة لم يقتصر عليها المؤلِّف، حيث ذكر من بويع قبل وبعد الاحتلام.[62] ثمّ يضيف المحقّق سيد كسروي أنّ ابن الخطيب أراد استدراك ذلك التّضارب الحاصل في العنوان، فأضاف "وما يتعلّق ذلك من الكلام".[63]

تلك هي أهم الخطوات التي اتبعها المحقّق ليفي بروفنسال، والتي ميّزت مِنْهَجَه الذي اتبعه في تحقيقه لهذه القطعة من كتاب "أعمال الأعلام"، فهو بذلك يمثّل المدرسة الاستشراقية في تحقيق التراث الإسلامي، وبهذا العمل استطاع أن ينقذه من الضياع، وكان ذلك هو دأب هذا المحقّق في بقية أعماله الأخرى التي تعتني بتحقيق هذا التراث.

الخاتمة: لقد استطاع بروفنسال صبر أغوار الثقافة العربية الإسلامية بتناوله ميدانا قد يصعب ركوبه والخوض فيه حتّى على بني جِلدتنا، ألا وهو ميدان "تحقيق التراث الإسلامي" وقد استطاع هذا المستشرق بفضل اطلاعه على اللّغة العربية أن يقدّم هذا العمل الجبّار بإتقان، فمن خلال اطلاعنا على ما حقّقه من بقايا هذا التراث، يظهر لنا جليّا بأنّ له إلمام بمنهجية التّحقيق بما يتفق مع المدرسة التي ينتمي إليها، وهي المدرسة الاستشراقية، على الرّغم من الصعوبات التي تواجه مثل هؤلاء المستشرقين، وبخاصّة إذا كان ما يقومون بتحقيقه هو بلغة يصعب فهم معانيها، ألا وهي لغة الضاد.

الهوامش

[1]- العقيقي نجيب، المستشرقون، ط 4، دار المعارف، القاهرة، د ت، ج1، ص 293.
[2]- بدوي عبد الرّحمن، موسوعة المستشرقين، ط 3، دار العلم للملايين، بيروت، 1993م ، ص ص 521 – 522.
[3]- معروف بشار عوّاد، في تحقيق النّص، أنظار تطبيقية نقدية في مناهج تحقيق المخطوطات العربية، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2004م، ص 341،/ وينظر عبد الباري فرج الله، مناهج البحث وآداب الحوار والمناظرة، ط1، دار الآفاق العربية، القاهرة، 2004م، ص 115.
[4]- ينظر سزكين فؤاد، تاريخ التراث العربي، مكتبة آية الله العظمى المرعشي، ط2، قم- إيران ، 1982م، ص 136.
[5]- ابن الخطيب محمد بن عبدالله، تاريخ إسبانيا الإسلامية أو كتاب أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، تحقيق بروفنسال، دار المكشوف، بيروت، لبنان ، 1956م، مقدمة المحقق، ص، ي و ك.
[6]- حلاق حسان، مناهج الفكر والبحث التاريخي والعلوم المساعدة وتحقيق المخطوطات، ط 4، دار النّهضة العربية، بيروت، لبنان، 1425هـ / 2004م، ص ص 143 – 144/ معروف بشار عوّاد، المرجع السّابق، ص 266.
[7]- حلاق حسان، المرجع السابق، ص 119 – 143 – 144،/ معروف بشار عواد، المرجع السابق، ص 266.
[8]- حلاق حسان، نفسه، ص ص 147 – 148.
[9]- عبد الباري فرج عبد الله، المرجع السّابق، ص 120.
[10]- ينظر ابن الخطيب محمد بن عبد الله، أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يتعلّق بذلك من الكلام، تحقيق حسن سيد كسروي، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1424هـ / 2003م، ج 2، ص ص 3 – 4.
[11]- ينظر ابن الخطيب مجمد بن عبدالله، نفسه،ج2، ص ص 194 – 195.
[12]- ينظر ابن الخطيب محمد بن عبد الله، المصدر السابق، تحقيق بروفنسال، ص 75.
[13]- نفسه، ص 111.
[14]- في هذا المقام يجب الأخذ بعين الاعتبار اختلاف المدرستين في التحقيق، التي ينتمي إليها كلّ من بروفنسال وكسروي.
[15]- ينظر ابن الخطيب محمد بن عبد الله، نفسه، تحقيق محمّد سيد كسروي، ج2، ص 105.
[16]- ينظر في ترجمته الرّوحي علي بن محمد، بلغة الظرفاء في تاريخ الخلفاء، تحقيق عماد أحمد هلال وآخرون، القاهرة، 1424هـ / 2003م، ص 173.
[17]- ابن الخطيب محمد بن عبد الله، نفسه، تحقيق بروفنسال، ص 12 – 13 / ونفسه بتحقيق حسن سيد كسروي، ج2، ص ص 13 – 14.
[18]- حلاق حسان، المرجع السّابق، ص 149،/ عبد الباري فرج الله، المرجع السّابق، ص 121.
[19]- ابن الخطيب محمد بن عبد الله، المصدر نفسه، تحقيق بروفنسال، ص 107.
[20]-ابن الخطيب محمد بن عبد الله، المصدر السّابق، ص 3.
[21]- ابن الخطيب محمد بن عبد الله، نفسه، تحقيق حسن سيد كسروي، هامش رقم 1، ص 3.

[22]- معروف بشار عواد، المرجع السّابق، ص 344.
[23]- ينظر الصفحة الأولى من القسم الثاني من المخطوط، مقدمة المحقّق حسن سيد كسروي، ص 22.
[24]- ينظر ابن الخطيب محمد بن عبد الله، المصدر السّابق، ج2، ص 3.
[25]- من أمثال هؤلاء المحققين، بوباية عبد القادر عند تحقيقه لكتاب البستان، اهتم بوضع عناوين للمخطوط، الأمر الذي سهّل عملية قراءة النّص دون عناء. ينظر بوباية عبد القادر، البستان في ذكر العلماء والأولياء بتلمسان، تحقيق بوباية عبد القادر، مكتبة الرّشاد للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، ط1، 1432هـ / 2011م، ص ص 83- 89.
[26]- عبدالباري فرج الله، المرجع السّابق، ص 121
[27]- حلاق حسان، المرجع السّابق، ص 154،/ عبد الباري فرج الله، نفسه، ص 121، / معروف بشار عواد، المرجع السّابق، ص 342، / رستم أسد، مصطلح التاريخ، منشورات المكتبة العصرية، بيروت، لبنان، د ت، ص 14 وما يليها.
[28]- الحجّي عبد الرّحمن علين نظرات في دراسة التّاريخ الإسلامي، ط1، دار ابن كثير، دمشق، بيروت، 1420هـ / 1999م، ص 68.
[29]- عبد الرّحمن النور أسامة، محاضرات في منهج البحث التاريخ، فاليتا، مالطا، ELGA ، 2001م ، ص 94، / وينظر وليد نويهض، المفكّرون العرب ومنهج كتابة التاريخ، ط1، دار حزم للطباعة والنشر والتّوزيع، بيروت، لبنان، 1996، ص 65.
[30]- النبراوي فتيحة عبد الفتّاح، علم التاريخ، دراسة في مناهج البحث، ط2، دار الآفاق العربية، القاهرة، 1996م، ص 250.
[31]- المزاري بن عودة بن محمد، طلوع سعد السّعود في أخبار وهران والجزائر وإسبانيا وفرنسا إلى أواخر القرن التّاسع عشر، ط1 ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1990م، مقدمة المحقق، ج1، ص 6.
[32]- يقصد بها سنة 440هـ /1048م.
[33]- ينظر عنها الحميري محمد بن عبد المنعم، الرّوض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عبّاس، ط2، مكتبة لبنان، 1984م، ص 483 ، / البغدادي عبد المؤمن، مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع، ج3، ص 1094.
[34]- ابن عذاري أحمد بن محمد، البيان المغرب، في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج س . كولان، ط 3، دار الثقافة، بيروت، 1980م، ج ، ص 232.
[35]- ابن الفرضي عبد الله بن محمد، تاريخ علماء الأندلس، تحقيق روحية عبد الرّحمن السّويفي، دار الكتب العلمية، بيروت، 1417هـ / 1997م، ص ص 378 – 379، / النباهي علي بن عبد الله، تاريخ قضاة الأندلس وهو كتاب " المرقبة العليا فيمن يستحقّ القضاء والفتيا"، ط 5، دار الآفاق الجديدة ، بيروت، 1403هـ / 1983م، ص 84.
[36]- E. Levy provençal : La description de l'Espagne d'Ahmed Al- Razi – essai de reconstitution de l'original Arabe et traduction française – Revista Al Andalus –xvIII – 1953 – p – 80. ابن غالب محمد بن أيوب، قطعة من كتاب "فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس"، نشر لطفي عبد البديع، مجلة معهد المخطوطات العربية، القاهرة، المجلّد الأوّل، الجزء الثاني، ربيع الأوّل 1375هـ نوفمبر 1955م، ص 288.
[37]- ابن حزم علي بن أحمد، جمهرة أنساب العرب، راجع النسخة وضبط أعلامها، عبد المنعم خليل إبراهيم، ط 4، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1428هـ / 2007م، ص 279 ، / السّمعاني، الأنساب، وضع حواشيه محمّد عبد القادر عطا، ط1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1419هـ / 1988م، ج5، ص 426، / السّيوطي عبد الرّحمن بن الكمال، لب اللّباب في تحرير الأنساب، ط 1، دار الفكر ، بيروت، 1422هـ / 2002م، ص 393م.
[38]- الهمداني محمّد بن أبي عثمان، عجالة المبتدى وفضالة المنتهى في النسب، حققه وعلّق عليه وفهرس له عبد الله كنون، ط 1، دار الآفاق العربية، 1422هـ /2002م، ص 58 ، / ابن عبد البرّ يوسف بن عبد الله، الأنباه على قبائل الرّوّاة، حققه وقدّم له ووضع فهارسه إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، د ت، ص 116.
[39]- عيّاض بن موسى اليحصبي، ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، ضبطه محمّد سالم هاشم، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، 1418هـ / 1998م، ج 2، ص 199.
[40]- عياض بن موسى اليحصبي، المصدر السّابق، ج 2، ص 301.
[41]- ابن الخطيب محمد بن عبد الله، المصدر السّابق، تحقيق بروفنسال، ص ص 25 – 27.
[42]- ابن خاقان الفتح بن عبيد الله، قلائد العقيان في محاسن الأعيان، قدّم له ووضع فهارسه، محمّد العنابي، المكتبة العتيقة، تونس، د ت، ص 34.
[43]- ابن الخطيب محمد بن عبد الله، اللّمحة البدرية في الدّولة النّصرية، تحقيق محمّد زينهم، ط1، الدار الثقافية للنشر، 1425هـ/ 2004م، ص 98 وما يليها.
[44]- ابن خاقان الفتح بن عبيد الله، المصدر نفسه، ص 42 وما يليها.
[45]- المراكشي عبد الواحد بن علي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرحه واعتنى به صلاح الدين الهواري، ط 1، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، 1426هـ/ 2006م، ص 63.
[46]- ابن الخطيب محمد بن عبد الله، أعمال الأعلام، تحقيق بروفنسال، ص 301.
[47]- ابن الخطيب محمد بن عبد الله، اللّمحة البدرية، ص ص 98 – 99.
[48]- ابن الخطيب محمد بن عبد الله، أعمال الأعلام، تحقيق بروفنسال، مقدمة المحقق، ص ز – ح.
[49]- ابن الخطيب محمد بن عبد الله، نفسه، مقدمة المحقق، ص ك – ي.
[50]- نفسه، ص 286.
[51]- ابن الخطيب محمد بن عبد الله، نفسه، تحقيق سيد كسروي، ج 2، ص 253.
[52]- ابن الخطيب محمد بن عبد الله، نفسه، تحقيق بروفنسال، مقدمة المحقق، ص ص – ص – ط.
[53]- ينطر ابن الخطيب محمد بن عبد الله، نفسه، تحقيق بروفنسال، ص ص 286 – 289، وتحقيق سيد كسروي، ص 253.
[54]- ابن الخطيب محمد بن عبد الله، المصدر السّابق، تحقيق سيد كسروي، ص 47.
[55]- ابن الخطيب محمد بن عبد الله، نفسه، تحقيق بروفنسال، ص ص 48 – 50.
[56]- حلاّق حسان، المرجع السابق، ص 147.
[57]- ينظر قائمة ملوك غرناطة عند الحجّي عبد الرّحمن علي، التاريخ الأندلسي من الفتح الإسلامي حتّى سقوط غرناطة – 92هـ - 897هـ (711م – 1492م)، ط5، دار القلم، دمشق، 1418هـ / 1997م، ص 562 وما يليها.
[58]- ينظر في ترجمة ابن الخطيب المقري أحمد بن محمد، نفح الطيب من غصن الأندلس الرّطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، تحقيق يوسف الشّيخ البقاعي، ط 1، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1419هـ / 1998م، ج6، ص ص 3 – 4 .

[59]- عن شيوخ المؤلف ومؤلفاته ينظر خليفة حاجي مصطفى، كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار الفكر، بيروت، لبنان، 1427هـ - 1428هـ /2007م، / التنبكتي أحمد بابا،كفاية المحتاج لمعرفة ما ليس في الديباج، تحقيق علي عمر، ط 1، مكتبة الثقافة الدينية، 1425هـ / 2004م، ج 2، ص ص 83 – 84.

[60]- ابن الخطيب محمد بن عبد الله، المصدر السابق، تحقيق بروفنسال، مقدمة المحقق، ص ح.

[61]- وقد أشار إلى نفس العنوان خليفة حاجي، المرجع السّابق، ج6، ص 134.

[62]- ينظر ابن الخطيب محمد بن عبد الله، نفسه، ص ص 41 – 43 ، / الحميدي، جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس، تحقيق روحية عبد الرّحمن السّويفي، ط 1، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1417هـ/ 1997م، ص 19 – 21.

[63]- ينظر ابن الخطيب محمد بن عبد الله، نفسه، تحقيق سيد كسروي، مقدمة المحقّق، ص 7.

حلقة من تاريخ الشعوب المتوسطية قبيل الميلاد

أة. خادمة الله بنت أبيش
المدرسة العليا للتعليم، نواكشوط

مقدمة: يرتمي البحر الأبيض المتوسط على شكل شبه مستطيل يتوسط العالم القديم (إفريقيا، آسيا، وأوربا). وهو يعتبر من أهم البحار في العالم . وصفه قدماء العراقيين بالبحر الأعلى مقابلة مع الخليج العربي الذي هو بالنسبة لهم البحر الأدنى. وأطلق عليه الرومان "مارنوستريم" أي بحرنا. ولهذا عند ما جاء العرب حاملين راية الإسلام دعوه "بحر الروم".

تشكل جزر هذا البحر والدول المطلة عليه من جميع الجهات مواطن للكثير من القبائل والشعوب التي لعبت أدوارا هامة على مر العصور. وربطتها علاقات متنوعة ومعقدة. تراوحت بين السلم والحرب فمن التبادل التجاري إلى التبادل الثقافي والفكري ومن التوسع والاستيطان إلى التمرد والحرب. ولأن المقام هنا يضيق عن دراسة مختلف المناطق والشعوب المتوسطية فسنقتصر على منطقتين هما شبه الجزيرة الايطالية وشمال إفريقيا .وسنحاول تتبع تطور شعوبهما وأوضاعها السياسية والاجتماعية في القرون الأخيرة قبيل الميلاد.

فكيف كانت الأوضاع السياسية والاجتماعية في هاتين المنطقتين خلال الفترة المذكورة؟ وما هي أبرز القبائل والشعوب فيهما؟

I– شبه الجزيرة الايطالية: تعتبر منطقة حيوية تحدها البحار من أغلب الجهات (الأدرياتيكي، التيراني، والأيوني) إضافة إلى الأبيض المتوسط وجزره. هي مهد الحضارة الرومانية التي ولدت في سهل اللاتيوم مركز إيطاليا والحوض الأسفل لنهر التيبر حيث قامت مدينة روما أو (المدينة الخالدة) أو الشعلة التي أضاءت العالم المتوسطي ومن خلاله العالم القديم عدة قرون. تكونت روما من تجمعات سكنية أقيمت على هضاب وعرة يسهل الدفاع عنها والهجوم منها[1]. كما يسهل نهر التيبر بملاءمته للملاحة مهمة المواصلات بين كل من كورسيكا وسردينيا وصقلية من جهة. والحوض الغربي للأبيض المتوسط من جهة أخرى. مثلت هذه الظروف الطبيعية عاملا أساسيا ساعد روما في بسط سيادتها على ايطاليا الوسطى ثم على كامل شبه الجزيرة الايطالية[2]. ومن المعروف أن روما لم تكن المدينة الوحيدة في شبه الجزيرة الايطالية .وإنما كانت توجد الكثير من المدن والقرى وهي بالطبع آهلة بقبائل كثيرة وشعوب متنوعة. ذلك أن إيطاليا توصف بكونها فسيفساء عرقية.نظرا لكثرة وتنوع الشعوب والأعراق التي عمرتها وإن كانت في معظمها تعود لأصول هندو– أوربية[3].

ترجح المصادر أن تأسيس روما جرى في النصف الأول من سنة **753**قبل الميلاد وبدأت حياتها ملكية حيث حكمها سبعة ملوك. يرجع لهم فضل استصلاح المنطقة التي أقيمت فيها روما. حيث جففوا المستنقعات وعبدوا الطرق وقسموا المدينة إلى دوائر وأحياء[4]. وابتداء من سنة **509** قبل الميلاد تحولت روما إلى النظام الجمهوري. وكان على رأسه شخصان يعرفان بالقنصلين أي الرفيقين وينتخبان لمدة سنة واحدة من أسرتين مختلفتين. حتى لا يستأثر أحدهما بالحكم ويتجه به نحو الاستبداد. وفي هذا العهد حققت روما توسعها في الأبيض المتوسط وغدت سيدته بدون منازع. فدمرت قرطاج سنة **146** ق.م كما قامت بتصفية الممالك الهيلنستية في الحوض الشرقي للأبيض المتوسط. وعند نهاية القرن الأول قبل الميلاد ارتدت روما حلة سياسية جديدة يرصعها التاج الامبراطوري. وكان من الطبيعي أن تواكب هذه المراحل السياسية عدة تحولات اقتصادية واجتماعية بعد أن حققت روما أكبر توسع بحري في تاريخها[5] وتبوأت زعامة شبه

الجزيرة الايطالية والأبيض المتوسط. فهل ذلك يعني أن الرومان سيعيشون في هدوء وأمان؟ وهم يسيطرون على هذه الأصقاع بمن فيها من الشعوب وما فيها من الثروات؟

1– الشعوب المطلة على المتوسط من الشمال: مثل الأبيض المتوسط شريانا حيويا في العصر القديم والحديث. وعاشت في جزره المختلفة وعلى ضفافه وبالقرب منه العديد من القبائل والشعوب استقر بعضها وتطور قبل ظهور روما نفسها. ومن تلك الشعوب:

آ– الغاليون: بلاد الغال مصطلح جيو–سياسي قديم يطلق على منطقة كبيرة من أوربا الغربية تضم فرنسا والقسم الجنوبي من هولندا وبلجيكا وقسم كبير من سويسرا وجزء من ألمانيا[6]. وقد عمرت هذه المنطقة بشعوب عديدة دعي معظمها بالغاليين وخصوصا السلتيون الذين قدموا من أوربا الوسطى واليهم ينتمي البلجيون الذين امتزج قسم منهم مع الجرمان. ورغم ما عرف عن الغاليين من الرفاهية والتحضر. فقد كانوا من الناحية السياسية متخلفين يعانون من عدم الاستقرار وحدة التنافس. وقد وصف يوليوس قيصر[7] الشخصية الغالية (بالشجاعة والتهور كما أنها بأمس الحاجة إلى الثبات والجلد)[8]. وإذا كانت هذه هي حال الغاليين أو على الأقل عند ما عاش بينهم يوليوس قيصر واليا ابتداء من سنة **59** ق.م وحتى **54** ق.م وكتب عنهم وعن بلادهم وخصائصها الطبيعية والبشرية، فإنهم يصنفون كأقوى الشعوب التي واجهت الرومان، فقبل قيصر بأكثر من ثلاثة قرون اجتاحوا جل إيطاليا وأحرقوا جزءا من العاصمة روما سنة **390** ق.م[9]، غير أن اللاتين تمكنوا من صدهم وحققوا أكثر من ذلك فألبوا بعض الغاليين على بعضهم وأخضعوهم وأنشأوا مقاطعة في مواطنهم[10] كانت تلك المقاطعة مسرحا للكثير من الصدامات بين الرومان والغاليين ذلك أن هؤلاء بعد عهود طويلة من الترحال تحولوا إلى مستقرين فنظموا أنفسهم سياسيا واجتماعيا وعسكريا حيث أسسوا جيشا قويا مثل الدعامة الأولى لثوراتهم ضد الرومان[11].

ب– الجرمان: وهم أجداد الشعب الألماني المعروف رفضوا الاحتلال الروماني ومثلوا تهديدا خطيرا على أمن الرومان من جهة الشمال، فقد انتفض الجرمان مع حلفائهم في المنطقة الواقعة بين نهر الراين وجبال الألب ضد الرومان ولمدة أربع سنوات ما بين **16**و**13**و**12**ق.م[12]. ولم يحسم في مصير رضوخ هذا الحلف لسلطة الرومان إلا مع مطلع القرن الميلادي الأول. وكان الجرمان ضمن شعوب البرابرة الذين سطروا بأيديهم وتحت ضربات سيوفهم نهاية سطوة الإمبراطورية الرومانية الغربية وعظمتها سنة **476**م.

2– شمال إفريقيا: رغم أهمية هذه المنطقة وحيويتها في العلاقات الدولية قديما وحديثا، ورغم أنها عمرت منذ عهود سحيقة فإنها لم تحظ باهتمام المؤلفين القدماء ولم يولوها عناية تذكر فكانت المعلومات بشأنها شحيحة ومتناقضة. ذكرها الإغريق باسم (ليبيا) وحددوا موقعها على طول ساحل الأبيض المتوسط بين مصر وخليج سيرت حسب هوميروس[13]. أما هيرودوت[14] فيعتقد أن ليبيا تمتد من غرب مصر حتى رأس سوليس (جبل طارق) أقصى نقطة في القارة الليبية التي يتضح أنها حسب مفهوم أبي التاريخ تشغل مساحة كبيرة من المغرب العربي المعاصر. ويرجح باحثون كثيرون[15] أن اسم ليبيا اشتق من الجذر "ريبو" أو "ليبو" الذي ظهر لأول مرة على نقائش مصرية تعود إلى عهد رمسيس الثاني في القرن **12**ق.م وقد عرف الفينقيون هذا الاسم ونقلوه إلى الإغريق وعن هؤلاء أخذه الرومان[16] غير أن مدلوله تقلص في عهدهم ليقتصر على برقة وبعض نواحيها. واستخدموا مكانه اسما آخر هو "افريكا" وخصوا به في البداية جزءا من تونس الحالية وقد ظل مدلوله يتسع كلما توسع الرومان إلى أن أصبح اسما عاما شاملا للقارة كلها. ونحن نقصد بشمال إفريقيا المنطقة المعروفة بالمغرب العربي وبشكل أدق مواقع وقبائل تنتمي إلى هذه البلاد قديما، ورغم أن شمال إفريقيا القديم مثل وجهة للعديد من

المهاجرين والنازحين فإنه ظل خارج مجرى التاريخ حتى قدوم الفينيين المقدر بأواخر القرن الحادي عشر قبل الميلاد وحتى بعد استقرار هؤلاء به بقي وجهه الآخر أي الوجود المحلي (من شعوب وقبائل وتنظيمات...) متواريا وراء صخب القرطاجيين. وسواء كان ذلك عن قصد آو غير قصد فإن هذا الوجود المحلي عبر عن نفسه مع بروز ممالك البربر المستقلة (نوميديا وموروزيا أو موريتانيا) التي لعبت أدوارا حاسمة خاصة في الصراع بين القرطاجيين والرومان. ومع ذلك فان المعلومات بشان هذه البلاد في القرون الأخيرة قبل الميلاد تظل شحيحة وغامضة. فكيف كانت الأوضاع السياسية والاجتماعية في هذه البقعة من العالم؟ وما هي أبرز التجمعات القبلية فيها قبيل ميلاد المسيح عليه السلام؟

1– الأوضاع السياسية: بعد سقوط قرطاج سنة **146** ق.م في آخر حروبها ضد روما أقام الرومان على أنقاضها أول مقاطعة رومانية في شمال إفريقيا امتدت من مصب الوادي الكبير قرب طبراقة (طبرقة الحالية) إلى مدخل سيرت الصغرى (خليج قابس) جنوبا. وفصل بين هذه المقاطعة وبين المملكة النوميدية خندق عرف بالخندق الملكي. ودعيت بالمقاطعة الإفريقية وشملت أملاك القرطاجيين واللوبيين على حد سواء في مدينة قرطاج[17]. واكتفى الرومان في هذه الفترة بتثبيت حدود مقاطعتهم وتقسيمها إلى قطع مستطيلة[18] دون أن تكون لهم عمليات استيطانية جديدة باستثناء بعض التجار الذين تواجدوا منذ الدولة القرطاجية. إلى جانب هذه المقاطعة .وجدت مملكتا نوميديا وموروزيا. وقد أجمعت المصادر القديمة أن شعوب إفريقيا القاطنة بين المحيط الأطلسي غربا وقرطاج شرقا يمكن حصرها في هاتين المملكتين. تضاف إليهما قبائل الرحل التي ظلت تنتقل تبعا للماء والكلأ.

آ– مملكة نوميديا: ما زلنا نجهل تاريخ تأسيس هذه المملكة بالتحديد. ورغم أن كامبس يؤكد أن تطور الفلاحة والتقنيات الزراعية في شمال إفريقيا قديم جدا ولا يمكن فصله عن عملية تنظيم مجتمعات البربر فإن كل ما نملك عن نشأة هذه المملكة وتكوينها حتى الآن لا يعدو مجرد افتراض يفتقر إلى الدليل القاطع. ويحتمل أن تأسيس هذه المملكة حدث عن طريق القوة بحيث تظهر قبيلة قوية فتسيطر على القبائل المجاورة وتعين عليها قوادا وحكاما تابعين لها. وعليه فان القاعدة الإقليمية لهذه المملكة ضعيفة لا تتجاوز المجال الترابي الخاص بالقبيلة المسيطرة. أما نفوذها وسطوتها على غيرها من القبائل فيتمثل في تبعية رؤساء القبائل الشخصية وولائهم للملك[19]. ونحن نجهل انبثاق القبيلتين الماسيل والمازيس المؤسستين لنوميديا وجل ما كتب حولهما يعد من باب الافتراض. وحتى حدود القرن الثالث ق.م فلا يعرف عنهما سوى اسميهما كما أن هذه المعرفة اعتمدت على إشارات ومعلومات تعوزها الدقة. رغم ما حاول الباحثون[20] تأكيد ه اعتمادا على بعض النقائش اللاتنية والبونية. فلم يرد لدى بيير سانتس المختص في الآثار البونية ما يدعم هذه المعلومات. كما لم تؤكد ها الأبحاث الآركيولوجية التي نشرت في السنوات الأخيرة. وقد امتدت مملكة نوميديا من حدود قرطاج شرقا حتى نهر ملوية غربا. ومن أشهر ملوكها ماسينيسا **210**–**148**ق.م[21] الذي يعتبر ملكا قويا وطموحا. وحد نوميديا. وكان يسعى إلى إقامة مملكة قوية تخلف قرطاج في المنطقة ومن أجل ذلك تحالف مع الرومان ضد قرطاج. وعند وفاته ترك مملكة قوية منظمة تنظيما محكما يعتمد القوة والهيمنة[22] وقد اقتسم أبناؤه العرش بعد وفاته[23]. ومن أشهر أحفاده يوغرطة الذي تحولت نوميديا في عهده من حليف للرومان إلى خصم بل عدو لدود يقارع الرومان ويكيل لهم الطعنات الموجعة مابين سنوات **111** و **105** قبل الميلاد[24]. ورغم هزيمة يوغرطة فإن الرومان لم يتمكنوا من توسيع سلطتهم في نوميديا. وعلى غرار يوغرطة فإن هنالك ملك نوميدي آخر هو يوبا الأول دخل بكل ثقله في الصراعات الرومانية الداخلية وبانتصار خصمه أعلن هو عدوا للشعب الروماني[25] ولما ضاق عليه الخناق انتحر[26] وانتهت بذلك مملكة نوميديا المستقلة وحولها الرومان إلى مقاطعة رومانية تحت اسم إفريقيا الجديدة سنة **46** ق.م عينوا عليها سالوست[27] حاكما.

ب– مملكة موروزيا: تمتد من نوميديا شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا. وقد تحدثت عنها المصادر وذكرت من ملوكها بوخوس، بوغود، وبوخوس الثاني ويوبا الثاني الذي ولاه الرومان عليها سنة25ق.م وبوفاته سنة 25بعد الميلاد[28] حكمها ابنه بطلموس لغاية 40م.عندما اغتيل وألحقت بأملاك الرومان الذين قسموها إلى شطرين منفصلين هما موريتانيا الطنجية وموريتانيا القيصرية[29]. ويعتقد بعض الباحثين إن هذه المملكة أخذت اسمها من قبائل المور التي أسستها في المجال الرعوي الخاص بها[30].

2– الأوضاع الاجتماعية:

كانت هذه الممالك (نوميديا وموروزيا) بالإضافة إلى قرطاج وبقية أقسام شمال إفريقيا تحتضن عددا من القبائل والاتحادات والمجموعات المتنوعة تندرج ضمن مستقرين وأنصاف مستقرين ورحل. وقد تحدث مؤرخو اللاتين عن هؤلاء السكان وذكروا المناطق الخاصة بهم وتلك التي تعودوا ارتيادها أثناء ترحالهم. ومن أشهر تلك الشعوب:

آ– المور: تمتد مرابعهم من وادي ملوية شرقا إلى المحيط الأطلسي غربا[31] تكرر ذكر المور منذ القرن الخامس ق.م حتى أواخر العصور القديمة. فسالوست يشير إلى أنهم من أوائل سكان شمال إفريقيا[32]. أما بطولمي فيجعلهم ضمن قبائل شرق موريتانيا الطنجية. ويحدد سترابون مواطنهم على ساحل مضيق أعمدة هرقل (جبل طارق) قبالة اسبانيا[33] كما ذكرهم تاسيت عندما انضموا بزعامة قائدهم مازيبا إلى تاكفاريناس ضد الرومان[34].

ونتبين من اختلاف الباحثين حول تحديد مواطن المور أنهم رحل كانوا يرتادون منتجعات متعددة قبل أن يستقروا ويؤسسوا مملكتهم وحتى بعد ذلك فليس من المستبعد أن تظل بعض مجموعاتهم تمارس الترحال فتذكر هنا وهناك.

ب– الموسيلام: ارتبط اسمهم بالثورة والتمرد . ذكرتهم المصادر الأدبية والأثرية بصيغ مختلفة، فتاسيت يسميهم موزالاميي ويجعلهم متنقلين ما بين الشمال الشرقي للاوراس والمرتفعات المتاخمة لتباسا[35]. أما بطولمي وبلين القديم فيذكران الموسيلام بموزولاني وموزولامي على التوالي ويصفهم المؤرخ الطبيعي بالتكتل بل الأمة الكبيرة[36]. ويختلف الباحثون المعاصرون في تحديد مواطن الموسيلام فبعضهم وطن الموسيلام في تيبازة من نواحي غالما وخميسة إلى مابعد تاله (بالجزائر). وقد يكون الموسيلام تعرضوا لتهجير طواعي أو اجباري إلى مواقع أخرى حيث يوطنهم ديزانج في جوار الاوراس[37]. وقد بقي فرع منهم حتى أواخر القرن الأول ميلادي في وادي الموتول (ملاق) الحالي حيث ينتقلون شتاء إلى جنوب تيفست وفي الصيف يصعدون نحو الموتول[38]. وقد تكون قبيلة قوبول موسلام التي يقارب كامبس[39] بين اسمها وواد أو جبل قوبول شرقي فريانة إحدي فروع تكتل الموسلام.

ونحن نعتقد أن هذا الاختلاف في الآراء يجد ما يبرره في كون الموسيلام قبيلة تمارس الترحال وطبيعي أن تذكر في مواقع مختلفة. كما أنهم محاربون وقد يكونوا تعرضوا للتهجير من بعض مواطنهم لتأسيس بعض المستوطنات الرومانية. أو لإنشاء مراكز عسكرية في منطقة ترحال الموسيلام لمراقبتهم والحد من توسعهم. ونتبين من خلال سعة الأراضي التي يشغلها الموسيلام وأهميتها كثرة عددهم مما يرجح كونهم تكتلا وليسوا قبيلة واحدة. وقد تحول الموسيلام بعد مراحل عديدة من الكفاح من رحل مشاكسين إلى مستقرين كادحين يشاركون في الجيوش الرومانية على الأقل بكتيبة واحدة من الفرسان المساعدين[40].

ج– الجرمنت: يعتبر هيرودوت[41] أهم مصدر عن الجرمنت، فقد حدد مواطنهم و تحدث عن أعدادهم الكثيرة وعن العربات التي يملكونها والتي تجرها أربعة خيول تتميز بأن قرونها تنحني إلى الأمام وجلودها سميكة. كما ذكرهم سترابون وبلين القديم الذي أشار إلى مواطنهم[42]. وقد امتدت مواطن الجرمنت في عهد الرومان من فزان حتى خليج سيرت،

ويحتمل أن نفوذهم وصل إلى وادي النيل شرقا. ونظرا لكثرة عدد الجرمنت وأهمية دورهم فقد اكتسبوا سمعة كبيرة. وعملوا بالتجارة حتى وصلوا السواحل كما اشتغلوا في الزراعة والرعي. وظلوا يتنقلون مابين مواطنهم في فزان والمناطق الشمالية الأكثر مراعي. ولا تعرف حتى الآن الفترة التي وصل فيها الجرمنت إلى منطقة فزان. كما يختلف المؤرخون في تحديد موطنهم. ولا شك أن معرفة الجرمنت للأنشطة الاقتصادية السابقة سهلت تعرفهم على الأساليب والنظم السائدة في السواحل الإفريقية التي وصلوا إليها، فاستغلوا ذلك في تأسيس مملكتهم التي ازدهرت في أواخر القرن الأول قبل الميلاد[43] ومثلت تهديدا كبيرا لمصالح الرومان في هذه المنطقة خشية ازدهارها المضطرد واحتمال توسعها في مناطق نفوذهم في شمال إفريقيا بعد انهيار قرطاج وإخضاع مملكتي نوميديا وموروزيا. ومن الواضح أن ساسة الرومان في تلك الحقبة كانوا على دراية واسعة بأوضاع شمال افريقيا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.فوجهوا سلسلة من الحملات العسكرية إلي هذه البلاد بغية إخضاع سكانها وجلب خيراتها واستغلال موقعها الاستراتيجي الهام. وفي هذا الإطار تندرج حملة كورنيليوس بالبوس سنة 19 ق.م إلى بلاد فزان [44] والتي تحدث عنها بلين القديم وعدد المدن والقبائل والمواقع التي مرت بها [45]. وذكر كيف انتصر بالبوس وجنوده و تمكنوا من إخضاع مدينة جرمة عاصمة الجرمنت كما أخضعوا عدة مواقع أخرى[46].

حاولنا في الصفحات السابقة أن نتعرف على بعض شعوب الأبيض المتوسط في ضفتيه الشمالية والجنوبية في القرون الأخيرة قبيل الميلاد وذلك من خلال الحديث عن أوضاعها السياسية والاجتماعية. وكيف عاش الإنسان في هذه المنطقة؟ وكيف استطاع أن يطور حياته ويرسي قواعد مدنيته انطلاقا من بيئته الخاصة ومن تفاعله مع جيرانه؟ كما حدث في شبه الجزيرة الايطالية وفي بلاد الغال وفي نوميديا وموروزيا وغيرها من المواقع. فهل كانت رحلة الشعوب المتوسطية إلى المدنية شاقة؟ أم أنها مجرد نزهة؟ وما هي المعوقات التي واجهت (المتوسطيين)عند فجر التاريخ؟ وهل يمكن مقارنتها بالمشاكل التي يعانون منها في الفترة الراهنة؟

الهوامش

1- محفل محمد، تاريخ الرومان، دار ابن خلدون، دمشق، 1974، ص 176-177.
2- محمد محفل، المرجع السابق، ص177.
3- Heurgon, rome et la mediterranee jusqu aux guerres puniques .paris.1969.p53-54.
4- محمد محفل، المرجع السابق، ص180.
5- B.H..warmington.histoir et civilisation de cartage. Paris.1961.p208.
6- بيتي راديس، فتح بلاد الغال-يوليوس قيصر .ترجمة علي زيتون، دار علاء الدين، دمشق، 2003. ص 17.
7- من أشهر القادة العسكريين الرومان أخضع بلاد الغال وحكم روما كأول دكتاتور في تاريخها لكنه اغتيل في العام 44 ق.م، أنظر بيتي راديس، المرجع السابق، ص7 – 16.
8- نفسه، ص 18.
9- Heurgon j.op-cit, p298.
10- بيتي رادس، المرجع السابق، ص19
11- Harmand/l..l occident romain/…/.paris.1960.p.55
12- Roux/p.le/.l` armee romaine et l` organiation des provinces iberiques.paris.1982.p.65-7
13- موسوعة تاريخنا، دار التراث، 1977، ج3، ص103.
14- نفسه، ص122.
15- نفسه، ص194.
16- التازي سعود، صفحات من تاريخ المغرب القديم، منشورات فكر، ا لرباط، 2008 ، ص10.
17- Cintas p.deux campagnes de fouille a utique.dans kartago.13.1967.p.78
18- Saumangne , ch. le droit latin et les cites sous l` empire .paris.1979.p.70
19- Gsell/s.histoire ancienne de l` afrique du nort.t.7.paris.1928.p.400
20- Camps /g./ ,berberes aux marges de l` histoire ,.Paris .1980.p.88-250

21- Tite-live.histoire romaine..xxx.12-18
22- Cintas/p./.manuel d archeologie punique/…/. T.1.Paris.1970.pp-99-242
23- Camps/g./berberes…p.215
24- فنطر محمد، يوغرطة من ملوك شمال غفريقيا وأبطالها، الدار التونسية للنشر، ص.
25- ريستوفيتزيف، تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعي و الاقتصادي، ج1 ، ترجمة وتعليق..زكي علي ومحمد سليم، مطبعة النهضة المصرية، ص360.
26 -Carcopino /j./.les etapes de l` imperialisme romain .Paris.1961.p.452
27 -Carcopino /j, op- cit, p454.
28- pline l'ancien, histoire naturelle, textes établis ,traduits et commentes par J.desanges.Paris.1980.v.16
29- Decret/f//Fantar/m/.l` afrique du nord dans l` antiquité .Paris .1981.p.157.160-161
30- ب.هـ وارمينجتو، العصرالقرطاجي، تاريخ إفريقيا العام، مج2، جين افريك، اليونسكو، 1985، ص454.
31- نفسه، الصفحة نفسها.
32- Camps(g) berberes , op-cit, p13
33- Strabon, geographie, Traduction F. Lasserre, Aujac et balladie, belles lettres, Paris 1970
34- Tacitie, Annales II,52, Traduction wuillemier, belles lettres, Paris 1975
35- Id.Ibid
36- Pline L` ancien, histoire naturelle,v,30
37- Desanges(J.), catalogue des tribus africaines, Dakar, 1962, P.117
38- Leschi (L.), etudes d epigraphie, d archeologie et d histoire africaines, Paris, 1957, P.65
39- Camps (G..), Massinissa ou les debits de l histoires, dans lybica, T.8, 1960, P.251-252
40- Toutain (J.), le territoire de Musulami, dans MSNAF, 1898, T.58, P.287
41- Herodote, histoires, IV, 182, 189, Traduction S.GSELL, Alger, 1915
42- Histoires naturelles, V, 35
43- خشيم (علي فهمي)/نصوص ليبية ، دارمكتبة الفكر، طرابلس، 1967 ، ص124-125
44- DESANGES(J.), Le triomphe de cornelius balbos 19 Av.JC, dans R.AF, 1 et 2eme trimestre, 1957, P.40
45- Histoire Naturelle, v,35
46- خشيم (علي فهمي)، المرجع السابق، ص124-125

من أعلام المدرسة المالكية بتوات

العالم المجدد عبد الرحمن بن ابراهيم الجنتوري الجراري التواتي (ت : 1160 هـ)

(عصره، حياته وآثاره)

أ. عبد الرحمن بعثمان، جامعة بشار– الجزائر

مقدمة: تقع منطقة توات في الجنوب الغربي للجزائر، وتمثل حاليا الحدود الإدارية لولاية أدرار، تتكون المنطقة من ثلاثة مناطق فرعية هي تنجورارين[1]، توات، وتيدكلت[2] ، وتتوضع هذه المناطق بشكل هلالي على سفح هضبة تدمايت، وتتساكن في توات مزيج من قبائل عربية وبربرية وزنجية بتجمعات تسمى القصور ويعتاشون على الزارعة الواحية والتجارة، ولقد واكب هذا الغنى والتنوع الذي عرفته واحات توات نهضة فكرية كبيرة حيث ظهرت على فترة من استقرار العناصر العربية مراكز علمية زاهرة أسهمت بالنهوض الفكري بدء من القرن التاسع للهجرة، حيث أثمر ذلك بروز العديد من العلماء العالمين الذي أغنوا المكتبة المحلية بمؤلفات رصدت مدى المستوى العلمي الذي عرفته المنطقة مابين القرنين 09–13 للهجرة، ومنهم العالم الكبير الشيخ أبو زيد عبد الرحمن بن ابراهيم الجنتوري هذه القامة العلمية التواتية التي سيتناول هذا البحث عصره وحياته وآثاره

الحركة العلمية في توات خلال القرن 12هـ:

عرفت توات خلال القرن الثاني عشر الهجري (18 م) نهضة علمية كانت امتدادا لنهضة علمية واسعة عرفتها الحواضر العلمية المنتشرة في أرجاء شمال أفريقيا، كالقاهرة وفاس ومكناس مراكش وغيرها والتي أنجبت علماء كانوا رواد إصلاح وناشري علم ومعرفة، وقد كان لهذه الحواضر الوقع المؤثر على توات بحكم الجغرافيا والتاريخ بدأت بوادره في الظهور منذ القرون (09–10–11هـ) وتوجه تأسيس مراكز علمية كان لها الأثر البالغ في بعث الحركة الثقافية والعلمية في عموم البلاد التواتية

قبل الحديث عن الحركة العلمية والثقافية في توات يجدر بنا أن نسلط بعض الضوء على جذور هذه الحركة، لأن الحاصل لم يكن ليخرج من عدم، بل هو تراكم لأعمال جليلة وعوامل عديدة، ساهمت في تشكيل بناءٍ تبلور كحركة علمية ونشاط فكري ميز القطر التواتي.

إن موقع منطقة توات، من حيث هو معبر حتمي للقوافل التجارية بين المدن الشمالية وجنوب الصحراء أضفى على المنطقة حركية اقتصادية نشطة ساهمت إلى حد كبير في اجتذاب العديد من الجماعات البشرية التي آثرت الإستقرار في الإقليم لما يوفره من أمن ورغد عيش3 وقد أشار إلى ذلك ابن خلدون الذي وصف توات أنها بلد مستبحر في العمران وأنها الممر الحتمي الذي تسلكه القوافل إلى بلاد السودان "مالي"4.

وتشرف توات أيضا، على طريق آخر لا يقل أهمية عن الطريق الأول، وهو طريق تسلكه رِكاب الحاج القادم من سجلماسة وشنقيط والمتوجه نحو الحجاز عبر صحراء ليبيا ومصر، والذي مر به العياشي، صاحب ماء الموائد5، ولاشك أن لركاب الحاج أهمية بالغة في تنشيط الحركة العلمية في المحطات والمراكز التي تتوقف عندها، إذ عادة ما يحمل الركب علماء أجِلاء يديرون ــ خلال فترات الراحة ــ بعض الدروس يتهافت طلبة العلم في توات إلى حضورها للاستزادة من علومهم وطلب الإجازة منهم.

ولعل أقدم مركز الاستقرار في توات كان مدينة تمنطيط، التي تقع في نقطة تقاطع الطريقين السابقين، حيث عرفت خلال الفترة انتعاشا اقتصادياً6 وعلميًا كبيراً تحدث عنه صاحب القول البسيط في أخبار تمنطيط بقوله: إعلم أن تمنطيط اسم لمدينة في إقليم توات إجتمع فيها العلم والولاية والعمارة والديانة ونصبت بها الأسواق والبضائع، وكان لا يستغني عنها غني و لا زاهد " 7. فقد آثر العديد الكثير من العلماء الهجرة إليها والإستقرار بها، حيث حل بها أبو يحي المنياري المتوفى سنة 840هـ، والذي استقر بتمنطيط سنة 815هـ /1412م8 وأسس زاوية عكف من خلالها على التدريس ونشر العلم والمعرفة بينهم، ومن هؤلاء العلماء أيضا نجد الشيخ يحي التدلسي المتوفى سنة 877هـ/1414م9 الذي حل بتمنطيط سنة 845هـ /1441م 10 فتصدّر لتحفيظ القرآن ومبادئ اللغة العربية وتدريس الفقه المالكي معتمداً على كبريات مصنفات المذهب كالمدونة، ومختصر ابن الحاجب والموطأ وغيرها، فأثرى بذلك الساحة العلمية في عموم البلاد التواتية، فاجمع أهل تمنطيط على توليته قضاء الجماعة للفصل في الخصومات التي تحصل بينهم، وقام على ذلك حتى وافته المنية بها سنة 877هـ/1441م11.

ومن العلماء الذين دخلوا توات في نهاية القرن 09هـ الشيخ عبد الله بن أبي بكر العصنوني الذي استقر أولا ببني تامرت12 سنة 862هـ /1458م 13 ثم انتقل إلى تمنطيط سنة 863هـ /1459م وتصدر الشيخ للتدريس وتولى خِطة القضاء بعد وفاة التدلسي سنة 877هـ/ 1472م14، ثم خلفه في ذلك ابن أخيه سالم العصنوني الذي ذاع صيته بعد نازلة اليهود التي تناظر فيها مع الشيخ محمد بن عبد الكريم المغيلي الذي دخل توات واستقر بتمنطيط سنة 882هـ /1477م، وأخذ على علمائها وأعجب بمستواهم العلمي حيث قال"...ودخلنا توات فوجدناها ديار علم ومقر أكابر وأعلام فانتفعت بهم وانتفعوا بنا "15، ولقد أضفى الشيخ المغيلي نفسًا جديدًا للحركة العلمية لاسيما السجال العلمي في القضايا المشكلة خاصة فيما يتعلق بقضية وجوب محاربة يهود تمنطيط .

من بين أهم العلماء الذين استقطبتهم توات الشيخ ميمون بن عمرو بن محمد بن عمر البازي، مؤسس العائلة البكرية بتمنطيط، التي سوف يكون لها الأثر البالغ في الحركة العلمية في عُموم البلاد التواتية خلال القرنين 10-11 الهجريين، حيث تصدر علماؤها التدريس وتخرج على أيديهم العديد من العلماء

لقد كان للزاوية البكرية الأثر البالغ في الحياة العلمية في توات، حيث تخرج منها العديد من العلماء أشرفوا على تأسيس زواية عامرة كزاوية تنلان والزاوية الرقادي و زاجلو وغيرها.. والتي أصبحت منارات علمية يقصدها الطلاب من توات وخارجها، ومن أهم الطلبة الذين قصدوا الزاوية البكرية من داخل توات كان الشيخ سيدي أحمد بن يوسف التنلاني[16] مؤسس زاوية تنلان سنة 1058هـ والتي أصبحت خلال القرن الـ 12 للهجرة مقصد طلبة العلم بفضل صيت باعثها الشيخ عمر بن عبد القادر التنلاني[17]، الذي حل بتنلان بعد عودته فاس التي قضى بها 13 سنة دارسا ثم مدرسا، ومن أوائل الطلبة التواتيين الذين درسوا لدى الشيخ عمر التنلاني كان العلامة الجليل المجدد عبد الرحمن بن إبراهيم الجنتوري الذي شغل مالكية توات بأرائه التجديدية في القرن الـ 12 للهجرة .

المولد والنشأة: هو الشيخ الكامل الصالح النحرير الأبر أبي زيد عبد الرحمن بن أبي إسحاق إبراهيم بن محمد بن علي الانصالحي ثم الجنتوري الجراري الانصاري[18] ، ولد بقرية جنتور بقورارة بتوات، يذكر تلميذه عبد الرحمن التنلاني في فهرسته أن أصل سلفه من قرية تيطاف[19] بتوات ثم انتقلوا الى عين صالح بتديكلت وانتقل جده عبد الرحمن إلى جنتور واستقر بها، ولا تذكر أي من المصادر المبسوطة تاريخا محددا لميلاده إلا أننا نجد في ثنايا نوازله التي جمعها الشيخ محمد بن عبد العزيز المسعدي الجراري أنه توفي عن نيف وخمسين سنة [20].

كان الجنتوري، بحسب ما هو مبسوط في المصادر المخطوطة، عالما عاملا متواضعا، مفتشا، محققا، مناظرا، دراكا، جدليا، مشاركا، في فنون العلوم لا يماريه أحد إلا لجمه ، ضاربا في المعقول والمنقول ، قوالا للحق لا تأخذه في الله لومة لائم زاهدا بما في أيدي الناس مكتفيا بما يؤمن قوته وقوت عياله، منشغلا بما يعنيه ملازما للقراءة والإقراء والتقييد [21].

تعليمه وشيوخه

تلقى الشيخ عبد الرحمن الجنتوري مبادئ علومه على يد والده الشيخ أبي إسحاق إبراهيم بن أحمد الانصالحي[22] – [23]، حيث حفظ القرءان الكريم في سن مبكرة وانبرى لدراسة مذهب الإمام مالك حيث درس مختصر خليل، كما أخذ على ابن عمه المشارك عبد العلي بن أحمد الانصالحي، حيث درس على يديه مختصر خليل ورسالة بن أبي زيد القيرواني والتلمسانية والفرائض وبعض ألفية بن مالك والقلصادي[24].

حاول الشيخ الجنتوري السفر في طلب العلم إلى الحضرة الفاسية فرده أهله[25]، ولما بلغه خبر عودة الشيخ عمر بن عبد القادر التنلاني إلى توات قادما من فاس رحل إليه وأقام عنده نحو سنة ونصف أحد عليه خلالها دروسا في مختصر خليل وجمع الجوامع والسلم في المنطق وتلخيص المفتاح ولامية الأفعال كما أخذ دروسا في صحيح البخاري ورسالة بن أبي زيد القيرواني وألفية بن مالك ثم رحل إلى جنتور وأقام مدة ثم رجع إلى تنلان فأقام ستة أشهر فدرس على الشيخ مختصر السنوسي وعقيدته الكبرى. [26]

تلامذته:

لم يكن الجنتوري ينظر بعين الرضا للمستوى العلمي لطلبة منطقة تنجورارين من بلاد توات الكبرى (قورارة)، حيث كان يشتكي قلة استيعابهم لغلبة العجمة عليهم، وكان يفضل عليهم طلبة توات لجودة قرائحهم وقرب لسانهم للعربية وقوة استيعابهم، وبلغ به الأمر إلى درجة رغبته في الرحيل إلى المشرق لعله يجد من يأخذ عنه[27] ومن أهم تلامذة الجنتوري العالم الجليل عبد الرحمن بن عمر النتلاني، والشيخ محمد بن عبد الجبار بن أحمد التنكرافي والشيخ محمد عبد العلي بن عبد الحكم، ومحمد بن عبد العزيز المسعدي الجراري [28].

مؤلفاته:

ألف الشيخ عبد الرحمن الجنتوري العديد من المؤلفات نذكر منها:

– نظم معونة الغريم في بعض أحكام قضاء الدَّيْن: نظم الجنتوري قصيدة في الأحكام الفقهية الخاصة بقضاء الدَّين تتكون من مائتين وسبعة (**207**) أبيات مبوبة على فصول وأبواب يقول في مطلعها:

الحمدُ لله وسيّدُ الأنـــــامْ عليهِ أفضلُ الصلاةِ والسلامْ
وآلهِ وصحبِه الأعـــــلامِ ما الحَمدُ في المبدإ والختـــامِ
وبعدُ فالقصدُ بهذا ذكرُ بعض أمورِ الدّين فيها عسرُ
لمثلِنا تبصرةٌ ونستعيـــــنْ اللهَ في كل الأمور تستهيـــنْ
سمّيتُهُ معونةَ الغَريـــــمِ ببعضِ أحكامِ قضا الملّيـــــمِ

– شرح على معونة الغريم : ، ذكره تلميذه عبد الرحمن بن عمرفي فهرسته فقال " ومنها شرحه على معونة الغريم، لم أقف عليه ثمّ وقفت عليه **29** .

– حاشية مستقلة على الشيخ عبد الباقي الزرقاني : وردت الإشارة إليها في معظم المصادر المترجمة للشيخ الجنتوري ، وهي عبارة عن تقاييد وطرر على شرح الزرقاني لمختصر خليل ، أنكر فيها عليه خرق الإجماع ، ابتدأها من أول المختصر شرحًا ، وأسند المسائل لأصولها، ومع ذلك لم تكمل ولم تخرج من مسودّتها 30 .

وقد عرض الشيخ الجنتوري تلك الحاشية على الشيخ العالم اللغوي محمد بن أبّ المزمّري للتقريظ 31، يقول فيها :

بُشرى فقد صارَ سَيفُ الحقّ مصقولا وعادَ طعمُ مَذاقِ العلمِ مَعسولا

إنّ العلومَ ابنَ ابراهيم أُعْطِيا عفواً فحازَ بها فخراً وتفضيـــلا

العالِمُ الفردُ لا حِبرٌ يُناظِـــره إنْ خاضَ في العلم معقولا ومنقولا

أكرِمْ به عَلَماً به تواتُ حَـــوَتْ على القرى كلِّها فخرا وتبجيلا

أَبدى جواهرَ من فنّ الفروع با قد جمّلَ العقلَ من ذا الفنّ تجميلا

من كان للهِ كان اللهُ مُظفـــرَه بما يحاول تسهيلا وتحصيـــــلا

لكنْ سألتُ فقالوا أمرُه عَجَـــبٌ إن الفتى نالَ للتأليف تأهيـــــلا

ما فيه عيب سِوى ما كان صَيّـــره مِن قبلُ عن خطة التأليف مشغولا

فنالَني عجبٌ مِن ذاكَ أَذْهَلـــني حتى نطقتُ ببيتٍ فيه تمثـــــلا

إنّي لأعجبُ مِن سيفٍ جلٍ ماضٍ وليس يُرى في الخَطب مسلـــولا

– تأليف في التصوف في أحوال أرباب القلوب : وردت الإشارة إليه من قِبل تلميذه محمد بن عبد العزيز المسعدي في مخطوط النوازل 32 .

– شرح على مختصر خليل : ابتدأه من الخطبة إلى النكاح في توجيه كلام المتن 33 .

– رجز في علم الكلام في مسألة الكون : قال عنه ضيف الله "لم يسبقه أحد في ذلك فيما نعلم ، وله عليه شرح في نحو أربعة وستين بالقالب الرباعي ، بيّض له محمد بن أب المزمري من المسودّة وأصلحَ فيه مواضع بموافقته 34 .

– منظومتان في علم الكلام رائية ولامية : ضمّنهما محصّل كلام السنوسي في عقائده وشروحها ، وهما في غاية الإفادة ، يقول عنهما التنلاني " قرأتُهما معاً عليه ، إلاّ أنّه لم يكن يتقن فنّ العروض والقوافي ، فلذلك يوجد فيهما من عيوبهما كثير ، وقد أذِنَ لي في إصلاح ما ظهر لي من ذلك فيهما ، فأصلحتُ ما أمكنَني ، وله عليهما شرحان في غاية الإفادة ، أكثرَ فيهما النّقل من كلام الإمام المحقّق أبي علي سيدي الحسن بن مسعود اليوسي في حاشيته على الكبرى ، وهما مما يُستدلّ به على مكانته في ذلك الفن " 35 .

– شرح مستقلّ على المختصر إلى أركان الطلاق : وقف عليه العلامة محمد بن أبّ المزمّري ، حسبما ذكر ابنه ضيف الله 36 .

– قصيدة في الفرائض: ذكره تلميذه عبد الرحمن بن عمر بأنّه لم يقف عليها37 .

حياته العلمية وآراؤه الفقهية

01–تكوينه العلمي:

يعد عبد الرحمن الجنتوري من أوائل الطلبة الذين درسوا لدى الشيخ عمر بن عبد القادر في تنلان، وتميز بنبوغه في الفقه حتى أنه فاق شيخه عمر بن عبد القادر، وقد شهد بذلك بعض تلامذته على رأسهم تلميذه عبد الرحمن بن عمر التنلاني

الذي أورد في فهرسته أنه استحسن طريقته في التدريس، وقال أنه استفاد منه أضعاف ما استفاد من الشيخ عمر بن عبد القادر التنلاني قال عبد الرحمن التنلاني في فهرسته:

وكان ــ رحمه الله ــ أعلم من لقيته بالأصول والقواعد الفقهية، فاق في ذلك شيخه أبا حفص المذكور، فضلاً عن غيره، عارفاً باستخراج الفروع والنوازل منها وبردها إليها، وقد قال لي يوما وددت أني وجدت طالباً حاذقاً أقرئه مختصر الشيخ خليل على أن أسند كل مسألة منه إلى أصلها، وانتهت إليه الرياسة في الفتوى والتدريس في صقعي توات وتجورا رين بعد وفاة شيخنا أبي حفص، وكان إذا رُفع إليه سؤال في نازلة يشحن جوابه بالمعقول ويُطيل فيه النّفس، وإذا وقف عليه من فقهاء العصر من لا إلمام له بالقواعد أنكره استطالة ظنا منه أنه لا طائل تحته وذلك لجهله، ومن جهل شيئا عاداه، وقلّ ما جاءه سؤال في كاغد إلا و أملاه بجوابه بديهة ــ رحمه الله ــ وكانت بينه وبين شيخنا أبي حفص مراجعات في مسائل لم يراجع أحدهما فيها بصاحبه حتى توفي أبو حفص، وطالت بيني وبينه المراجعة في بعضها بعده، وذلك أني كنت استصوبت رأي أبا حفص فيها فلم يزل يراجعني حتى رجعت إلى رأيه، ووقع لي ذلك معه في مسائل وتلك عادته ــ رحمه الله ــ مع كل من خالفه، لا يزال يراجعه بالمعقول والمنقول حتى يسلم له صاحبه أو يرى منه عناد"[38].

وجاء في رحلة ضيف الله بن محمد بن أب على لسان أبيه، أن الجنتوري بلغ في مستواه العلمي مبلغًا فاق به شيخه عمر بن عبد القادر حتى أنه لو أدركه لقرأ على يديه[39]

وقد تصدر الشيخ الجنتوري التدريس في تينجورارين التي استقر بها الشيخ محمد بن أب المزمري، حيث كانا يقضيان معا أوقاتًا طويلة في إصلاح المقطعاته الشعرية ومراجعة النوازل التي كانت ترد له[40] وأورد التنلاني في ترجمته للشيخ الجنتوري أن الشيخ لما زار الحرمين في رحلة حجه لم يجد من يجاري الشيخ عمر بن عبد القادر التنلاني في علمه إلا عالما في الحديث[41].

02–آراؤه التجديدية في المذهب المالكي

وبرغم أن الجنتوري تلقى تكوينًا محليًا، لعدم التحاقه بأي من الحواضر العلمية خارج توات ــ إلا ما كان له من رحلة إلى الحج ــ غير أنه مثل ظاهرة فقهية فريدة في منطقة توات توات، حيث نستشف مما جاء عنه في فهرسة التنلاني أنه كان انتبه إلى أزمة الجمود الذي كان يعاني منه الفقه المالكي بفعل اكتفاء علمائه بالنقول والاختصارات والاهتمام بالفروع وترك الأصول، حيث دعا إلى ضرورة العودة إلى الكتاب والسنة باعتبارهما أصل كل الأحكام بدل الدوران في الفروع وأنتقد بشدة علماء عصره الذين يولون الاهتمام الفروع وهذا ما يجعلهم حسبه لا يستقرون على رأي وتتميز أحكامهم بالاضطراب حيث أنهم يفتون في كل يوم بقول لأنهم لا يجتهدون في ضبط المسائل ودعا إلى ضرورة التفقه في أحكام الآيات القرآنية والأحاديث لأنه ما من فرع إلا وله دليل من الكتاب والسنة[42]

ويظهر تميز الجنتوري جليا في الفتوى التي أصدرها وجمعت فيما سمي بنوازل الجنتوري والتي تعد حسب ــ جامعها إن تمكن من جمعها كاملة لفاقت نوازل المعيار للونشريسي ــ وقد أبرز فيها الجنتوري قوة فائقة في التحقيق والضبط والتدليل كان يشحن جوابه بالمعقول والمنقول ويطيل النفس في ذلك، أضف الى ذلك تلك السرعة في استحضار الأدلة والنقول من أمهات كتب المالكية كمحمد الهواري ابن عبد السلام التونسي، وابن عرفة في كتابه الحدود وخليل في مختصره وابن غازي والحطاب في مواهب الجليل وكتب علي والأجهوري والتتائي وكتاب التبصرة لابن فرحون، بل كان يضرب النقول بعضها ببعض ويميز بين السقيم وينسب كل قول لقائله بأمانة[43].

03-موقفه من قضاة توات

وكان الجنتوري شديد النكير على قضاة توات فكان يتهمهم بالجور والجهل ومخالفة الشريعة في كثير من أحكامهم ومن جملة ما انتقد به قضاة عصره أنهم يقبلون شهادة المدعي مكتوبة على ورق ولو كان حيا حاضرا ولا يكلفون أنفسهم الإتيان به للتحقق من خطه وهذا خلاف ما يجري عليه إجماع الأمة ، وهم برغم ذلك ــ حسبه ــ لا يقبلون النقد ويشنعون على منتقدهم. كما أخذ عليهم حكمهم بيع العقار المرهون بالدين قبل الاعذار إلى المدين، كما أنهم يحكمون في المواريث قبل إثبات الموت وعدة الوراثة وحكمهم على الغائب من غير تسمية الشهود وتساهلهم في تحليف القائم يمين القضاء[44].

كما انتقد الجنتوري ما درج عليه قضاة توات في أنهم يأخذون أجرة معتبرة لقاء إخراج نسخة الحكم وقال أن هذا لا أصل له في المذهب بل يعد من قبيل أكل أموال الناس بالباطل، وتعجيز للخصم، رغم أنه يورد أنه للقاضي أن يؤجر على قضائه ولكن بمقدار التعب[45]

ومن جملة الانتقادات التي وجهها للقضاة، ما أجاب عنه في نازلة تتعلق بالمبالغ المالية التي درج قضاة توات على أخذها من الخصمين قبل الحكم وقال أنه يلزم على القاضي أن يأخذ أتعابه المعقولة من المحكوم له كما اثأر أيضا قضية احتمال وجود وجهين للحكم وقال أن بعض القضاة في توات كانوا يحكمون لمن يدفع أكثر واستدل بقول الشافعي : من ولي القضاء ولم يفتقر فهو سارق واستشهد بالأبيات[46]

أتقا الله ياخليلي رويدا		واجعل العلم أخراك بيدا
ولاتكن كمعاشر الفقهاء		جعلوا العلم للدرهمين صيدا
أخذوه فصيروه معاشا		ثم كادوا البرية كيدا
فلهذا صب البلاء علينا		مستحقا ومادت الأرض ميدا

ويحتمل تلميذه عبد الرحمن التنلاني أن سبب وفاة الشيخ الجنتوري كان بدسيسة من هؤلاء القضاة الذي أمعن في انتقادهم[47]

وفاته: توفي الشيخ عبد الرحمن الجنتوري في الثالث من جمادى الأولى سنة 1160هـ وهي السنة التي توفي فيها الأديب ابن أُب و الفقيه محمد الصوفي من علماء قورارة، وقد رثاهم ضيف الله بن أب بقوله[48]

تُوفي الشَيْخُ فِيْهَا عنْ قَريبٍ بِأَهْوَنِ مِنْ جُمَادَى مِنْ غَيرِ لُبسِ
بيومِ عَاشِرِ منهُ بعامٍ مِنْ الستينَ فِي التَحْقِيقِ حَدْسِ
وَفِي ذَا العَامِ قَدْ غَارتْ عُيون كَصُوفي وجَنْتوري ونحسِ

الخاتمة: عاش الجنتوري منافحا عن الحق لا يخاف في الله لومة لائم فحق له قامة علمية فارهة في سماء المشهد الفقهي في منطقة توات خلال القرن 12هـ، حيث إنه ورغم تكوينه المحلي الصرف إلا أن سعت اطلاعه جعلته يتفرد عن معاصريه من الفقهاء وقضاة توات فكان أول من انتبه إلى أزمة الجمود التي يعنيها المذهب المالكي وراح يدعو إلى التجديد بالعودة لأصول الإحكام بدل الاكتفاء بالفروع، كما أنه كان دائم الإشارة إلى الأخطاء المعضلة التي يقع فيها قصاة توات خاصة فيما يتعلق بالشهادة وبعض الأحكام القضائية الجائرة كالمفاضلة بين المتخاصمين وغيرها وبذلك مثل الجنتوري ما يشبه محكمة الاستئناف إذ كانت ترد عليه الأقضية من عموم توات ويبدي الرأي فيها معتمدا على الأدلة

الفقهية لذا فغننا نلمس في مؤلفاته تلك القوة في الطرح والانتقاد اللاذع لمخترقي قواعد المذهب فقهاء كانوا أم قضاة فرحم الله شيخنا الجنتوري وجزاه عنا ألف خير.

الهوامش

1 - تنجورارين (قورارة): لفظ بربري زناتي معناه المعسكر.
2 - تيدكلت: لفظ بربري معناه الصحن.
3 - ابن بابا حيدا ، القول البسيط في أخبار تمنطيط ، تحقيق: فرج محمد فرج، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر 1977 ص11.
4 - ابن خلدون عبد الرحمن بن محمد، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أخبار العرب والعجم والبربر، تحقيق: خليل شحادة، مراجعة سهيل زكار ، بيروت : دار الفكر2001، الجزء 01/76-77 .
5 - العياشي أبو سالم، الرحلة العياشية، ماء الموائد، فاس، طبعة حجرية ، الجزء 1/20-21.
6 - تحدث عنها ابن خلدون، حيث وصف أسواقها في سياق حديثه عن حركة القوافل في الصحراء حيث أورد أن قبائل من تلمسان يسمون ذوي عبيد يمرون على تمنطيط في طريقهم إلى بلاد السودان ينظر: (ابن خلدون ، العبر، الجزء80/6.).
7 - ابن بابا حيدا، القول البسيط في أخبار تمنطيط، ص14.
8 - نسبة إلى بني منيارة وهي قبيلة من العرب معروفة بأرض التلول ينظر :(ابن بابا حيدا، القول البسيط، ص30).
9- دفين أولاد علي بن موسى بتمنطيط، ينظر :(ابن بابا حيدا، القول البسيط ،ص31).
10 - بكري عبد الحميد ، النبذة في تاريخ توات وأعلامها ،دار الهدى ، الجزائر ،2005، ص76. وأيضا: ابن عبد الكريم، درة الأقلام، ورقة 19).
11 - الحمدي أحمد، محمد بن عبد الكريم المغيلي، رائد الحركة الفكرية في توات، عصره وآثاره، رسالة ماجستير، المعهد الوطني للحضارة الإسلامية، وهران ،1999-2000م، ص67.
12 - تقع بني تامرت ضمن إقليم الآن بلدية تيمي ، وتبعد عن مدينة أدرار بـ 07كلم. .
13 - ابن عبد الكريم، محمد التمنطيطي، درة الأقلام في أخبار المغرب بعد الاسلام، خزانة كوسام، أدرار ، الجزائر، ورقة 19.
14 - ابن عبد الكريم، درة الأقلام، ورقة 19.
15 - حاج أحمد الصديق، التاريخ الثقافي لإقليم توات خلال القرنين (11 - 14هـ -17-20م)، طبعة مديرية الثقافة لولاية أدرار، 2003، ص50.
16 - الشيخ سيدي أحمد بن يوسف الوانقالي ثم التنلاني مؤسس زاوية تنلان توفي 1078 هـ (ينظر: المهداوي،عمر بن عبد القادر، الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية، خزانة مولاي سليمان بن علي، أدغاغ ،أدرار ـ الجزائر ، بدون ترقيم ، ورقة 01.
17 - ولد سنة 1098 هـ رحل إلى المغرب الأقصى طالبا للعلم لـ 13 سنة أخذ فيها عن الشيخ محمد بن أحمد المسناوي و الشيخ الحسن بن رحال المعداني و الشيخ أحمد بن مبارك السجلماسي و الشيخ محمد بن عبد السلام بناني و الشيخ محمد بن زكري الفاسي و الشيخ محمد حفيد ميارة الفاسي و غيرهم، ما أهله للتدريس بجامع القرويين والمدرسة المصباحية بفاس، رجع إلى توات و تصدر للتدريس و ببلدته تنلان توفي عشية الإربعاء لثلاث ليل خلون من ربيع الأول سنة 1152 هـ . أنظر ترجمته في: عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، الفهرسة، ص ص 82، 91، 98. وأيضا :بن أب ضيف الله، الرحلة لزيارة قبر الوالد، مخطوط، بخزانة سيدي أحمد ديدي بتمنطيط، ورقة32 .
18- محمد باي بلعالم، الرحلة العلية الى توات، دار هومة ، 2005 ، ج 01 ، ص 161 .
19- تِطاف أو تيطاف من قصور بلدية تامست حاليا ، يقع على مسافة 60 كم جنوب أدرار .
20 - الجنتوري، عبد الرحمن بن إبراهيم، نوازل الجنتوري، جمع وترتيب محمد بن عبد العزيز المسعدي الجراري، خزانة بن عبد الكبير (المطارفة ، أدرار)، ورقة 01.
21- يُنظر ترجمته في المصادر التالية : عبد الرحمن بن عمر التنلاني ، فهرسة التنلاني ، ص 87 وما بعدها / عبد القادر بن عمر المهداوي ، الدرة الفاخرة في ذكر المشايخ التواتية، مخطوط بخزانة الوليد بن الوليد، قصر باعبد الله، أدرار، ص 18 / ضيف الله بن أبّ، الرحلة إلى قبر الوالد، مخطوط بالخزانة البكرية، تمنطيط، أدرار، ص 67 - 81 / البكري بن عبد الكريم بن البكري، إعلام الإخوان بأخبار بعض السادة الأعيان، مخطوط بالخزانة البكرية، تمنطيط، أدرار، ص 16 / عبد الرحمن الجنتوري، نوازل الجنتوري، جمع وترتيب محمد بن عبد العزيز المسعدي الجراري، مخطوط بخزانة بن عبد الكبير، المطارفة، أدرار ، ص 01 .
22 - نسبة إلى عين صالح من بلاد تيدكلت (تقع الآن ضمن الحدود الإدارية لولاية تمنراست - جنوب شرق الجزائر) الجنتوري، نوازله، ورقة 01
23 - الجنتوري، نوازله، ورقة01
24 - نفسه، ورقة 01
25- التنلاني، عبد الرحمن بن عمر، فهرسة التنلاني، دراسة وتحقيق ، عبد الرحمن بعثمان، مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير، بإشراف الدكتور محمد بن معمر، جامعة بشار، 2009، ص 87.

27 - التنلاني، فهرسته، ص126.
28 - الجنتوري، نوازله،ورقة 02- 05
29- التنلاني ، المصدرفهرسته ، ص 125 .
30- التنلاني ، المصدر فهرسته ، ص 124 .
31- بن أبّ ، رحلته ، ص 67 .
32- الجنتوري، نوازله، ص 01 .
33- المصدر نفسه ، ص 01 .
34- بن أبّ ، رحلته، ص 67 .
35- التنلاني ، فهرسته ، ص 124 .

36- بن أبّ ، رحلته ، ص 67 .
37- التنلاني ، فهرسته ، ص 125 .
38 - التنلاني فهرسته ، ص87.
39 - ابن أب، رحلته ، ص 67.
40 - ابن أب، رحلته ، ورقة 67.
41 - فهرسة التنلاني، ص122.
42 - فهرسة التنلاني، ص120.
43 - الجنتوري، نوازله، ورقة 01
44 - فهرسة التنلاني، ص123.
45 - فهرسة التنلاني، ص123.
46 - الجنتوري، نوازله ورقة 07.
47- فهرسة التنلاني، ص 124.
48 - ابن أب، رحلته، ورقة 67.

واقع القطاع الصحي في موريتانيا (من خلال مدينة نواكشوط)

أة. لاله بنت سيدي الأمين، أستاذة الجغرافيا ــ جامعة نواكشوط

عند إنشاء منظمة الصحة العالمية عام **1946 L'OMS** كإحدى المنظمات المنبثقة عن الأمم المتحدة ورد في مقدمة دستورها تعريف "الصحة" ينص على أنها "حالة من اكتمال السعادة البدنية والعقلية والاجتماعية، لا مجرد انعدام المرض أو العجز"[1] .

كما حددت أيضا منظمة الصحة العالمية، ومنظمة اليونيسيف مع كثير من المنظمات المعنية بالصحة مفهوم "الصحة للمجتمع" على الشكل التالي:

الصحة هي حالة من السلامة الشخصية يمكن للفرد من خلالها أن يعيش حياة منتجة: اجتماعيا واقتصاديا، وتعني ضمنا: القضاء على سوء التغذية والجهل والإسكان غير الصحي، مثلما تعني حل المشاكل الطبية: كنقص الأطباء والمستشفيات واللقاحات والأدوية وغيرها.

تجسدت هذه الآراء في عام **1978** في الاجتماع المشترك لمنظمة الصحة العالمية ومنظمة اليونيسيف، الذي انعقد في "الماآتا" بمشاركة **143** دولة، حيث تم إصدار إعلان "الماآتا" الذي تبنى مفهوم الرعاية الصحية الأولية كوسيلة لتحقيق الصحة للمجتمع بحلول العام **2000**[2]. وأوضحت أن الصحة جزء لا يتجزأ من التنمية، ودعت منظمة الصحة العالمية في دورتها الثانية والثلاثون (**1979**) الدول الأعضاء في منظمة الصحة العالمية إلى أن تعمل على صياغة استراتيجيات وخطط عمل وطنية، لتحقيق هدف توفير الصحة للجميع بحلول العام **2000**، وبعد ذلك وضعت خطة تحقيق أهداف الألفية **2015** ومن ضمنها الصحة، وفي هذا البحث سنحاول إلقاء الضوء على الوضع الصحي في موريتانيا بصورة عامة، ونواكشوط بصفة خاصة، وهل تتماشى البنى التحتية الصحية في مدينة نواكشوط مع التزايد السكاني ؟ وما مدى تأثير ذلك على الصحة؟ خاصة صحة الأم والطفل، وارتباط ذلك بمدى تحسن الأوضاع الصحية للسكان، وهل هناك تفاوت في توزيع هذه المنشآت بين مختلف أحياء العاصمة؟.

وسأعتمد في هذا البحث على إحصائيات لهيئات دولية، كمنظمة الأمم المتحدة ومنظمة الصحة العالمية، ومسوحات ودراسات ميدانية أجرتها جهات رسمية ومحلية خاصة الدراسة التي أجرتها مجموعة نواكشوط الحضرية **2012** للبنى التحتية القطاع الصحي في مدينة نواكشوط، وسنحاول من خلال هذا البحث معرفة مدى مساهمة هذه التجهيزات في تقديم الخدمات الصحية لسكان العاصمة التي تعتبر مركزا لتركيز المنشآت الطبية المادية والبشرية، وهل تحترم هذه المنشآت الصحية المقاييس الدولية لتقديم الخدمات الصحية للسكان؟

1 ــ المؤشرات الصحية والديمغرافية في موريتانيا

تسهم مشكلات ، مثل عدم توفير المياه والتخلص من النفايات والفضلات (على مستوى الوسط الحضري)، السكن الرديء، مكافحة الحشرات الناقلة للعدوى "الباعوض" "الذباب" تلوث المياه والتربة والهواء، نقص التغذية، نقص التعليم، الكثافة السكانية على مستوى المساحات وداخل البيت الواحد، كلها مؤشرات تؤدي إلى ارتفاع معدلات المرض ونسبة الوفيات بين الأطفال، فالتخطيط التنموي الذي يأخذ بعين الاعتبار هذه المشكلات، من شأنه أن يؤدي إلى صحة جيدة.

يلاحظ تدني الوضع الغذائي للمجتمع أو لأغلبه، مما يؤدي إلى سوء التغذية الحاد وينتشر أساسا بين الأطفال والنساء الحمل، كما أن انتشار حشرة الباعوض في الوسطين الحضري والريفي يؤدي إلى انتشار حمى "الملاريا"، كما يؤدي تلوث المياه إلى انتشار مرض "الكوليرا" في الفصل الحار، خاصة في المدن. وبالأخص في الأحياء الفقيرة المكتظة، ويمكننا أن نرسم خريطة إجمالية للواقع الصحي في موريتانيا من خلال مؤشرين بالغي الدلالة.

ـــ المؤشر الأول: وهو أكثر حساسية، ويتمثل في معدل وفيات الرضع والأطفال دون الخامسة من العمر.

ـــ المؤشر الثاني: يتمثل في العمر المتوقع للشخص عند الولادة.

✓ المؤشر الأول: معدل وفيات الرضع والأطفال دون الخامسة من العمر

ينقسم معدل وفيات الرضع، طبقا للمقاييس المقترحة للأمم المتحدة إلى ثلاث مستويات.

ـــ المستوى المنخفض: معدل وفيات الرضع أقل من **50** ألف لكل مولود حي.

ـــ المستوى المتوسط: من **50** ـــ **100** لكل ألف مولود حي.

ـــ المستوى المرتفع: أعلى من **100** لكل ألف مولود حي.

يرتبط مستوى الوفيات بمدى التقدم الاقتصادي والاجتماعي للدولة، ومع أن العالم شهد هبوطا ملموسا في مستوى الوفيات في العصر الحديث عما كانت عليه من قبل، إلا أنه بدا من وقت مبكر في الدول المتقدمة ترافق مع الثورة الصناعية في القرن الثامن عشر، وكذلك الثورة الزراعية التي أسهمت في توفير الغذاء لأكبر عدد ممكن من السكان.كذلك الاكتشافات العلمية الطبية لمقاومة الأمراض، وتطور وسائل النقل، وعلى النقيض من ذلك فإن الهبوط في مستوى الوفيات في الدول النامية لم يحدث إلا بعد الحرب العالمية الثانية بعقدين أو بثلاثة عقود. وذلك بعد ما نالت هذه الدول استقلالها، واستفادت من انتشار الاكتشافات الطبية خارج الدول الأوربية، ما أدى إلى هبوط سريع في معدلات الوفيات الخام. و يقارب معدل الدول المتقدمة حدود **1000/9** حسب إحصائيات العام **2008**، وبلغ في موريتانيا **1000/289** سنة **2009** في الفئة العمرية ما بين **15** ـــ **60** سنة[3].

لكن معدل الوفيات يختلف حسب فئات الأعمار، فالمعدل الأكبر حساسية هو معدل وفيات الرضع والأطفال قبل الخامسة من العمر، الذي يعبر عن مدى اهتمام الدولة، وانعكاس ذلك في مستوى الخدمات الصحية والاجتماعية في البلاد وكذلك في البيئة المحلية، فقد انخفض معدل وفيات الرضع في الدول المتقدمة من **28** بالألف في العام **1970** إلى حدود **5** بالألف في لعام **2008** ، حيث وصل حالة استقرار. بينما انخفض في الدول النامية في نفس الفترة الزمنية من **167** بالألف إلى **54** بالألف، وفي البلدان الأقل نموا من **244** إلى **84** بالألف. وبلغ المعدل العالمي **47** بالألف، وفي الدول العربية **38** بالألف، وهي تتفاوت في ذلك، كما تتباين هذه المعدلات في الدول النامية حسب الوضع الاقتصادي والاجتماعي، وفقر البيئة لهذه الدول فبلغت في العام **2008** مثلا **165** بالألف في أفغانستان، **55** في اليمن، **25** في اندونيسيا و **18** في تونس[4] . بينما هي معدلات متقاربة لدى الدول المتقدمة، وتتراوح بين **2** ـــ **5** بالألف.

وتعود أسباب وفيات الرضع إلى عوامل كامنة لم تتمكن حتى الدول المتقدمة حتى من السيطرة عليها كليا، وإلى أسباب خارجية استطاعت السيطرة عليها إجمالا، في حين أن الدول النامية لم تتوصل بعد إلى ذلك.

وكذلك نلاحظ الفرق الشاسع بين معدل وفيات الأطفال دون الخامسة حيث انخفض في الدول المتقدمة عن **24** بالألف في العام **1970**، وإلى ما بين **6** ـــ **9** بالألف في العام **2008**. بينما انخفض في الدول النامية في نفس الفترة من **162** إلى **60** بالألف، وفي الدول الأقل نموا من **241** إلى **130** بالألف، بينما انخفض المعدل العالمي من **93** إلى **63** بالألف.

وقد حققت موريتانيا تقدما في خفض معدل وفيات الرضع دون السنة، فانخفض من 74[5] في الألف عام 2000 إلى 39 بالألف عام 2010، حسب الذين يولدون في المراكز الصحية، وكذلك معدل وفيات الأطفال دون الخمس سنوات، حيث انخفض المعدل عن 116 بالألف عام 2000 إلى 111 بالألف عام 2010.

ويلاحظ أن نسبة وفيات الأطفال ترتفع لدى الأطفال الذين لم تحظى أمهاتهم بمستوى تعليمي، بينما تنخفض بتفاوت لدى الأطفال الذين حظيت أمهاتهم بمستويات تعليمية مختلفة، 128% غير المتعلمات أو تعليمهن محظري مقابل 96% متعلمات تعليم ابتدائي فما فوق.

كما تتفاوت نسبة وفيات الأطفال بين الوسطين الريفي والحضري، 120% في الأول مقابل 112% في الثاني، وتتفاوت النسبة تبعا للوضع الاقتصادي.

أما بخصوص وفيات الأمهات أثناء الولادة أو بعدها فإن النسبة تراجعت من 870 سنة 2002 إلى 747 امرأة لكل 100 ألف سنة 2010، وتحصل نسبة 39%[6] من هذه الوفيات في الفئة العمرية (15 ــ 49 سنة) وتعود لأسباب لها صلة بالولادة.

✓ المؤشر الثاني: توقع العمر عند الولادة "أمل الحياة"

كان لانخفاض مستوى الوفيات في موريتانيا خصوصا في الأعمار المبكرة أثره الواضح في ارتفاع متوسط طول العمر لدى الأفراد، مما أدى إلى تزايد أعداد المسنين فوق 60 سنة، فارتفع توقع العمر إلى 58 سنة، ومعدل الحياة عند 60 سنة عام 2009.

ويلاحظ ارتفاع أمل الحياة لدى النساء (50,9 ذكور، 54,1 إناث)[7] وقد وصل في الدول المتقدمة إلى 79 سنة، (73 ذكور مقابل 80,2 إناث) في العام 2008. وارتفع في الدول النامية إلى 66 سنة (63,8 ذكور/ 67,8 إناث) وفي الدول العربية 58,5 سنة (66,7 ذكور/69,61 إناث)، ويعد ارتفاع أمل الحياة عند الولادة لدى النساء أكبر منه لدى الذكور ظاهرة تسود كل المجتمعات، وذلك لما تتصف به النساء من إمكانية البقاء على قيد الحياة لمدة أطول من الرجال، ونظرا لما يتعرض له الذكور طيلة حياتهم من التعب والإرهاق والعمل جراء مزاولتهم بعض المهن الخطرة التي تعرض حياتهم لخطر الوفيات بأعداد أكبر، كالعمل في البناء والمناجم والحروب.

ويلاحظ أن توقع متوسط العمر لدى الولادة يختلف من منطقة لأخرى،حيث يرتفع في العاصمة نواكشوط عنه في المدن الأخرى. ويعود ذلك إلى تحسين المستويات المعيشية ولاسيما الصحية لدى سكان المدينة رغم تفاوت ذلك تبعا للدخول، ويتباين أمل الحياة بين الوسطين الريفي والحضري تبعا لنفس العوامل سابقة الذكر.

2 ــ تطور القطاع الصحي في موريتانيا

في بداية الستينات كان القطاع الصحي في البلاد اشد تخلفا، فلم يخلق المستعمر الفرنسي أي نوع من البنى التحتية في كل أنحاء البلاد، كان السكان حينها يتلقون العلاج في مستوصفات متواضعة في الدول المجاورة، مالي بالنسبة للمناطق الشرقية والوسطى، والسنغال بالنسبة للمناطق الأخرى، وظل معظم السكان يعتمدون على الطب التقليدي. سادت هذه الوضعية مدة طويلة إلى أن حصل البلد على الاستقلال، وبدأ التفكير في تأسيس بنى تحتية متواضعة لقطاعي التعليم والصحة خاصة في عواصم الولايات حديثة النشأة وكان ذلك حافزا لبعض السكان في النزوح إلى المدن للاستفادة من هذه الخدمات، كما بدأت البوادر الأولى للهجرة نحو العاصمة الحديثة نواكشوط، قدر عدد سكان موريتانيا حينها، حسب إحصاء

1965 ب 1097900 نسمة، وصل عدد سكان نواكشوط[8] 12178، مثل عدد سكان الوسط الريفي ب 90% نظرا لارتباط السكان بالأنشطة الاقتصادية التقليدية "الرعي ــ الزراعة".

إلا أن جفاف 1968 كان البداية الفعلية لظهور موجات نزوح وهجرات داخلية كبيرة من الأوساط الريفية إلى المدن الناشئة.وكانت مدينة نواكشوط من أكثر المدن استقطابا للمهاجرين نظرا لما تتوفر عليه من فرص يرى المهاجر بأنها قد تحقق له مستوى عيش أحسن بعد أن قضى الجفاف على مصدر رزقه. كما حظيت العاصمة الاقتصادية نواذيبو بحظ أوفر من التيارات الهجرية بعد نواكشوط، وكانت مدينة نواكشوط تدين في الأصل لوجودها للمهاجرين، بدأت تعرف توسع مجالي عشوائي أدى إلى ظهور "الكبات" أحياء الصفيح, التي بدأت تكتظ بالسكان الذين أصبحوا يعيشون في ظروف سكنية سيئة ستنعكس فيما بعد على صحة ساكنيه.

هذه المدينة التي لم تعرف لا منشآت خدمية أو بنى تحتية اجتماعية أو ثقافية. ونظرا لذلك فقد بدأت الدولة بمساعدة خارجية من تشييد المستشفى الوطني 1966 الذي يعتبر أكبر مركز صحي ,يقدم العلاج لأكبر عدد من السكان من مختلف مناطق البلاد. وقد بدأت الدولة في إنشاء مراكز صحية في شكل مستوصفات متواضعة وغير متخصصة في مختلف مدن البلاد، وتفتقر إلى الأطباء والممرضين، وقد اعتمدت على بعض الأطباء الأجانب من مختلف الدول، خاصة جمهورية الصين الشعبية التي أرسلت طواقم طبية لمختلف المدن الداخلية.

3 ــ تطور البنى التحتية والخدمات الصحية (في مدينة نواكشوط)

لقد تطور عدد المستشفيات والمستوصفات والنقاط الصحية في مختلف أنحاء موريتانيا بتفاوت بعد الاستقلال، إذ حظيت معظم أو كل الولايات وخاصة عواصم الولايات بمستشفيات ومستوصف لكل عاصمة ولاية، وغالبا ما تزود هذه المستشفيات بطبيب رئيسي ومدير عام ويكون طبيب بالإضافة إلى طبيب للمستوصف، وبعض الممرضين والممرضات وأعوانهم، كما أن معظم المقاطعات مزودة بمراكز صحية، إلا أن هذه المباني الصحية المتفاوتة الخدمات لها مشاكلها الجمة، والتي سنتطرق إليها في هذا البحث المتواضع، ولعل من أبرز تلك المشاكل أنها لم تفي بتلبية بحاجيات السكان العلاجية بالأخص في المناطق الداخلية نظرا لغياب الأخصائيين والتجهيزات اللازمة.مما شكل ضغطا على المستشفى الوطني الذي يعتبر أهم مجمع صحي في البلاد نظرا لتركز مختلف التخصصات الطبية فيه وكذلك التجهيزات.

ــ المستشفى الوطني كأهم مستشفى في البلاد

أنشأ مركز الاستطباب الوطني بعد الاستقلال سنة 1966 بطاقة استيعابية 120 سرير، وقد مر بعدة توسيعات تضمنت إنشاء مصالح جديدة، كمصلحة الأمومة ومصلحة الأنف والحنجرة والأذن، ومصلحة العيون، ومصلحة أمراض الأطفال، ومصلحة الإنعاش لتصل بذلك طاقته الاستيعابية إلى365 سرير سنة 1977وقد أستقبلت مدينة نواكشوط في هذا التاريخ تيارات هجرية كبيرة, نتيجة سنوات الجفاف المتلاحقة، ووصل عدد سكانها حسب إحصاء 1977 إلى 134704 نسمة[9].

وفي سنة 1989 أقرت الدولة تحويل المؤسسة إلى مؤسسة عمومية ذات طابع إداري باسم المركز الوطني للإستطباب بنواكشوط، مؤسسة عمومية ذات طابع إداري تتمتع بالشخصية المدنية والاستقلال المالي، تم إنشاؤها بموجب مرسوم 120/89 بتاريخ 10 سبتمبر 1989 والذي بموجبه تم دمج المستشفى الوطني سابقا ومستشفى صباح بنواكشوط بحجمه وموقعه اللذان يجعلانه على قمة هرم النظام الصحي الوطني، هو بهذا يشكل المرجع الأخير في مجال الخدمات والعلاجات الصحية والاجتماعية من ممرضين وأطباء وفنيين في مختلف المجالات والاختصاصات ذات الطابع الصحي، كما

تم إنشاء سنة **1996** مصلحة أمراض الكلى والتصفية بطاقة استيعابية تصل إلى **10** وحدات للتصفية، وفي سنة **2005** تم افتتاح مجمع العلاقات الاستيعابية بطاقة استيعابية تصل إلى **20** سرير، واستحدثت مصالح جديدة كمصلحة المسالك البولية، ومصلحة الجراحة العظمية، وفي سنة **2007** تمت توسعة مصلحة أمراض الكلى والتصفية لتصل **61** سرير، مع افتتاح مولد لإنتاج الأكسجين قادر على إنتاج وتوزيع الأكسجين على مختلف أقسام المؤسسة بصفة دائمة وفقا لمعايير الطبية المطلوبة، ويضمن هذا الجهاز، استقلالية المستشفى في مجال الغازات الطبية[10].

أما بخصوص الطاقم البشري لمركز الاستطباب الوطني فإنه يصل إلى ما يقارب **783** شخص[11]، منها **127** أطباء أخصائيين في مختلف التخصصات موزعين على **24** قسما للحجز. ومازالت بعض الاختصاصات غائبة,مثل عمليات القلب المفتوح والجراحات التجميلية وزراعة الأعضاء والتجميل. وبهذا الطاقم الطبي المهم والتجهيزات الطبية التي يتوفر عليها المستشفى، فإنه بذلك يشكل المركز الصحي الأكثر جذبا للمرضى من مختلف أرجاء البلاد. كما أنه يمثل الخيار الأفضل لمرضى مدينة نواكشوط التي قدر سكانها إلى **393325** نسمة حسب إحصاء **1988**، ووصلوا إلى **558195** حسب إحصاء **2000**[12] ، ويتوقع وصولهم إلى **846871** نسمة في **2008**. اغلبهم فقراء لا يستفيدون من التأمين الصحي.ورغم أن هذا المستشفى يوجد في منطقة يعد ساكنها من أحسن سكان العاصمة مستوى مادي، إلا أن رواده هم سكان الأحياء الأخرى.نظرا لتردد الطبقة الأكثر غنى في هذا الحي على المصحات الخصوصية أو الخارج.

4 ــ التوزيع الجغرافي للبنى التحتية الصحية في نواكشوط

تتميز مدينة نواكشوط بعدم انتظام توزيع منشآتها الصحية، المستشفيات المستوصفات ــ المختبرات ــ المصحات ــ الصيدليات، والمتتبع لتطور المنشآت الصحية في المدينة يلاحظ أنه يتسم بالفوضوية وعدم الانتظام، ويعود ذلك إلى غياب مخططات لتهيئة المجال الحضري للمدينة التي خرج نموها الديمغرافي عن كل التوقعات، إذ يقدر ب **4%** وأدى ذلك إلى تمدد عشوائي جعلها عاجزة عن توفير الخدمات الحضرية لسكانها ,على خلاف غيرها من معظم عواصم المنطقة، ولعل غياب استراتيجية وطنية جديدة في مجال التهيئة الحضرية كان له تأثير كبير على توزيع المنشآت الصحية مما أدى الى صعوبة ولوج السكان اليها , نظرا لبعدها وتتجلى حدة سوء التوزيع بشكل أكثر عندما يتعلق الأمر بالمستشفيات، فمدينة نواكشوط تحتوي على عدد هام من المستشفيات، انظر الجدول**1**:

توزيع المستشفيات في مدينة نواكشوط

الجدول1

المقاطعات	عرفات	دار النعيم	الميناء	لكصر	الرياض	السبخة	تفرغ زينه	تيارت	توجنين	المجموع
المستشفيات	1	1	ــــــــــــ	4	ــــــــ	1	4	0	0	11

المصدر: تقرير البنى التحية والخدمات الصحية بنواكشوط **2012** ــ ص **58** ، م.ن.ح.

نلاحظ من خلال الجدول السابق أن مقاطعة تفرغ زينة تستحوذ على أكبر عدد من المستوصفات، رغم أنها ليست من أكثر الأحياء سكانا إذ لا يتجاوز سكانها 75742 نسمة، يعتبرون من أحسن السكان مستوى مادي، ويليها لكصر الذي توجد فيه 3 مستشفيات ومستشفى خصوصي واحد، ويأتي في المرتبة الثانية من حيث تحسن المستوى المادي لسكانه، وتتميز بأنها المقاطعة الأقل سكانا في العاصمة 60046 حسب تعداد السكان الذي قامت به بلديات العاصمة 2009.

بينما نلاحظ أن الأحياء الأكثر سكانا والأكثر فقرا لمعظم ساكنيها عرفات ــ دار النعيم ــ توجنين ــ السبخة لا تتوفر الأولى والثانية إلا على مستشفى واحد لكل منها، هما مستشفى الصداقة في عرفات ومستشفى الشيخ زايد في دار النعيم، بينما السبخة لا يوجد فيها إلا مستشفى واحد. وتنعدم المستشفيات في الأحياء الأكثر فقرا.ورغم سوء توزيع المستشفيات في العاصمة نواكشوط فإن نواكشوط تتجاوز الحد الذي توصي به منظمة الصحة العالمية بخصوص تحديد عدد السكان لكل مستشفى 150.000 نسمة للمستشفى الواحد، بينما يصل العدد إلى 100.000ساكن للمستشفى الواحد، إذ تقاس النسبة التي حددتها منظمة الصحة العالمية على مستوى البلد وفي الحالة العامة لموريتانيا نجد أن عدد المستشفيات مقابل عدد السكان لا يفي بالمعايير المطلوبة.

وإذا كان عدد المستشفيات في نواكشوط يبدو مقبولا أو يتجاوز المطلوب ,فإن معدل الأَسرّة يبقى دون المطلوب 5 أسرّة/10000 نسمة[13], في حين أن المعدل الإفريقي 10أسرّة/10000 نسمة.ويصل المعدل في أوروبا إلى 63 سرير/10000 نسمة ونلاحظ أنهلا توجد معايير سليمة يتم على أساسها توزيع متوازن للمستشفيات تبعا للكثافة السكانية والحاجة إلى وجود المستشفى قريب من السكان الأكثر فقرا. وقد يعلل البعض ذلك بقدم بعض هذه المستشفيات الموجودة مثلا في منطقة تفرغ زينه ولكصر. نظرا لقدم الحين وحداثة بعض المقاطعات التي لم تظهر إلا في نهاية الثمانينات، قد يكون ذلك سليما لكن مقاطعتي توجنين والميناء والسبخة من أقدم المقاطعات بعد لكصر وتفرغ زينه.حيث تأسست الميناء والسبخة 1974 وتوجنين 1980 ومع ذلك مازالت هذه المقاطعات بدون بنى تحتية ذات قيمة، مع أنها تعرف تزايدا سكانيا كبيرا. أنظر الجدول 2.

توزيع سكان نواكشوط تبعا للمقاطعات

الجدول 2

المقاطعة	عرفات	دار النعيم	الميناء	لكصر	الرياض	السبخة	تفرغ زينة	تيارت	توجنين
السكان	250.380	125.308	194.275	60046	64135	96300	75742	73346	167345
المجموع 1106798 نسمة									

المصدر: تقرير البنى التحتية والخدمات الصحية بنواكشوط ــ ص 55، م.ن.ح

وتظهر حدة سوء توزيع الوحدات الصحية أو العلاجية في مدينة نواكشوط عندما نقيس الكثافة السكانية لكل وحدة علاجية تبعا لتوزيع السكان. أنظر الجدول رقم 3:

معدل الكثافة السكانية لكل وحدة علاجية

الجدول 3

المقاطعة	وحدة علاجية	عدد السكان لكل وحدة علاجية
عرفات	33	7585
دار النعيم	20	6265
الميناء	10	19428
لكصر	31	1937
الرياض	10	6414
السبخة	15	6420
تفرغ زينه	69	1098
تيارت	15	4890
توجنين	11	15213
المجموع	214	5172

المصدر: تقرير البنى التحتية والخدمات الصحية بنواكشوط ــ ص 55، م.ن.ح

نلاحظ من خلال الجدول ارتفاع واضح للكثافة السكانية على الوحدات الصحية والعلاجية في مقاطعتي الميناء وتوجنين وهما في نفس الوقت المقاطعات الأقل من حيث عدد الوحدات، وتقل نسبة المراكز كذلك في أحياء كل من السبخة وتيارت ودار النعيم والرياض وعرفات.

ونلاحظ أن النقاط والمراكز الصحية الموجودة في نواكشوط غير كافية، مقارنة مع عدد السكان، فقد حددت منظمة الصحة العالمية نسبة 0,2 مركز صحي لكل 10.000 ساكن، ونقطة صحية لكل 1000 ساكن، غير أن النسبة في نواكشوط هي 0,154 مركز صحي و 0,235 نقطة صحية لكل 10.000 نسمة، لكي تكون العاصمة في المستوى المطلوب من منظمة الصحة العالمية ينبغي إنشاء 5 مراكز صحية و 85 نقطة صحية، يجب أن يتماشى ذلك مع النمو الديمغرافي المستقبلي للمدينة، ولا يقتصر سوء توزيع البنى التحتية الصحية على المنشآت الصحية العلاجية، بل إن الصيدليات تعاني من فوضوية في التوزيع، أنظر الجدول 4.

التوزيع الجغرافي للصيدليات في نواكشوط

الجدول 4

المقاطعة	عرفات	دار النعيم	الميناء	لكصر	الرياض	السبخة	تفرغ زينة	تيارت	توجنين	المجموع
الصيدليات	74	42	7	16	15	19	40	11	36	260

المصدر: البنى التحتية والخدمات الصحية بنواكشوط 2012، م.ن.ح

نلاحظ التفاوت الواضح بين مقاطعات نواكشوط. إذ تعد عرفات من أكثر المناطق عدد **74** صيدلية، بينما تسجل مقاطعة الميناء أقل عدد، وإذا أجرينا مقارنة بين عدد الصيدليات مع حجم السكان نلاحظ أن تفرغ زينة هي الأكبر (**5,3** صيدلية لكل **10.000** نسمة)

وتأتي عرفات في المرتبة الثانية ودار النعيم في المرتبة الثالثة، على التوالي **3 3,4** لكل **10.000** نسمة، وهذا أقل من المستوى الذي تحدد منظمة الصحة العالمية، ويؤدي سوء توزيع الصيدليات داخل العاصمة إلى عدم التساوي في ولوج السكان إلى الخدمات الصحية.

- **العيادات**

يعتبر مجمع العيادات من أهم وأقدم العيادات العمومية في البلاد، وقد ساهم الموقع الجغرافي للعيادة بجعلها وجهة سهلة لكل سكان نواكشوط وسكان البلاد بصفة عامة، حيث تتوسط العيادة المجمعة العاصمة ويسهل الوصول إليها من كل جهاتها، بالإضافة إلى هذه العيادة العمومية توجد عيادات خصوصية تتوزع بشكل غير متوازن داخل المقاطعات. أنظر الجدول **5**

التوزيع الجغرافي للعيادات في العاصمة

الجدول5

المقاطعة	عرفات	دار النعيم	الميناء	لكصر	الرياض	السبخة	تفرغ زينة	تيارت	توجنين	المجموع
العيادة	2	0	0	3	0	1	10	0	1	17

المصدر: البنى التحتية الصحية لمدينة نواكشوط **2012** ، ص **59**، م.ن.ح

يلاحظ أن تفرغ زينه تستحوذ على أكثر من **50%** من العيادات، يليها لكصر وعرفات والسبخة و توجنين، أما بقية المقاطعات فلا تتوفر على أية عيادة، ومن المعلوم أن العيادات الخصوصية غالبا ما لا يتردد عليها أصحاب الدخل الضعيف، مما يعني أن روادها أكثرهم من أصحاب الدخل المتوسط والمرتفع، وتتوفر معظم العيادات على أسرّة تصل في بعض الأحيان إلى **25** سرير، وغرفة عمليات، وبعض سيارات الإسعاف، وتتفاوت هذه العيادات من حيث نوعية التجهيزات وكذلك الطواقم الطبية المتخصصة، إلا أنها تمتص أعداد هامة من المرضى من ذوي الدخل المرتفع والمتوسط. أما جزء من هؤلاء فإنه يتلقى العلاج خارج البلاد.

- **مختبرات التحليل**

تتميز بسوء التوزيع، حيث تتواجد وحدات التحليل في مركز المدينة وتقل أو تنعدم في الأحياء الأخرى، أنظر الجدول **6**.

توزيع المختبرات الطبية في مدينة نواكشوط

الجدول 6

المقاطعة	عرفات	دار النعيم	الميناء	لكصر	الرياض	السبخة	تفرغ زينة	تيارت	توجنين	المجموع
مختبر التحليل	3	0	0	2	0	0	7	0	2	14

نفس المصدر السابق

نلاحظ أن تفرغ زينة تحتكر 50% من عموم المخابر الموجودة في نواكشوط.

- **المكاتب العلاجية**

حوالي 132 مكتب علاجي توجد في مدينة نواكشوط يمكن أن تكون هذه المكاتب العلاجية مكملة للنقص في البنى التحتية العمومية، ونلاحظ أن تفرغ زينة التي توجد بها نسبة 6,81% من السكان تستحوذ على 39% من المكاتب العلاجية، يليها لكصر 16% ، عرفات 15%، دار النعيم 7%، أنظر الجدول7.

التوزيع الجغرافي للمكاتب العلاجية

الجدول7

المقاطعة	عرفات	دار النعيم	الميناء	لكصر	الرياض	السبخة	تفرغ زينة	تيارت	توجنين	المجموع
المكاتب	20	9	2	21	2	10	52	10	5	131

مصدر سبق ذكره

نلاحظ من خلال الجدول أن نفس حالة التفاوت للنقاط الصحية والصيدليات والمستشفيات تتكرر بنفس التباين الواضح بين مقاطعات العاصمة، حيث تستأثر تفرغ زينة بمعظم المكاتب العلاجية، سبق وأن عللنا السبب، بينما تعاني الأحياء ذات الكثافة السكانية العالية والتي تتواجد فيها الفئات الأكثر هشاشة والأكثر تعرضا للأمراض نتيجة الظروف الاقتصادية والسكنية ألغير صحية التي غالبا ما تطبع ساكنة هذه الأحياء، خاصة فئة النساء في سن الإنجاب والأطفال الذين يتعرضون لأمراض متنوعة تستلزم ضرورة حصولهم على علاجات ولقاحات مرتبطة بفترات زمنية معينة، ونلاحظ من خلال استنتاجاتنا لبعض الدراسات، أن المستوى التعليمي والمادي والوسط الذي يقيم فيه الساكن ينعكس بشكل مباشر على استفادته من الخدمات الصحية، وسنتعرض إلى ذلك من خلال الصحة الانجابية (للأم والطفل) بصفتهم الفئات السكانية الأكثر هشاشة.

الاستفادة من القطاع الصحي

الصحة الإنجابية

أ ــ الخصوبة لدى النساء

يصل مستوى الخصوبة لدى النساء الموريتانيات في سن الإنجاب إلى معدل 4,7 طفل، ومعظم هذه الولادات تحصل عند أكثر من نصف النساء في سن 20,7 سنة، وتتفاوت نسبة الخصوبة تبعا للوسط الذي تقيم فيه المرأة، ففي الوسط الريفي يصل المعدل إلى 5,0 طفل للمرأة الواحدة، و4,3طفل في المستوي الحضري، كما يلعب المستوى التعليمي للمرأة دور كبير في تحديد عدد الأولاد لدى المرأة، فمثلا المرأة المتعلمة تعليم ثانوي فما فوق تنجب 3,5 طفل بينما المتعلمة تعليم ابتدائي تنجب 4,6 طفل، بينما يرتفع الإنجاب لدى النساء غير المتعلمات إلى 5,3طفل.

ويلاحظ على العموم أن معدل الخصوبة انخفض لدى النساء الموريتانيات في العقود الأخيرة من معدل 6,8 إلى 4,7 شخص، ويتناقص أكثر في العاصمة نواكشوط ليصل إلى 4,3 طفل للمرأة (أنظر الجدول 8

تطور الخصوبة لدى الأمهات

الجدول 8

السنوات	مستوى الخصوبة
1962 – 1966	6,5 طفل
1967 – 1971	6,9
1972 – 1976	7,2
1981 – 1991	6,3
2000 – 2010	4,7

Feconduté et ETHNIE en Mauritanie P 81
Keumaye IGNE GONGBA, 1992

ويمكن أن يحلل ذلك بانتشار الوعي لدى الأسرة وخاصة النساء باستعمال موانع الحمل لتنظيم الإنجاب، إضافة إلى الصعوبات الصحية التي تواجهها النساء أثناء الحمل وانتشار الأمراض المرافقة للحمل "كارتفاع الضغط والسكر وفقر الدم" هذا إضافة إلى تدني المستوي المادي لدى معظم الأسر، وارتفاع تكاليف الحياة لدى الأسرة، وخاصة في العاصمة نواكشوط التي يوجد فيها أكبر تركز سكاني للعائلات الموريتانية، كذلك نلاحظ من خلال جدول توزيع المراكز الصحية في العاصمة أن هذه المراكز توجد في مناطق نائية إلى حد ما عن أكبر التركزات السكانية وأكثرها فقرا. كما أن انتشار الفقر بين هذه الساكنة وارتفاع التكلفة المادية لمعظم المستوصفات والمستشفيات الصحية وقلة التأمين الصحي لهؤلاء السكان يؤدي على عزوفهم عن التردد على هذه المراكز. ورغم ذلك فإن 89% من مواليد نواكشوط يولدون في مراكز صحية متفاوتة من حيث التكاليف، كما أن 92% من النساء في نواكشوط يتابعن عند أشخاص لهم علاقة بالصحة، وإذا قارنا هذه النسب مع المعدل العام للبلاد والمقدر ب 49% من المواليد يولدون في المراكز الصحية نجد أن نواكشوط يتميز عن المناطق الأخرى بارتفاع لنسبة النساء المهتمات بصحتهن وصحة مواليدهن مقارنةمع المناطق الجنوبية الغربية 23% فقط يتابعن في مراكز صحية، وفي المناطق الجنوبية الشرقية 66% يلدن في بيوتهن، ومعظمهن غير متعلمات، ويلاحظ على العموم أن 88% من النساء المتعلمات يلدن في مراكز صحية، وأن 78% منهن يترددن أكثر من 4 مرات على الأطباء لمتابعتهن أثناء الحمل. يوضح الشكل البياني التالي أهمية هذا التباين تبعا للوسط والمستوى التعليمي للأمهات.

	النسبة المئوية
موريتانيا	57
المنطقة	
نواكشوط	92
جنوبية شرقية	23

النهر	51
الشمال	74
الوسط	39
المستوى التعليمي	
بدون تعليم	42
تعليم محظري	48
تعليم ابتدائي	77
ثانوي فما فوق	93

المصدر: **Mauritanie enquête démographique et de santé 2000 – 2001, ONS – P8**

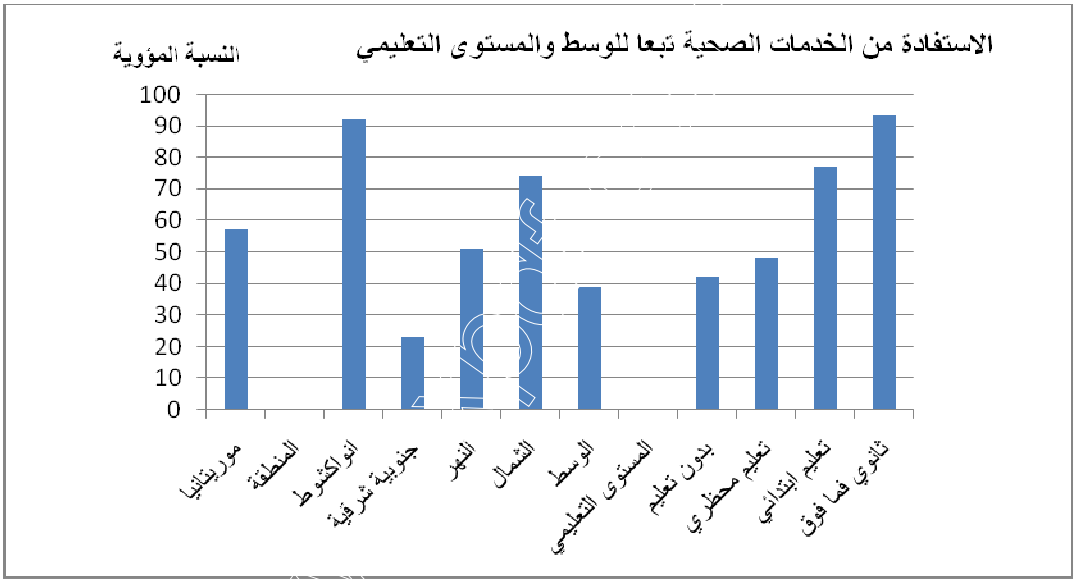

كما أن هذا التباين في الولادات بين الأمهات تبعا للمستوى التعليمي، وكذلك بين الجهات سينعكس بشكل ملاحظ على صحة الأطفال، ولعل ذلك ما سنتعرض له في محور صحة الأطفال واللقاحات التي تقوم بها الدولة للحد من الوفيات في صفوفهم.

ب ــ الأمراض التي تصيب الأطفال

لعل من أكثر الأمراض شيوعا بين الأطفال دون سن الخامسة هي أمراض سوء التغذية، وهو من الأمراض الأكثر انتشارا بين الأطفال في الدول الفقيرة في الوسطين الريفي والحضري، ويلاحظ الارتباط القوي بين مستوى الدخل الأسري وانتشار الأمراض وكذلك ارتفاع نسبة الوفيات بين الأطفال. ويلاحظ ذلك على المستوى التعليمي إذ يتبين أن متوسط وفيات الأطفال ترتفع لدى الأسر الأكثر فقرا منه لدى الأسر الغنية.

إذ قلما يتلقى الأطفال في الأسر الفقيرة الرعاية الصحية ولا الوقائية ، فإذا مرض الطفل قلما يعالج لأسباب تتعلق بمستوى دخل الأسرة الذي غالبا ما لا يزيد عن 1 دولار لليوم بالنسبة للسكان الأكثر فقرا ,والذين غالبا ما يتواجدون في أحياء الهامشية داخل العاصمة وفي المدن الحضرية الأخرى. كما أن مستوى تعليم الأم ينعكس على الحالة الصحية لأطفالها.

وتنتشر أمراض الإسهال ــ حمى الملاريا ــ فقر الدم ــ الكزاز ــ التهاب الكبد الوبائي ــ التهاب السحايا ... وغيرها في صفوف الأطفال.

ولعل التغطية الصحية التي تقوم بها الدولة لم تشمل في السنوات الأخيرة سوى 32% [14]من الأطفال ما بين سن 12 ــ 23 شهرا بالنسبة للقاح البرنامج الموسع للتلقيح PEV ، و15% لم تتلقى أي لقاح، وترتفع نسبة تلقيح الأطفال في الوسط الحضري، خاصة في عواصم الولايات، مثلا 36% من الأطفال في نواكشوط تلقوا التلقيح من البرنامج الموسع للتلقيح، مقابل 41% في المدن الأخرى، بينما تضعف نسبة اللقاحات في الوسط الريفي (27%).

وغالبا ما تكون الأمراض الأكثر شيوعا بين الأطفال الأقل من 5 سنوات تتمثل في قصور التنفس الحاد IRA ويرتفع هذا المرض أكثر بين الأطفال في نواكشوط 12% نتيجة عامل الرطوبة، ويصل في الوسط الريفي إلى 9%، ويلاحظ أن 39% من الأطفال الذين يصابون بهذا المرض يترددون على المراكز الصحية، وتمثل نسبة الأطفال الذين يصابون بالحمى 31%، وترتفع نسبتهم في نواكشوط 35%، وتتردد 41% منهم على المراكز الصحية، وتصل نسبة المصابين بالإسهال بين الأطفال حسب دراسة L'EDSM إلى 18%، وترتفع النسبة في نواكشوط لتصل إلى 22%، وفي الوسط الريفي 16%، وينتشر الإسهال بين الأطفال في الفئة العمرية 6 ــ 23 شهرا، وحسب منظمة الصحة العالمية ووزارة الصحة فإن 36% فقط منهم تلقوا القطرات عن طريق الفم، علاج التمييهTRO و 76% وناولتهم أمهاتهم SRO أملاح إعادة التمييه.

يتلخص واقع الوضع الصحي في موريتانيا عامة، وفي نواكشوط خاصة بفقدان خطة صحية عادلة ومتوازنة ,رغم التطور الذي تحقق في هذا المجال خاصة في مدينة نواكشوط، التي تحتكر أهم البنى التحتية الصحية والتي جعلتها تتجاوز عتبة عدد المستشفيات مقابل السكان، إلا أن ذلك لم ينعكس بشكل إيجابي على السكان نظرا, لسوء توزيع البنى التحتية الصحية داخل المدينة والتباين في المستوى الاقتصادي والتعليمي للسكان، مما يجعل الحصول على الخدمة الصحية منوطا بالوضع الاقتصادي للسكان، ومن المسلّم به أن التنمية الناجحة هي التنمية الموجهة بالدرجة الأولى نحو الفئات المحتاجة والفقيرة والمهمشة في جميع المناطق لتحسين أوضاعها على كل المستويات، خاصة إذا تعلق الأمر بالصحة.

الهوامش

[1] د عطية (فيليب)، المشكلات الصحية في العالم الثالث، عالم المعرفة، العدد 161 أيار 1992، ص 259.
[2] المرجع نفسه، ص 259
[3] تقرير عن المؤشرات الديمغرافية والصحة في موريتانيا 2009 ـ منظمة الصحة العالمية، ص 100
[4] Mauritanie enquête démographique et de santé 2000 – 2001 Rapport de synthèse P.7
[5] إحصاء البنى التحتية والخدمات الصحية لمدينة نواكشوط سبتمبر 2012 ـ مجموعة نواكشوط الحضرية، ص 106.
[6] المصدر: تقرير حالة سكان العالم 2002 "الناس والفقر والامكانات" ص 69 UNFPA
[7] Mauritanie enquête démographique et de santé 2000 – 2001. P 72
[8] Résultat de l'enquête d'démographique 1964 - 1965
[9] إحصاء 1977، المركز الوطني للإحصاء ص 7.
[10] مقابلة مع المسؤول المعني بإدارة المركز الوطني للاستطباب ـ 2012
[11] مقابلة مع إدارة مصلحة الأشخاص 2012
[12] المكتب الوطني للإحصاء ـ إحصاء 2000 ص5.
[13] تقرير البنى التحتية الصحية بانواكشوط ـ 2012، ص 61 م.ن.ح
[14] Mauritanie enquête démographique et de sante 2000 – 2001
Rapport se synthèse, P 11

المقالات بالفرنسية